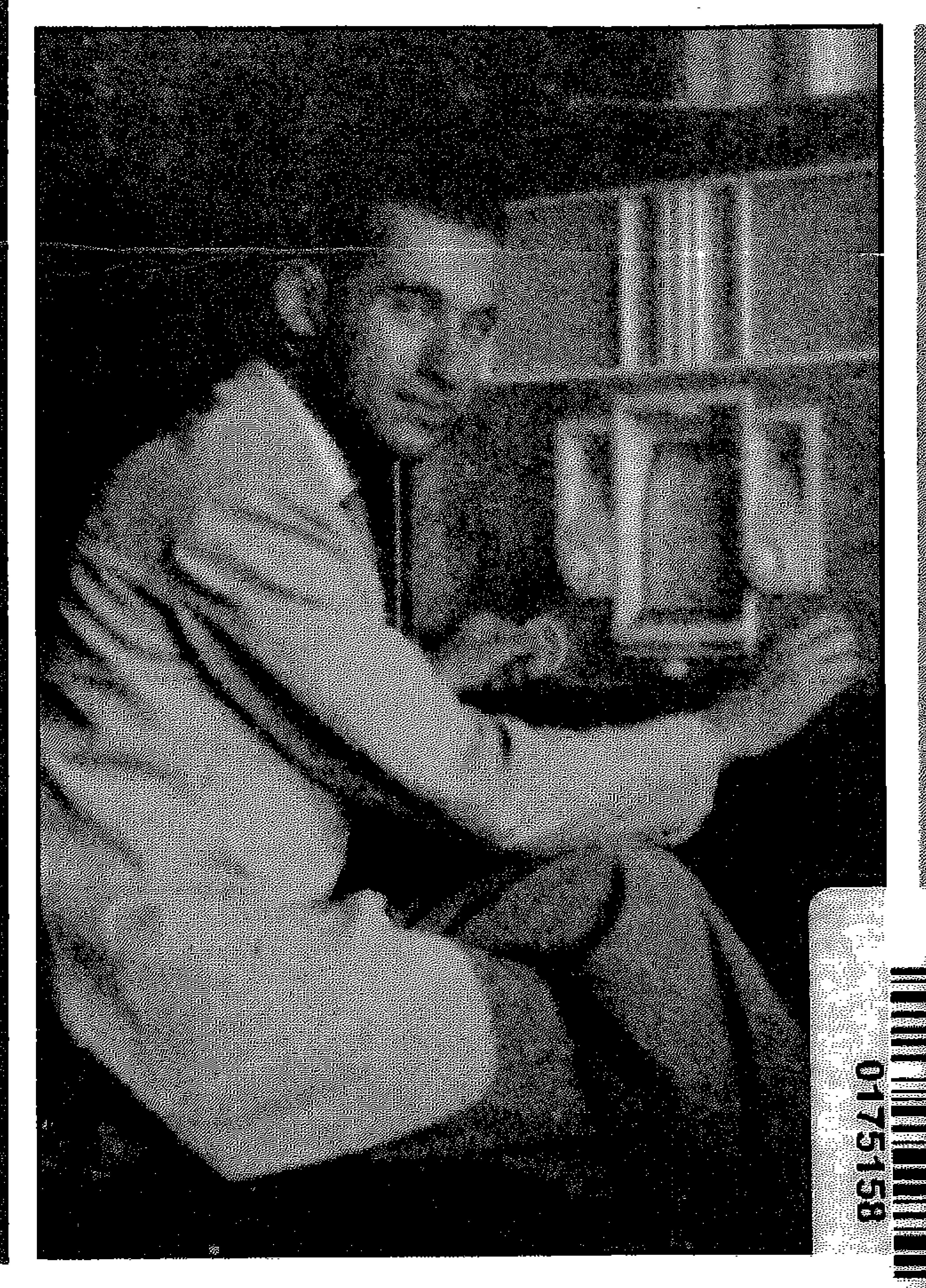
بيروت - برلين - بيروت

مشاهدات صحافي في أوروبا وألمانيا
أثناء الحرب العالمية الثانية
والحرب الباردة التي تلتها

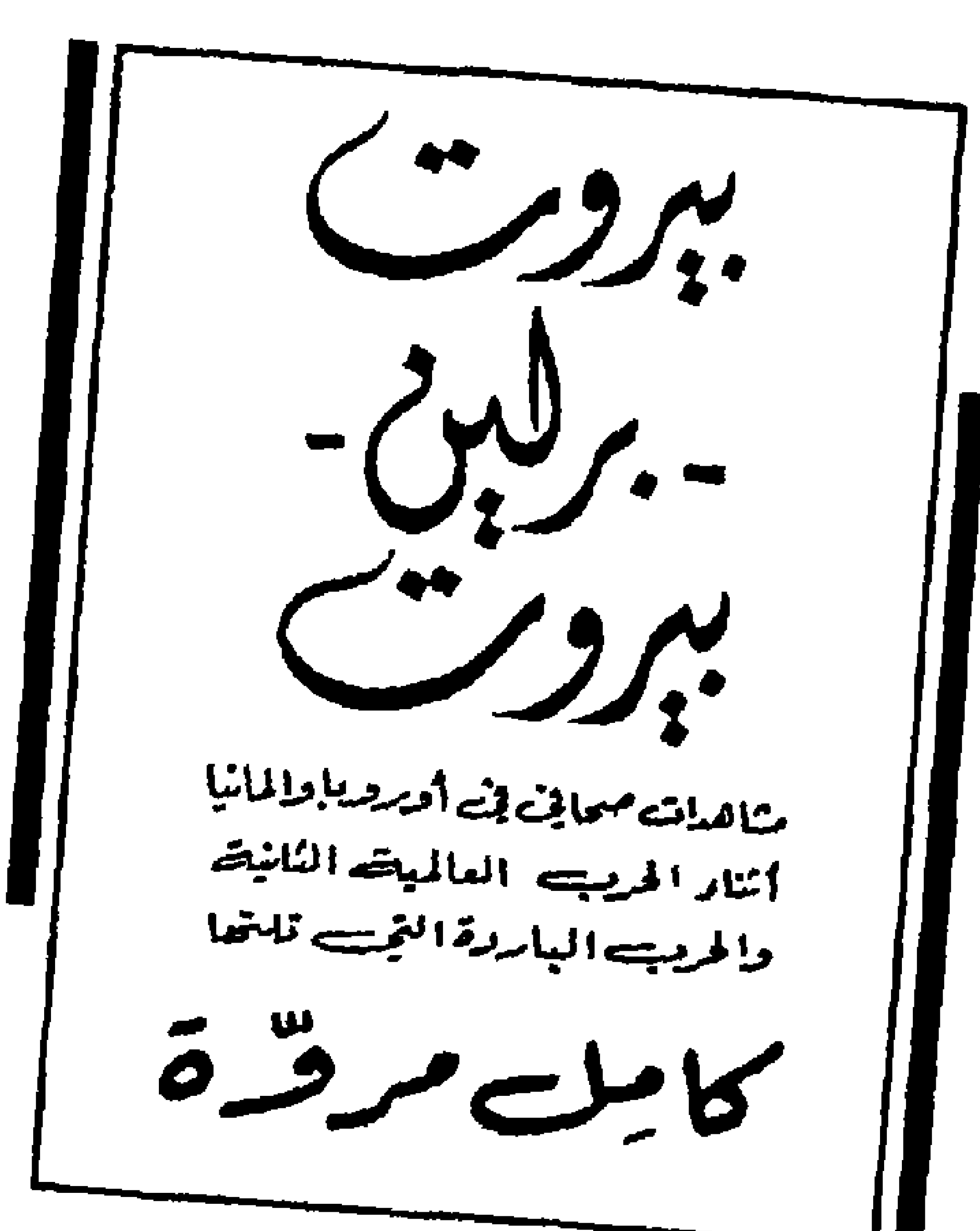
كامل مُرُوَّة



RIAD EL RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

بيروت - برلين - بيروت

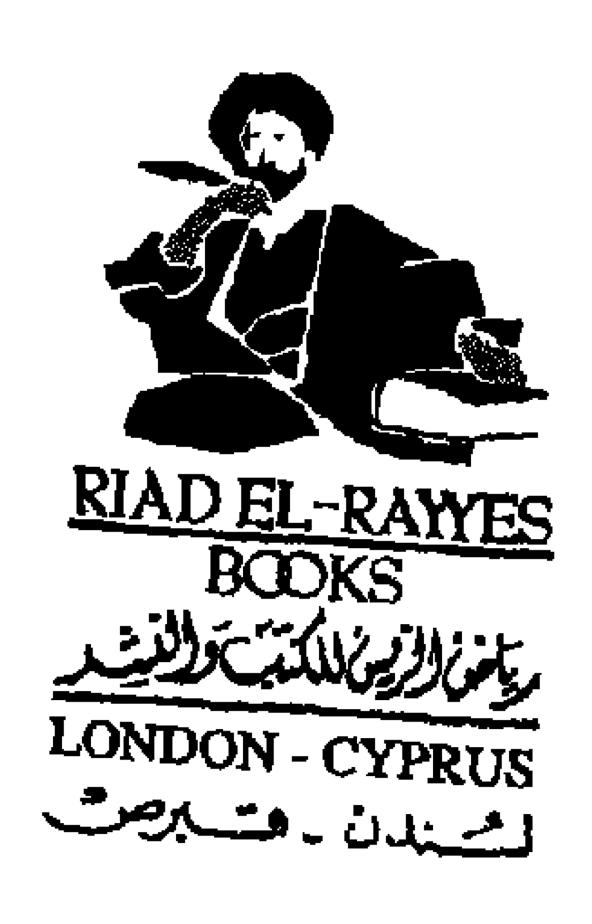




بيروت - برلين - بيروت

مشاهدات صحافي في أوروبا وألمانيا
أثناء الحرب العالمية الثانية
والحرب الباردة التي تلتها

كامل مروّة



BEIRUT - BERLIN - BEIRUT

BY

KAMEL MROWA

First Published in the United Kingdom in 1991

U.K: 56 Knightsbridge
LONDON: SW1X 7NJ
CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data
Mrowa, Kamel
Beirut - Berlin - Beirut
I. Title
940.545092

ISBN 1-85513 -084 -X

الطبعة الاولى: ايار/ مايو ١٩٩١

تقديم

في الساعة السابعة من مساء الخميس ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٩، اعلنت حكومة المانيا الشرقية فتح الحدود مع المانيا الغربية، وكل البوابات في جدار برلين، لمواطنيها الراغبين في الهجرة او السفر. وكان ذلك للمرة الأولى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

بعد نحو ساعتين (الساعة ٩,٢٥ تماماً) كانت الثغرة الأولى في الجدار فُتحت، عند نقطة العبور «بورنهولمر ستراس»، و... عبر زوجان شابان الى الغرب. واندفعت في اثرهما عاصفة بشرية تتزاحم للعبور.

«زال الجدار! زال الجدار!»

(Die mauer ist weg! Die mauer ist weg!)

... صيحات انطلقت في شطري عاصمة الرايخ الثالث. وتجمّع الالوف عند سور الاسمنت الرمادي، وتحديداً عند بوابة براندنبرغ

الشهيرة، حيث اقيم اكبر احتفال شعبي عرفته المانيا منذ خسارتها الحرب.

***

من المفارقات ان صحيفة «الحياة» كانت انهت لتوها في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٩ اعادة نشر رحلة «بيروت - برلين - بيروت» التي كان كامل مروة كتب الجزء الاول منها عام ١٩٤٦. وكانت المناسبة التي دعت ادارة الصحيفة الى اعادة نشر هذه المذكرات، الذكرى الخمسين لاندلاع الحرب العالمية الثانية. ولكن من كان يدري يومذاك ان الذكرى ستتحول ثورة، فينهار جدار برلين، وتكتمل الحلقة، وتعود المانيا واحدة، وتعود معها اوروبا الى النظام السياسي - الجغرافي الذي كان يسودها في السابق؟

«بيروت - برلين - بيروت» هي خريطة لذلك النظام الدولي القديم - الجديد، ووثيقة للقوانين السياسية التي حكمت المنطقة الممتدة بين بيروت وبرلين، بدءاً بالمشرق العربي الممزق، ومروراً بتركيا القلقة والبلقان المتفجر، ووصولاً الى الدولة الالمانية العظمى.

وهي الى ذلك مرجع قيّم للتفكير السياسي الذي طبع ما يسمى «الرعيل العربي الاول»، الذي تأثر بـ «المعجزة» الالمانية، وتحالف مع اسيادها لمحاربة الانتدابات الفرنسية والبريطانية في المنطقة، ثم هاجر الى دول المحور اثناء الحرب العالمية الثانية، ليعود بانطباعات عميقة اثرت في نظرته الى طبيعة العالم العربي، وجعلته اشد قلقاً وتوتراً مما تخبئه الايام له، وتبيّته العلاقات الدولية لمستقبله.

ثم ان «بيروت - برلين - بيروت» هي في جزئها الثاني جولة فريدة في برلين الخمسينات، المتجلدة برياح الحرب الباردة، والمنقسمة شطرين، والهاجسة على رغم كل الاحباطات باعادة التوحيد. واللافت ان كامل مروة ختم الفصل الاخير من رحلته عام ١٩٥٩ بالقول: «(ان هذه

التجـزئة) تصلـح لفترة قصـيرة، ولكنها لا يمكن ان تخلـد. ومـا دامت المانيا ممـزقة، فلن يعـرف العالم ايـة راحة» (ص ٢٧٣). وقـد صحت «نبوءة» الوحدة، ويبقى ان يعرف العالم الاستقرار.

***

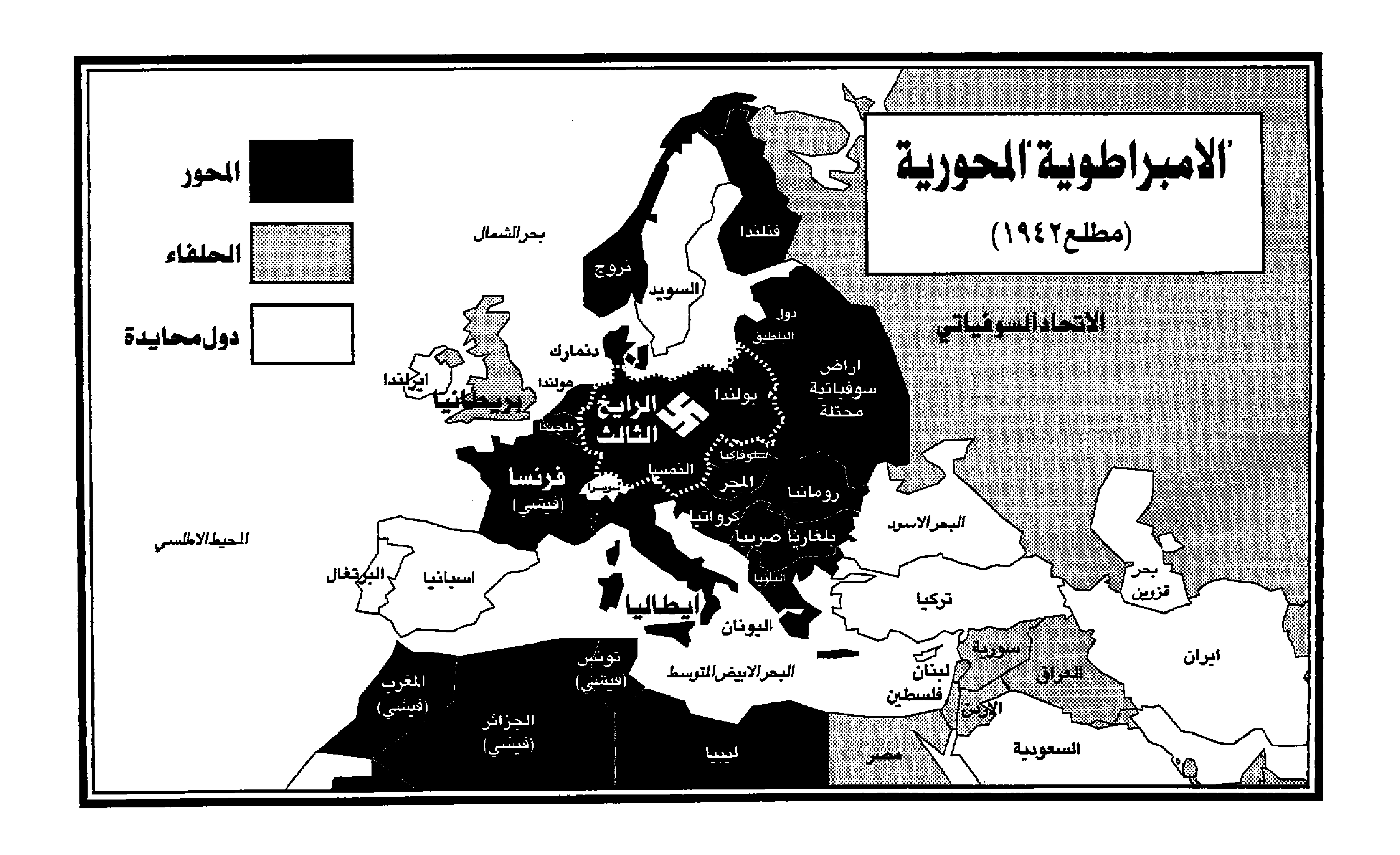
لكن «بيروت ـ برلين ـ بيروت» هي قبل كل شيء مشـاهدات لصحـافي عـربي في اوروبا الحـرب وما بعـدهـا، ويمكن ادراجهـا في بـاب «ادب الرحلة»، ذلـك الادب الفريـد الذي لم يحظَ بـاهتمام ملحـوظ في المكتبة العربية الحديثة.

فباستثناء امين الريحاني، وقِلّة يعد اصحابها على اصابع اليد، بقي هذا النشاط الابداعي حكراً على الرحالة والمستشرقين الاوروبيين.

ويمكن القول ان كامل مروة كان واحداً من تلـك القلة العـربية التي اسست للكتابة العصرية عندنا، حين طـاف في الاقطار التي طـاف فيها وعيناه مفتوحتان ـ مفتوحتان ليس على السياسة وحدها كما هو رائـج، بل ايضاً على المدن والطبيعة والزرع والتربة والمأكل والعـادات وسمات الوجوه ووسائل المواصلات وشروط السفر وتقلب العملات وطرق العبادة ومعالم العمارة وصنائع السكان واختلاف اللغات وتباين اللهجات...

كـل ذلك نجـده في سلسلة «بـيروت ـ برلـين ـ بيروت» التي نشرتهـا «الحياة» للمرة الاولى عام ١٩٤٦ و١٩٥٩. وها هي اليوم في كتاب.

كريم كامل مروة



'الامبراطوية' المحورية
(مطلع ١٩٤٢)
المحور
الحلفاء
دول محايدة
بحر الشمال
المحيط الاطلسي
الاتحاد السوفياتي
فنلندا
نروج
السويد
دول البلطيق
اراض سوفياتية محتلة
دنمارك
ايرلندا
بريطانيا
هولندا
بلجيكا
الرايخ الثالث
بولندا
النمسا
المجر
رومانيا
كرواتيا
صربيا
بلغاريا
البانيا
فرنسا (فيشي)
البحر الاسود
بحر قزوين
اسبانيا
البرتغال
ايطاليا
اليونان
تركيا
سورية
العراق
ايران
لبنان
فلسطين
الاردن
السعودية
مصر
البحر الابيض المتوسط
المغرب (فيشي)
الجزائر (فيشي)
تونس (فيشي)
ليبيا

١

بيروت – برلين – بيروت. ثلاث كلمات يمر عليها القارىء في اقل من طرفة عين، وهي التي ملأت اربع سنين من حياتي بالاسفار والمغامرات والاهوال، قاذفتني خلالها الاقدار طولاً وعرضاً في تلك العوالم الفسيحة الممتدة من بيروت الى برلين، ومن برلين الى بيروت، وسط حرب لم تبق ولم تذر، فعرفت فيها – طوعاً او قسراً – اقصى ما تبطن الحياة وتعلن من المتناقضات، من رفيع الترف الى حضيض البؤس، ومن القصور الى السجون، ومن الملوك الى الصعاليك.

عن هذه المشاهدات والاختبارات ابدأ حديثاً انقل فيه الى القراء ما يهمهم منها. وانها لامانة في عنقي ان اضع امام بني قومي صورة صادقة عما شاهدت وعرفت، ضمن نطاق الجائز والمعقول.

■ بيروت، ٨ حزيران (يونيو) ١٩٤١

كنت طريح الفراش في الثامن من حزيران (يونيو) ١٩٤١ عندما دخل

عليّ صديقي ع. ب. (*) وابلغني ان الجيوش البريطانية - الديغولية تخطت الحدود (اللبنانية في الجنوب) عند الفجر وباشرت هجومها على القوى الفيشية.

قلت: اني اتوقع ذلك منذ عدة ايام!...

قال: وماذا تنتظر لتعد حقائبك؟

وحدجته بنظرة حادة، فاستطرد قائلا: أنسيت موقفك من حركة الكيلاني (المعادية للانكليز في العراق)؟ أنسيت مقالاتك ضد الانكليز؟ أنسيت انك مراسل وكالة «ترانس اوسيان» الالمانية؟

رحت اتبادل الرأي مع الصديق في وضعي الخاص، ثم جلست افكر فيه على ضوء الحالة الراهنة، فاستقرت عندي القناعة بوجوب الاختفاء ردحاً من الزمن عند دخول الحلفاء، ريثما تتجلى سياستهم ويتضح اتجاههم. ولكن اين اختفي؟

استعرضت جميع الاماكن الصالحة، فلم اجد افضل من تركيا. وكان لي فيها مشاكل خاصة تحتاج الى تسوية سريعة قبل دخول الحلفاء، فعقدت العزم على السفر اليها فوراً، فأصيب بذلك عصفورين بحجر واحد، اذ اسوي قضيتي الخاصة من جهة، وأجد فيها من جهة اخرى الملجأ الذي اريد.

وكان الخروج يومئذ من البلاد محظوراً الا باجازة من المفوض السامي الفرنسي الجنرال دانتز (ممثل حكومة فيشي)، فذهبت صباح التاسع من حزيران (يونيو) الى دار المفوضية، وطلبت من مدير قلم المطبوعات المسيو شامبار ان يستحصل لي على الاجازة، فأجابني:

- لقد عجلت يا هذا... الانكليز لن يدخلوا بيروت بمثل هذه السرعة!

قلت له ان هناك قضية شخصية تستلزم سفري الى تركيا فوراً من قبيل الاحتياط، فأجاب:

(*) لعله يعني السيد عباس بيضون، ابن شقيق الزعيم اللبناني السياسي الراحل رشيد بيضون. وكان عباس جاراً وصديقا حميما لكامل مروة.

- الجنرال دانتز في الجبهة الآن. اكتب اليه، ولعله يعطيك الاجازة بعد اسبوع!

وادركت عقم المسعى، فقررت ان اتدبر امري بنفسي، فاستحصلت على التأشيرة التركية، وفي صباح العاشر من حزيران (يونيو) غادرت بيروت مع صديق لي على متن سيارة خاصة قاصداً الى حلب، فبلغتها في المساء.

وفي صباح اليوم التالي رحت اسعى للحصول على اجازة الخروج من السلطات الفرنسية بالطرق الشرعية، فلم اوفق لذلك. وعندئذ لجأت الى سلاح آخر، فإذا بجوازي يحظى بتأشيرة حمراء خضراء تكفي لاقتحام الحدود مع التحية!

واطمأن بالي من هذه الناحية، فرحت اتجول في حلب، فوجدتها تعج بالرعايا المحوريين على اختلاف اشكالهم، وهم يتأهبون للعودة الى بلادهم خشية ان يدركهم الحلفاء. وكان المندوب الالماني في بيروت الهر روزر قد تخذ فندق «بارون» مقراً له، يشرف منه على ترحيل مواطنيه في عربات خاصة وضعت تحت تصرفهم.

وعند الظهر ركبت القطار مع صديقي، واذا بي اجد فيه رهطاً من معارفي، بينهم الاستاذ عفيف الطيبي (*)، والدكتور محمد حسن سلمان وزير المعارف في وزارة الكيلاني، والشريف محمد شرف (**) نجل الوصي على العرش العراقي في عهد الكيلاني مع عائلة الوصي.

وتألفت منا حلقة عربية وسط ذلك القطار الحافل بالاجانب على اختلاف انواعهم. وفي الساعة الواحدة اقلع بنا القطار من محطة حلب، وراح ينهب الارض نهباً في اتجاه الحدود التركية. وقبيل المساء بلغنا ميدان اكبس محطة الحدود السورية، فأخذ قلبي يخفق خشية ان يجد الخفر في

(*) صحافي لبناني، صاحب صحيفة «اليوم» البيروتية. عمل نقيباً للصحافيين اللبنانيين في الستينات، وتوفي عام ١٩٦٦.

(**) والد الشريف عبد الحميد شرف رئيس الديوان الملكي الاردني ورئيس الوزراء في السبعينات.

اجازتي ما يثير شكوكهم ولكن الطبعة الحمراء الخضراء على الجواز كانت صحيحة كالعملة التي انفقت في سبيلها، فإذا بالخفراء يعيدون اليّ الجواز مع التحية!

وبعد ساعة تقريباً كان القطار يجتاز منطقة «الارض الحرام» بين سورية وتركيا، ويدخل اصلاحية، اولى المحطات التركية.

وبينما كان الظلام يهبط علينا، كان القطار قد بدأ يتسلق جبال طوروس، وينفخ بصافرته منذراً بدخوله النفق الاول. في تلك اللحظة القيت نظرة اخيرة على ارض بلادي، فلم اتمالك رعشة ودمعة. وكان هاجس مجهول يهتف في اذني:

– انها نظرة الوداع... وبداية الغربة الطويلة!

اجل، كانت تلك اللحظة بداية الغربة ولكن من اين لي ان احلم يومئذ بأن نهايتها ستكون... بيروت – برلين – بيروت؟

■ انقره، ١١حزيران (يونيو) ١٩٤١

ها أنذا في انقره مع رفاقي، اشاطر الصديق عفيف الطيبي غرفة واحدة في فندق «جيهان بالاس». ولم اكن حديث العهد بالعاصمة التركية، اذ زرتها اربع مرات قبل ذلك التاريخ.

وقد اتخذت تركيا انقره شعاراً لنهضتها الحديثة، فجعلت منها جنة فيحاء، وحملت مظاهر الحياة الغربية دفعة واحدة الى قلب الاناضول. ولقد نجح اتاتورك نجاحاً باهراً في خلق هذه المدينة الحديثة ذات المباني الفخمة والشوارع الفسيحة ودل بذلك على الحيوية الانشائية الكامنة في الشعب التركي. ولكن المباني والشوارع لا تكفي وحدها لتجعل من المدن الحديثة التشييد مثالا حيا. فأنقره رغم ما بذله فيها اتاتورك من الجهود الانشائية، ورغم ما غرسه فيها من الاشجار، مدينة جامدة، يشعر الانسان فيها بالضجر منذ الايام الاولى. انها مدينة موظفين وديبلوماسيين ومدارس، ولا يؤمها الا من يمت الى هذه الفئات بصلة، لذلك حكم عليها ان تقف بتطورها

عند هذا الحد، فتظل مدينة تعد ١٥٠ الف نسمة في قلب الاناضول، وتظل استانبول المدينة القديمة الاثرية مظهر الحيوية العريقة الحية.

لقد كنت انا المسؤول عن نزول الرفاق معي في انقره بدلاً من متابعة سفرهم الى استانبول كما كانوا يريدون اذ كنت اعلم - بحكم زياراتي السابقة لأنقره - ان البقاء فيها وحيداً امر لا يطاق. وهكذا نزل فيها الاستاذ الطيبي والدكتور محمد حسن سلمان وعائلته والشريف محمد شرف وعائلته.

منذ اليوم الاول رحت احاول تسوية القضية التي حتمت عليّ الاسراع في القدوم الى انقره، واذا بي اجد انها ستستغرق زمناً طويلاً وفي انتظار النتيجة كنت اقضي نهاري مع الاخ عفيف في التجوال في شارع انقره الوحيد، حتى اصبحنا بعد ايام معدودة نعرف ما تتضمنه الواجهات حاجة حاجة. وكنا نجتمع بعد الظهر في حديقة البلدية مع الدكتور سلمان والشريف محمد، ثم نذهب قبيل المساء الى فندق «يني شهر» حيث نستمع الى محطة اذاعة بيروت، ونصغي الى صوت المسيو شامبار وهو يذيع بلاغات فيشي عن سير القتال والى جانبه صوت المحطة السرية في فلسطين وهو يهاجمه ويتهمه بأشنع التهم!

مرت علينا ثلاثة اسابيع ونحن ننتظر في انقره، ولا ادري فعلا ماذا كنا ننتظر. واخيرا اضطر الدكتور سلمان الى السفر الى استانبول لاسباب صحية، ثم لحق به الشريف محمد، فبقيت وعفيف وحدنا.

وفي اواخر حزيران (يونيو) وصل الى انقره الصديق السيد راسم الخالد، قادما من سورية، فحدثنا عن حقيقة الوضع فيها وعن سير القتال، وابلغنا ان النهاية اصبحت قاب قوسين او ادنى. ثم وردت علينا رسائل من الوطن، وكلها جاءت بالبريد الاخير الذي غادر بيروت قبل دخول الحلفاء تنذرنا بالبقاء حيث نحن، وتقول ان «العين حمراء» علينا اذا ما عدنا.

جلست وعفيف نتداول في وضعنا فوجدنا انفسنا امام احد امرين: اما ان نسارع بالعودة قبل وصول الحلفاء، واما ان نبقى في تركيا، وفي كلتي

الحالتين نستسلم للقدر المجهول. وبعد درس دقيق للموقف، عقدنا العزم على البقاء ريثما ينجلي الموقف الدولي. ولا ازال اذكر تلك الساعة التي جلسنا فيها امام المائدة في مطعم «كازبتش» نتذاكر في مصيرنا، فقال عفيف:

– وكم تستمر غربتنا يا كامل؟

قلت: كم تظن؟

قال: لنقل ثلاثة اشهر وبعدها نعود!

ولكن شتان بين حسابنا وحساب القدر!

* * *

كانت حياتنا في انقره على وتيرة واحدة، تسير سيرها الطبيعي بلا انحراف ولا نشوز، كعجلات القطار. ومع ذلك فقد اضطربت انقره ذات يوم واهتزت على غير عادتها، واكتسبت بين عشية وضحاها حلة الهرج والمرج. ففي صباح الثاني والعشرين من حزيران (يونيو) ١٩٤١ اي بعد وصولنا بعشرة ايام، هاجم الجيش الالماني روسيا. واذا بالنبأ يسقط كالصاعقة على انقره فيوقظها من جمودها ويبعث فيها تلك الرعشة التي لم تفارقها حتى يومنا هذا.

كان ذلك اليوم على ما اذكر يوم احد. وقد بقيت غارقاً في النوم حتى الساعة العاشرة. ثم خرجت لتناول الفطور فرأيت نائباً تركياً معروفاً من نزلاء الفندق مستنداً على الباب واجما. وكنت اعهده مشرق الوجه دائم الابتسام، فسألته عن سبب وجومه، فأجاب:

– ألا تعلم؟

– قلت: كلا، لا اعلم! ولكن ما تريدني ان اعلم؟

– لا شيء... لا شيء فعلاً، سوى ان الالمان بدأوا فجر اليوم هجومهم على روسيا!

اذن فقد وقعت الواقعة التي تحول وجه الحرب من اساسها، وتقلب كل حساب فيها رأساً على عقب. ورحت بدوري اتأمل وافكر ثم قلت له:

- وماذا تخشى بلادكم من هذا الهجوم؟

قال: هذا الهجوم بلاء علينا من جميع الوجهات والجهات. انه نهاية حيادنا!

قلت: اتعتزمون اذن الدخول في الحرب الى جانب الروس او الالمان؟

- كلا، لا اعني ذلك. ولكنني اعني ان سياستنا ستصبح بعد اليوم «عبدة» الحرب بين الدولتين، تسير حسب سيرها، فتفقد بذلك استقلالها!

وراح الرجل يوضح رأيه. فقال ان مصلحة تركيا تتعارض مع مصلحة الدولتين فإذا ما فازت المانيا على روسيا سيطرت برلين على تركيا وفرضت عليها ارادتها كما تشاء، واذا ما فازت روسيا فعلت موسكو الامر عينه!

قلت: وماذا تريد اذن يا حضرة النائب؟

قال: اريد ان تستمر الحرب بين الدولتين الى ما شاء الله او تنتهي بصلح فيما بينهما. اما اذا انتهت بفوز احداهما على الاخرى فإن التوازن في الشرق كله يضطرب، فتكون نهاية الحرب بين روسيا والمانيا بداية وجع الرأس لنا. ومن يدري عندئذ المصير! نحن لا يهمنا دخول انكلترا والمانيا الحرب بقدر روسيا. ان تاريخ تركيا منذ ثلاثة قرون مقيد بتاريخ روسيا. فلم ندخل حرباً الا ضد روسيا او بسبب روسيا او من اجل روسيا. لقد حكم وضعنا الجغرافي علينا ان نكون السد الوحيد الذي يمنع روسيا من التوسع نحو البحار الجنوبية، لذلك كنا - ولم نزل - نتأثر بسياسة موسكو قبل كل شيء. واؤكد لك اننا لم نشعر بأي قلق خاص عندما وقعت الحرب بين المانيا وانكلترا وفرنسا. ولكن دخول روسيا الحرب يؤثر علينا في الحاضر وفي المستقبل تأثيرا مباشراً، ويجعل مصيرنا مرة اخرى في كفة القدر.

ولحظ على شفتي ابتسامة تنم عن اعتقادي بمغالاته بالتشاؤم فقال:

- لا تضحك يا صديقي، كلنا في الهواء سواء. ان المدفع الذي انطلق صباح اليوم في بنسك ولفوف قد نسف الطمأنينة والاستقرار لا في شرق اوروبا فحسب، بل في الشرق كله، وبلادكم في المقدمة، فنحن نؤثر عليكم

كما تؤثر روسيا علينا!

كم كان النائب مصيباً في آرائه يومئذ! فالاستقرار الذي نسفته الحرب الالمانية الروسية هز بزواله الشرق بأسره فانتشر القلق كانتشار بقع الزيت. وما اذربيجان وايران، وقارص واردهان، والمضايق واليونان، والوصاية على ليبيا، والمعاهدة المصرية، والجلاء عن سورية ولبنان، الا صدى تلك القنبلة الاولى في صباح ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١!

* * *

خرجت اجول في شوارع انقره، فإذا بها تعج بالمارة والواقفين، وهي التي تخلو من البشر تقريبا يوم الاحد ورأيت سيارات الديبلوماسيين تدرج بسرعة البرق في اتجاه وزارة الخارجية وقصر الرئاسة، والسعاة يذرعون الشوارع جيئة وذهابا على دراجاتهم النارية، وكبار الساسة والنواب ينتقلون في صف لا ينقطع بين دار «البيوك ملي مجلسي» اي المجلس الوطني الكبير، وفندق انقره بالاس الشهير. حقا، لو لم يكن الحدث خطيرا، لما خرجت انقره الراكنة عن ركونها، وفي يوم كالأحد!

رحت اتمشى في بوليفار اتاتورك العظيم، وعرضه ٥٠ مترا، في اتجاه حي السفارات. الشوارع الى جانبي الطريق تعج بالناس. بالامس رأيت مراسلي الصحف الالمانية والروسية مجتمعين حول مائدة واحدة في هذا المقهى يضحكون ويسمرون. واليوم اصبحوا اعداء حتى الموت!

هي ذي السفارة السوفياتية، نقطة البداية في حي السفارات. والى جانبها تماما السفارة الالمانية. وبينما كنت افكر في غرابة الصدف التي جعلت العدوين جارين متلاصقين في هذه البلدة، لمحت سيارة البارون فرانز فون بابن (*) الفخمة تخرج من باب السفارة الالمانية وتنطلق كالسهم في اتجاه تلة تشانكايا، حيث تقوم دار السفارة البريطانية الى جانب قصر رئاسة الجمهورية. انه ذاهب يحمل الى (الرئيس التركي) عصمت اينونو

(*) Fanz von Papen، سفير المانيا في تركيا، والمستشار الالماني الذي تنازل عن المستشارية لهتلر عام ١٩٣٣.

رسالة تطمين من هتلر. ترى هل كان يحلم فون بابن، وهو ذاهب الى مهمته تلك، ان صباح ذلك اليوم سيكون بداية السلسلة التي ستجعله مجرما في (محكمة) نورمبرغ؟ يا لسخرية القدر!

وفي مساء ذلك اليوم، رحت اتناول العشاء في مطعم «كارلتش» الشهير، ملتقى الاجانب في انقره. وكان صاحبه قد شطره الى شطرين، فيجلس المحوريون في جانب والحلفاء في جانب آخر، ويتوزع المحايدون فيما بينهم. وكان الروس حتى الامس يجلسون في صف الحياد، فإذا بهم الليلة يجلسون مع الانكليز على مائدة طويلة، يبدأون بالخبز والملح عهد التحالف الذي خلقه يوم ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١ فيما بينهم على غير ميعاد، بينما يجلس الالمان مع حلفائهم الجدد من رومانيين ومجريين وفنلنديين حول مائدة اخرى.

جلست كعادتي على احدى الموائد في صف الحياد، ولم اتمالك الابتسام عندما لاحظت ان عدد موائده الفارغة قد تكاثر وان موائد اخرى انتقلت منه لتعزز احد الجانبين.

ونهض احد الانكليز، فملأ كأساً فارغاً بالوسكي الانكليزي والفودكا الروسية معاً وشربه جرعة واحدة بين تصفيق رفاقه. واذا بايطالي جالس على المائدة المحورية يستدعي الخادم ويسر اليه شيئاً في اذنه. وغاب الخادم وعاد يحمل قنينة ويسكي واخرى من الفودكا، فتناولهما الايطالي ونهض واقفاً، والقاهما على الارض، فتحطمتا وسال ما فيهما. وانتهت هاتان المظاهرتان الصامتتان – كلامياً – عند هذا الحد.

ولكن القدر لم يفهم لغة القنينتين. ترى اين هو اليوم ذلك الايطالي الذي حطمهما؟

* * *

في السياسة الخارجية التركية مبدأ ثابت لم يتبدل منذ قرون، ولا يزال حتى اليوم ركنها الاساسي. هذا المبدأ يعتبر المطامع الروسية في المضايق الخطر الاكبر على تركيا. لذلك حيث تكون روسيا، تكون تركيا في المعسكر

الآخر.

وفي اليوم التالي لاعلان الحرب، اي في ٢٣ حزيران (يونيو) ١٩٤١، استدعى وزير الخارجية التركية السيد سراج اوغلو الصحافيين الاجانب ليتلو عليهم تصريحاً عن موقف بلاده. وقد ذهبت معهم الى ذلك الاجتماع بدافع الفضول، فإذا بالوزير يحدثنا عن الحرب والمتحاربين بلهجة جديدة، دلت على ان السياسة الخارجية التركية لبست في اقل من اربع وعشرين ساعة حلة جديدة تناسب المقام.

ولكي يفهم القارئ نوع هذه الحلة، يجب عليّ ان اعود به قليلا - على ضوء ما سمعته في انقره - الى الاشهر القليلة التي سبقت اعلان الحرب ففي ذلك الحين كانت تركيا تتبع سياسة الحياد التام تجاه الجميع. وارادت حكومة انقره الوصول الى اتفاق حاسم مع السوفيات، فاوفدت سراج اوغلو الى موسكو ليصارحهم بحقيقة الامر، فلم يحظ الوزير بنتيجة، وعاد الى انقره صفر اليدين.

وكانت روسيا حتى ذلك الحين معزولة عن السياسة الاوروبية بسبب اتفاقية ميونيخ، فلم ير الاتراك ثمة مبرراً للانضمام الى الجبهة الانكليزية - الفرنسية او الى الجبهة المحورية ما دام الروس بعيدين عن الجبهتين. ولما راح الحلفاء يخطبون ود موسكو في صيف ١٩٣٩، اضطربت تركيا واخذت تميل نحو المانيا. ولكن ما كاد الالمان يعقدون الميثاق المعلوم مع روسيا في ٢٢ آب (اغسطس) ١٩٣٩ وتقع الحرب على اثره ثم تهاجم روسيا فنلندا وتكاد تشتبك مع الحلفاء، حتى بادر الاتراك الى عقد ميثاق التحالف مع انكلترا وفرنسا، اذ استقرت عندهم القناعة ان روسيا انضمت الى الجبهة المحورية وان الحلفاء اصبحوا خصومها.

وفجأة دار الفلك دورته واشتبكت المانيا بالحرب مع روسيا، واصبحت روسيا حليفة انكلترا، فوجدت تركيا نفسها بين عشية وضحاها حليفة الروس من حيث لا تدري ولا تريد!

وفي ذلك اليوم، يوم ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١ فكر الاتراك طويلا في

حاضرهم ومستقبلهم، فانتهوا الى النتائج التالية:

اولاً – لن تقلع روسيا عن المطالبة بالمضايق، فلا سبيل اذن لتبديل مبادئ السياسة التركية التقليدية تجاهها.

ثانياً – قد تنتهي هذه الحرب بفوز الحلفاء على المانيا. وعندئذ تستطيع تركيا الاعتماد على انكلترا لحماية نفسها من التوسع الروسي. وفي التحالف القائم مع بريطانيا ما يضمن ذلك.

ثالثاً – قد تنتهي الحرب بهزيمة الحلفاء وحلول المانيا محل روسيا في الشرق، ولكن ليس بين تركيا والمانيا من العقود ما يطمئن تركيا على مصيرها اذا تحقق ذلك.

اذن، ينبغي اكمال هذه الحلقة الناقصة بعقد اتفاق مع الالمان، شبيه بذلك الذي عقدوه مع الانكليز. هذا ما قررته حكومة انقره في نفس اليوم الذي بدأت فيه الحرب الروسية – الالمانية، وهذا ما حققته بعد شهرين، عندما عقدت ميثاق عدم الاعتداء مع البارون فون بابن، فضمنت لنفسها العون من الانكليز والالمان ضد الروس، في مختلف الاحتمالات والحالات.

ويتساءل الكثيرون: وكيف استطاعت تركيا ان تبقى على الحياد حتى نهاية الحرب؟

يعود الفضل في ذلك الى رغبة الانكليز والالمان انفسهم. فقد اتفقت مصلحة الطرفين المتحاربين على بقاء تركيا على الحياد، اذ ان زجها في الحرب يومئذ مع هذا الطرف او ذاك كان يفتح ابواب تركيا امام الروس ليدخلوها كحليفة للانكليز او كعدوة للالمان. وقد فضل الانكليز والالمان معاً بقاء تركيا على الحياد على دخول الروس اليها، وكانت النتيجة ان بقيت تركيا بمعزل عن الحرب، ولم تعلن الحرب على المانيا الا بعد ان اصبح الروس – وليس الالمان – على الحدود البلغارية في اوائل السنة ١٩٤٥!

* * *

مر الاسبوع الاول من الحرب الالمانية – الروسية دون ان يزعج احد الطرفين الاتراك، فاطمأن بالهم موقتاً، وجلسوا يرقبون النتيجة. ولم يعكر

صفو هذا الاسبوع سوى خريطة نشرتها مجلة تركية طالبت فيها بتجميع الاراضي التركمانية التي يحتلها الروس، من القوقاس حتى بخارى وطشقند لانشاء دولة طورانية بزعامة تركيا. فاحتج الروس عليها، ولا يزالون الى يومنا يسجلون على الاتراك ذلك الطلب.

* * *

انتهى شهر حزيران (يونيو) وانا مقيم مع الاخ عفيف الطيبي في انقره وكان الصيف قد اقبل، وبدأت الحرارة تتصاعد الى ما فوق الاربعين درجة في هضاب انقره الجرداء ولم تعد الحياة فيها تطاق. فقررت الانتقال الى استانبول.

وفي الاسبوع الاول من تموز (يوليو) ركبت القطار من محطة انقره، وهي بلا ريب اضخم وافخم محطة حديدية في الشرق، قاصداً الى العاصمة التركية الثانية. واذا كنت قد شعرت بوخزة في القلب عندما اقلع القطار، فذلك لأنني كنت اود ان يكون اتجاهي جنوباً لا غرباً. ولكن القدر كان قد بدأ يكتب في شخصي رواية جديدة، فكان سفري من انقره المرحلة الاولى الحاسمة في الطريق الى... برلين!



■ استانبول، ٧ تموز (يوليو) ١٩٤١

ها أنذا في استانبول، «دار السعادة» كما كانوا يلقبونها في العهد العثماني. هذه هي المرة الثالثة التي ازور فيها عاصمة تركيا القديمة. ولكن زياراتي في السابق كانت تجري في الشتاء، فلم اتعرف الى سمائها الصافية، ولا الى حياة المرح التي تنتشر على جانبي البوسفور وتطفو فوق مياهه في فصل الصيف.

واذا كانت انقره قطعة خالصة من الغرب، فإن استانبول لا تزال قطعة خالصة من قلب الشرق، هذا الشرق الذي لا تقف حدوده عند البوسفور كما يقولون، بل تتجاوزه عبر البلقان حتى حدود النمسا والمجر!

واذا كانت انقره قد اصبحت عاصمة تركيا لاسباب سياسية وعسكرية، فإن استانبول لا تزال عاصمة تركيا التجارية والاقتصادية والصناعية والاجتماعية. وعبثاً حاول اتاتورك ان ينتزع منها ميزاتها ويضفيها على انقره، فقد فازت استانبول في جميع الاشواط، وظلت تزهو

على منافستها الجديدة بثقة واطمئنان!

ولكن استانبول ليست مدينة. انها موقع جغرافي عالمي. انها البوسفور. ولولاه لما كانت هناك «بيزنطية» ولا «استانة» ولا «استانبول». اما اذا شئت ان تنظر الى استانبول نظرتك الى مدينة فإنك تشعر بخيبة امل شديدة. فإذا استثنينا الحي الحديث القائم على روابي «باي اوغلو»، حيث تقطن الطبقات المنعمة والجاليات الاجنبية، فإن الاحياء الاخرى منها - وهي تحوي اكثر من مليون نسمة - لا تزال تمثل صورة من صور القرون الوسطى، رغم المجهود الجبار الذي تبذله الحكومة لتحسينها وتجديدها.

وتكاد تكون جميع منازل استانبول القديمة من الخشب. وكلما القى احدهم سيكارته وهي مشتعلة على الارض، هدد المدينة بحريق لا يبقي ولا يذر. ويندر ان يشتعل فيها حريق - مهما كان بسيطاً - دون ان يأتي على عشرين او ثلاثين منزلا!

وبسبب الخشب، اصبحت استانبول اغنى مدن العالم «بالبق»، وبلغ من تأصل هذه الآفة فيها ان احترفت احدى اليونانيات تربية البق «الداجن»، وصنعت عربة دقيقة تجرها ازواج البق بخيوط حريرية موثوقة الى اجنحتها. (القصة على ذمة الامير عادل ارسلان(*)!)

وصلت الى استانبول وتركيا لا تزال تحت ضغط الصدمة الاولى الناشئة عن الحرب الروسية - الالمانية. ولا شك ان استانبول هي قلب تركيا الحساس، لأنها تمثل الجبهة الاولى المعرضة للخطر. فكل عمل عسكري يهدد تركيا يبدأ في استانبول. ولكن سكان هذه المدينة العريقة اعتادوا مع الزمن على القلق. انهم يعيشون منذ اكثر من الف سنة حياة لا تعرف طعم الراحة والاستقرار. فكلما انتهت حرب، جاءت اخرى. وكلما راح غاز جاء آخر، وكلما زالت دولة كبرى تطمع بالمضايق قامت اخرى ترث مطامعها.

وهكذا يؤلف تاريخ استانبول سلسلة لا تنقطع من الغزوات والحروب

(*) مفكر وسياسي عربي من لبنان، توفي في الخمسينات.

والمآسي وقد تركت هذه السلسلة اثرها في عقلية السكان. فجعلت ايمانهم رهن القضاء والقدر وعززت روح الايمان في نفوسهم. وهذه المساجد الكثيرة القائمة في مختلف انحاء المدينة خير شاهد على ذلك!

■ **استانبول، تموز (يوليو) ١٩٤١**

دخلت المعارك في سورية ولبنان مرحلتها النهائية، وبدأت المقاومة الفيشية تلفظ انفاسها الاخيرة. وكان الاتراك ينظرون الى اقتراب النهاية بسرور وارتياح، فقد وضعهم شهر حزيران (يونيو) بين نارين: نار الحرب الروسية – الالمانية في الشمال، ونار الحرب البريطانية – الفيشية في الجنوب. وكان خوفهم عظيما من ان تتصل الاولى بالثانية اما عن طريق سورية او العراق، فتضطر تركيا الى خوض غمار الحرب رغماً عنها. لذلك بذلوا كل ما في وسعهم سراً لدعم الانكليز، كي تستقر الحالة في الشرق العربي استقرارا نهائياً، فيتفرغون لمجابهة الاحداث الطارئة في اوروبا.

ومنذ منتصف تموز (يوليو) اخذ المجاهدون العرب يتدفقون عبر الحدود السورية والعراقية على تركيا. هوذا الامير عادل ارسلان يصل الى انقره ثم ينتقل منها الى استانبول، هنا السادة نبيه العظمة وعزة دروزة واكرم زعيتر وواصف كمال ومحمد علي دروزة وزهير دروزة يصلون رأسا من حلب الى استانبول، ثم يلتحق بهم السيد عادل العظمة فيما بعد عن طريق اخرى (*).

هنا ايضاً السادة اسحق درويش والشيخ حسن ابو السعود وموسى الحسيني والدكتور مصطفى الوكيل وذو الكفل عبداللطيف (**). ومن العراق ايضاً وصل السادة ناجي شوكت والدكتور محمد حسن سلمان

(*) الشقيقان السيدان نبيه وعادل العظمة من الرجالات السياسية السورية وتوفيا في الخمسينات، السادة دروزة من الزعامات السياسية الفلسطينية، السيد واصف كمال رجل اعمال فلسطيني تولى رئاسة «البنك العربي» في دمشق في الخمسينات ثم انتقل الى بيروت، الاستاذ اكرم زعيتر كاتب ومناضل فلسطيني تولى مناصب حكومية وديبلوماسية اردنية عدة من الخمسينات حتى التسعينات، وله مساهمات صحافية مهمة في جريدة «الحياة».

(**) سياسيون ورجال اعمال فلسطينيون.

وطه باشا الهاشمي وغيرهم (*). اما من بيروت فلم يصل غير الامير عادل ارسلان والامير امين ارسلان ونجله والسيدان رشاد بربير ومحي الدين الطويل (**). ثم التحق بنا الاستاذ عفيف الطيبي فيما بعد من انقره.

والى جانب الذين دخلوا تركيا بجوازات وتأشيرات، دخل الحدود التركية عدد كبير من اللاجئين ان من العراق او من سورية. وقد وصل الفوج الاكبر في اواخر تموز (يوليو) بقيادة المرحوم السيد عارف عبدالرزاق يرافقه السادة سليم عبدالرحمن وصلاح الدين المختار وعبدالرؤوف عبدالرزاق وقاسم الكراري (***). وقد دخلوا الحدود التركية من منطقة حلب بعد ان حاربوا في صحرائها ومعهم كمية كبيرة من الاسلحة والذخائر والمعدات المختلفة، فسمح الاتراك لبعضهم بالدخول، واضطر البعض الآخر الى الرجوع الى سورية. وعلى الاثر ارسل الاتراك الفوج كله - وعدده يتجاوز المئة - الى معسكر خاص في «سيواس» في قلب الاناضول.

وهكذا اصبحت استانبول في اقل من اسبوعين مجمعا للمجاهدين العرب الذين آثروا الغربة على البقاء، واصبح اللسان العربي في مقدمة اللغات التي سمعها المارة في شارع الاستقلال في حي باي اوغلو. ولم يعد يخلو مقهى او مطعم او فندق من العرب، حتى قال لي احد الاتراك مرة:

- كأننا في عهد «مجلس المبعوثان» يوم كان النواب العرب يفدون على استانبول في مواسم معينة، فيملأون العاصمة على قلة عددهم عروبة وعرباً!

هكذا، ما ان وفد الزعماء العراقيون الذين اشتركوا في حركة الكيلاني على استانبول، حتى سارعنا اليهم نسألهم في لهفة وشوق عن حقيقة تلك الحركة، وعن اسرارها ووقائعها. وقد تأكد لنا بصورة قاطعة لا تحمل الشك

(*) وزراء عراقيون من العهد الهاشمي.

(**) صحافيان لبنانيان. وقد قُتل محيي الدين الطويل في بلغاريا عندما دخلها الجيش الاحمر عام ١٩٤٤. اما رشاد البربير فقد عاد الى بيروت بعد الحرب ليعمل في الصحافة وتوفي في منتصف الثمانينات.

(***) سياسيون عراقيون من العهد الهاشمي.

ان بواعث الحركة كانت عراقية عربية. ولكنني لم استطع ان افهم لماذا لم يحاول الالمان استغلالها استغلالا كبيرا.

لقد قال المستر تشرشل مرة انه لم تغمض له عين طيلة الاسابيع التي جرت فيها حركة الكيلاني، اذ ان وصول الالمان الى قلب الشرق العربي كان كافيا لقلب التوازن «الاستراتيجي» في الحرب كلها. ومع ذلك، لم يقم الالمان بأية محاولة جدية للوصول الى العراق. اجل، لقد ارسلوا اليه عشرين او ثلاثين طائرة، وارغموا فيشي على ان تمده ببضع عربات من المدافع والذخائر. ولكن جميع هذه المساعدات لا توازي واحداً بالمئة مما قدمه الانكليز مثلا الى (الزعيم الصربي) الجنرال ميهالوفتش للشروع في ثورته (ضد النازيين في يوغوسلافيا).

كنت ألقي السؤال تلو السؤال عن هذا الموضوع على كل الماني اصادفه في استانبول، فأصطدم بجهل تام للحقيقة. وذات يوم سألني احدهم:

– وما هو شكل البزة التي يرتديها الجنود العراقيون؟

وصفتها له، ثم قلت: غريب هو سؤالك، الم تنشر الصحف الالمانية رسوما لهم؟

فأجاب: كلا، لقد حظرت وزارة الدعاية على صحفنا نشر هذه الرسوم!

ولحظ الالماني امارات الدهشة على وجهي فاستطرد قائلا:

– ليس في القضية سر. وكل ما هناك ان الوزارة كانت تتوقع منذ البداية ان تنتهي الحركة الى الفشل السريع، لذلك لم تشأ ان تمني الالمان بحليف جديد، لتعود فتعلن بعد ايام انهزامه!

ومن المفروغ منه ان العراق لم يكن قادرا على الثبات في وجه الانكليز من دون مساعدة محورية قوية. فإذا كان الالمان قد توقعوا هزيمة الحركة الكيلانية منذ بدايتها، فذلك لأنهم كانوا مصممين على الا يمدوا يد المساعدة اليها!

هذه حقيقة ثابتة تؤيدها الوقائع في حد ذاتها. وفي منتصف الصيف

اقيمت حفلة صحافية كبرى في استانبول، حضرها الممثلون الديبلوماسيون، وبينهم (السفير الالماني) البارون فون بابن.

اغتنمت الفرصة، ورحت اتحدث اليه في الشؤون العربية الهامة، والحركة الكيلانية خاصة، فقال:

– آسف لأنني لا استطيع ان اخوض معك هذا البحث، فأنا سفير المانيا في تركيا والدكتور غروبا (السفير الالماني السابق في بغداد) هو الوحيد القادر على اعطائك المعلومات التي تطلبها!

قلت: لست اسألك عن رأيك الخاص ولكني اود ان اعرف لماذا لم تحاول الحكومة الالمانية ارسال مساعدات جدية الى العراق عبر تركيا؟

– لا تنس ان تركيا بلاد محايدة!

– هذا صحيح. ولكن لماذا لم تشعروا بضرورة المحافظة على «حياد تركيا» كما حافظتم على «حياد» النروج والدنمارك وهولندا وبلجيكا!

فابتسم فون بابن وقال:

– هناك اعتبارات عسكرية لها وزنها ومكانها!

– اذن فقد اعتبرتم الحركة الكيلانية حركة سياسية لا حركة عسكرية؟

– هذا صحيح الى حد ما!

ولم يدهشني ان اسمع هذا الرأي من فون بابن، فقد عرفت من مصادر موثوقة ان الخلاف بين فون بابن وغروبا كان على اشده في صدد الحركة العراقية. فبينما كان غروبا يبرق من بغداد الى برلين طالباً العون والمدد مهما كلف الامر، كان فون بابن يبرق الى برلين محذراً حكومته من الاسترسال في مساعدة الكيلاني.

وكان هتلر في ذلك الحين يعد العدة سراً للهجوم على روسيا، فكان يهمه ان يعتبر تركيا الجدار الجنوبي لحربه المقبلة مع السوفيات ويضمن بقاءها على الحياد مهما كلف الامر. ولم يكن احتلال الالمان لجزيرة كريت مقدمة لغزو قبرص وسورية ولبنان، بل عملية مستقلة غايتها سد المداخل البحرية الى المضايق التركية. لهذا السبب اعتبر الالمان كل عمل عسكري

في العراق خارجاً عن نطاق مشاريعهم الحربية، ونظروا الى الحركة الكيلانية نظرتهم الى حركة سياسية تستحق المساعدة الشكلية، لا الى حركة عسكرية ذات وزن. ولو نظروا اليها كحركة عسكرية لما احترموا حياد تركيا لحظة!

قلت للبارون فون بابن من قبيل الاستدراج:

– لقد سمعت بعض الالمان هنا ينحون باللائمة على الحركة الكيلانية، ويقولون انها سابقة لأوانها. فهل هذا صحيح؟

فابتسم البارون، واجاب:

– لكل رأيه الخاص في الموضوع ولكنني لا افهم كيف يجيز هؤلاء الالمان لأنفسهم الاعراب عن آرائهم في قضايا يجهلونها. اما انا فإنني لا استطيع ان انظر الى حركة الكيلاني الا كواقعة وقعت!

وضاق ذرعي بتهرب البارون من الرد على اسئلتي، فقلت له من قبيل التحدي والاستفزاز:

– ان الكثيرين من القائمين بالحركة الكيلانية ومن انصارها ناقمون عليكم. فهم يتهمونكم بأنكم تخلفتم عن مساعدتها!

صمت البارون لحظة، فاغتنمت الفرصة ورحت اتأمل بهذا الرجل الذي كان بالامس مستشار الرايخ الاكبر، ولا يزال يؤلف قطعة حية من تاريخ العالم، ويقبض بين اصابعه على خيط من الخيوط التي تقود هذا الجيل الى مصيره.

لقد ظهرت عليه دلائل الكبر، وان كانت ذائبة فيما يكتسي به وجهه من نضارة وحمرة، حتى لتكاد وجنتاه «تفوران دماً» كما يقولون. وقد ابيض شعره الناعم بعد سبعين حولا من الحياة الصاخبة، ولكنه يسرحه تسريحاً مستقيما الى الوراء، فيزيده لمعانه الفضي قوة وشباباً. اما عن اناقة ملبسه فحدث ولا حرج، فالبارون فون بابن في مقدمة المتأنقين.

ولكم رأيت فون بابن في اثناء اقامتي القصيرة في انقره، عائداً من ملعب «التنس» او ذاهبا اليه، وهو يحمل مضربه على كتفه، ويرتدي خفين

رقيقين وسروالا قصيراً، فأعجبت بنشاطه، وتذكرت ساستنا الذين تنتفخ بطونهم منذ العقد الرابع، فلا يصلون الى «ارذل العمر» الا وقد اصبحوا كتلا متهدلة متراخية، يعيش غدها على امسها الذاوي.

لقد بدل فون بابن مجرى التاريخ في سنة ١٩٣٣، عندما سلم مقاليد الحكم الى ادولف هتلر. وها هو يقف الآن امام محكمة نورمبرغ جزاء على ذلك. ولو شاءت العناية الالهية، لبدل فون بابن مجرى التاريخ مرة اخرى، عندما حاول الشيوعيون الاتراك اغتياله في شباط (فبراير) سنة ١٩٤٢ فلو لم يخطئه القاتل ببضعة قراريط لسقط فون بابن صريعاً، ولأرغم الالمان تركيا على دخول الحرب.

وهناك من يقول ان نجاة فون بابن بدلت ايضاً وجه التاريخ. فقد جاءت محاولة اغتياله نذيرا نبه حكومة انقره - والالمان والانكليز معها - الى ان روسيا تبغي دخول تركيا الحرب، كعدوة ام كحليفة، فكان هذا النذير حافزاً للاتراك على التكمش بحيادهم على الشكل الذي وصفناه سابقا.

ولا شك في ان هذه الذكريات تعود الآن الى فون بابن وهو جالس على كرسي الاتهام في نورمبرغ (*). أتراه يتمنى اليوم لو لم تكن بينه وبين رصاصات الجاني يومئذ تلك القراريط المعدودة!

صمت فون بابن لحظة بعد ان القيت سؤالي عليه، ثم قال:

- اجل لقد وصل الى مسامعي ان الكثيرين ناقمون علينا ولكنني لا استطيع ان افهم السبب. انتم تنظرون الى الحركة الكيلانية نظرتكم الى النقطة السوداء في الجدار الابيض، فلا ترون من الحرب العالمية غيرها. اما نحن فإننا لا نستطيع ان ننظر اليها الا من خلال هذه المعارك الجبارة التي تدور رحاها الآن في روسيا البيضاء واوكرانيا. ان مصير الشرق بأسره يتوقف على مصير الحرب في روسيا، فمن يربح المعركة الاخيرة، يربح الشرق كله!

(*) يذكر ان محكمة نورمبرغ برّأت فون بابن واطلقته عام ١٩٤٩.

قلت: ولماذا لم تمدوا يد المساعدة الى فيشي في سورية ولبنان؟

– لا ادري، فالقيادة العليا هي التي تقرر الاتجاه المناسب، وما دامت قد ضربت ضربتها في روسيا ولم تضربها في العراق وسورية، فذلك يعني انها تعتبر مفتاح النصر في الشرق الاعلى وليس في الشرق الادنى!

ولا استطيع وانا ادون الآن كلمات فون بابن هذه، الا ان اتذكر ضابطا المانيا جريحا، جمعتني به الصدف في القطار عبر رومانيا في سنة ١٩٤٣، فلما تناول الحديث مجرى الحرب قال لي بصراحة: «لقد زحفت جيوشنا تنشد النصر شرقا. ولكن النصر الحاسم لا يكمن في قفار هذا الشرق الروسي الواسع، بل في شرقكم انتم، وشتان ما بين شرق وشرق!».

لم تترك لي أجوبة البارون فون بابن مجالا لمزيد، فشكرته على حديثه. وكان بعض الزملاء من اتراك واميركيين يصغون الينا، فالتفت اليهم البارون قائلا: انا لم أقل شيئاً يا سادة، سوى ان النزهة على سطح البوسفور تحت ضوء القمر تحيي الموتى!

وبينما كان ينسحب من حلقتنا قال لي:

– تعال اليّ يوما ما في ترابيا (مقر السفارة الالمانية الصيفي على ضفاف البوسفور)، وحدثني عن الشرق!

فأجبته: ولكنني اخشى الرقباء!

قال: اذن لست صحافياً!

وكان مراسل وكالة «هافاس» الفرنسية السيد رينه بلانشيه واقفا الى جانبي، فقال: اذن الى اللقاء في ترابيا.

فهز البارون رأسه باسماً وأجاب:

– في العام القادم طبعاً، اذ أنا عائد غدا الى انقره، ولن أرجع في هذا الصيف مرة اخرى الى استانبول!

■ **استانبول، اب (اغسطس) ١٩٤١**

في الصيف تنتقل السفارات والمفوضيات الأجنبية من انقره الى

استانبول هرباً من الحر الشديد، وتتجدد ليالي البوسفور الرائعة. ولكن انفجار الحرب الروسية – الالمانية حكم على الممثلين الديبلوماسيين وعلى اركان الحكومة التركية بالبقاء في انقره استعداداً للطوارئ.

وكنا نحن العرب المغتربين نترقب مجريات الحوادث في الشرق بلهفة وشوق. وفي اواسط آب (اغسطس) ١٩٤١، قدم الى استانبول السيد رشيد عالي الكيلاني رئيس الوزارة العراقية السابق. وكان الكيلاني قد التجأ الى طهران عند فشل الحركة المعلومة، يرافقه عدد كبير من اركانها. وهناك طلب الى الحكومة التركية ان تقبله في بلادها لاجئاً سياسياً، فوافقت حكومة انقره على قبوله بعد ان وقع كتاباً يتعهد فيه بالامتناع عن كل عمل سياسي، وبأن يقيم في الأماكن التي تعينها له الحكومة.

على هذا الأساس غادر رشيد طهران بالقطار الى تركيا عن طريق اذربيجان تاركا وراءه في ايران سماحة المفتي الأكبر الحاج أمين الحسيني وبعض زملائه وأعوانه من سياسيين وعسكريين على ان يسعى عند قدومه الى تركيا بالاستحصال على اجازة تسمح لهم بدخولها.

* * *

وصل رشيد عالي الى استانبول وحل مع عائلته في دار في حي ماتشكا، حيث انضم اليه شقيقه السيد كامل الكيلاني وزير العراق المفوض في انقره. وعلى الأثر وفد العرب على الكيلاني يزورونه ويتباحثون واياه في وضعهم وفي الخطة التي ينبغي عليهم انتهاجها، فتم الاتفاق على التريث والتزام جانب السكوت، الى ان ينجلي الموقف الدولي خاصة في ما يتعلق بالبلاد العربية.



■ استانبول، آب (اغسطس) ١٩٤١

بقدوم السيد رشيد عالي الكيلاني الى استانبول في آب (اغسطس) ١٩٤١، دب النشاط في الاوساط العربية، فراح رجالات العرب يعقدون الاجتماع تلو الاجتماع لتقرير موقفهم، اولاً من الأوضاع الجديدة التي نشأت في الاقطار العربية، وثانياً من العروض المتنوعة التي كانت تتقدم بها اليهم دول أجنبية مختلفة بغية اكتساب ودهم.

وكانت الحالة قد استقرت نهائيا في العراق وسورية ولبنان، وزال الخطر الالماني المباشر على الشرق العربي بمجرد الهجوم على روسيا، فأدرك جماعة استانبول ان غربتهم ستكون طويلة، وطويلة جداً. ولكن من يستطيع ان يضمن غده في أيام الحرب؟ من يدري كيف تنقلب الأوضاع ويتمزق الشمل؟ وهل يستطاع تقييد المغتربين في ميولهم وخططهم؟

هذه الاسئلة كان يرددها الزعماء والشباب المغتربون في مباحثاتهم، وبعد جلسات عديدة جمعت نخبة من رجالات العرب، تم الاتفاق على وضع

منهاج موحد، اقسموا على السير عليه مهما تقلبت الاحوال. وقد اطلق عليه فيما بعد اسم «ميثاق استانبول» ونص على النقاط الأساسية التالية:

اولاً – يتابع المغتربون الجهاد في سبيل القضية العربية.

ثانياً – يكون جهادهم في سبيل القضية مستقلا في الاساس عن الطرفين المتحاربين فلا تكون غايته سوى تحقيق الاماني الاستقلالية المعروفة.

ثالثاً – ضمن هذا النطاق تطلق حرية كل منهم في العمل السياسي من داخلي او دولي.

هذه هي لمحة عارضة عن «ميثاق استانبول».

وقد أحسن الزعماء المغتربون في الاتفاق عليه لأن عواصف الحرب ادركتهم بعد اشهر قليلة، فإذا بها تشتت شملهم وتنشرهم في المنطقة الممتدة من استانبول الى برلين طولا وعرضا!

■ استانبول، ايلول (سبتمبر) ١٩٤١

في اوائل ايلول (سبتمبر) ١٩٤١ زحف الانكليز والروس على ايران، فاستقبل الرأي العام التركي هذا الهجوم بأسف وألم، لا لانه سيعدل الوضع العسكري على الجناح التركي الايمن، بل لأنه ذكر الاتراك بأن بلادهم قد تصبح هي ايضاً ايرانا ثانية اذا شاءت الدول الكبرى.

وتركيا مقيدة مع ايران بميثاق سعد آباد. فكان عليها ان تسرع الى نجدة ايران كما كان يتوجب عليها ان تنجد العراق. ولكن السياسة الخارجية التركية لا تفهم المواثيق الدولية الا من خلال مصلحتها الخاصة – وهذه نقطة القوة فيها – فتناست ميثاق سعد آباد في تلك الايام، قانعة منه بالسلامة!

وأهم ما كان يشغل بال المغتربين في تلك الايام مصير سماحة المفتي الأكبر الحاج أمين الحسيني ورفاقه. فقد ادركهم الهجوم البريطاني – الروسي على ايران، وهم في طهران. فماذا يكون مصيرهم؟

ومر الشهر الأول على احتلال ايران فسمعنا ان السلطات المحتلة اعتقلت جميع اللاجئين، وفي مقدمتهم الشريف شرف والوزراء والضباط العراقيين، ولكننا لم نسمع كلمة واحدة عن مصير المفتي. فأين هو؟

ماذا فعل المفتي الاكبر في طهران بعد ان احتلها الانكليز والروس في ايلول (سبتمبر) ١٩٤١؟

كنا نترقب في استانبول الجواب على هذا السؤال، حتى طلعت علينا الصحف التركية مساء ذات ليلة من ليالي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤١، تعلن وصول سماحته على متن طائرة خاصة الى البانيا، ومنها الى ايطاليا!

وكانت مفاجأة بكل معنى الكلمة، لنا ولغيرنا. اذ كيف استطاع المفتي ان يخترق ذلك النطاق الحديدي المضروب حوله، وينتقل من عالم الى عالم؟

لقد كانت لسماحته «سوابق» كثيرة في هذا المضمار. ففي سنة ١٩٣٧، عندما حوصر في الحرم الشريف في القدس، وظن الناس انه قابع فيه، وصل زورق الى عرض السواحل اللبنانية يقل بدويا. واذا بهذا البدوي سماحة الحاج امين!

وفي سنة ١٩٣٩ كان المفتي مقيما في جونيه تحت الرقابة الشديدة. وكان الخطر عليه كبيرا، اذ كان يخشى ان تسلمه السلطات الفرنسية لمن يطلبه. وفجأة اذيع ان امرأة محجبة خرجت من بيت سماحته، وركبت سيارة وبعد ساعات وصلت هذه السيارة الى الحدود العراقية فإذا بالمرأة المحجبة سماحة الحاج امين!

واليوم اي في خريف ١٩٤١ فوجئنا بمغامرة اخرى يقوم بها سماحته، وهي تفوق جميع مغامراته السابقة جرأة وخطورة، فكيف نجح فيها؟

قلنا ان الهجوم الانكليزي الروسي على ايران ادرك سماحته وهو مقيم في طهران. وكان سماحته يسعى الى الانتقال الى تركيا، ولكن الهجوم ادركه قبل انتهاء المفاوضات في هذا الصدد، فلم يبق له الا ان يستسلم للسلطات المحتلة او يختفي!

ولكن كيف يستطيع المرء ان يختفي في بلد كطهران، وعين الـ «انتليجانس سرفيس» والـ «غيبو» فيها لا تنام؟

لم يكن باستطاعته ان يختفي في بيت عادي، او قرية نائية، لكون شخصيته المعروفة تفضحه فلم يجد ملجأ الا في سفارة محايدة تتمتع بالحصانة الديبلوماسية، فانتقل اليها.

ولم يجهل الانكليز والروس مقره، كما ان السلطات الايرانية كانت على اتصال دائم بسماحته. وعلى الاثر طلب سماحته الاذن بالانتقال الى بلد شرقي محايد، كتركيا او افغانستان. ونقلت الحكومة الايرانية هذا الاقتراح الى السلطات المسؤولة، فلم تقبل به، واصرت على ان يستسلم اولاً، على ان تتعهد هي بتأمين سلامته وراحته فيما بعد.

وفشلت هذه المفاوضات، وعندئذ لم يجد سماحته بدا من مغادرة ايران خشية ان يتبدل الموقف، ويفقد ملجأه الحصانة الديبلوماسية التي يتمتع بها، فاضطر مكرهاً الى الاستعانة بالغير على الخروج، وأتم الخطة المناسبة لذلك.

ولا تزال تفاصيل هذه الخطة سرا مكتوما، لا يعرفه الا القلائل. وليس لاحد الحق في ان يذيعه قبل ان يقرر سماحته اماطة اللثام عنه بنفسه...

ومع ذلك، فإننا نستطيع ان ندع خيالنا يخترق حجب ذلك السر. لنفترض ان سماحته استبدل زيه وحلق لحيته، وارتدى ثوبا مدنيا عاديا. الا يبدو عندئذ كأي رجل كان؟ ثم ان سحنته لا تنم مطلقا عن مظهر شرقي خاص، فإذا اعتم بقبعة، امكن اعتباره اجنبيا، شبيها بأي شعب من الشعوب التي تعيش على ضفاف البحر الابيض المتوسط.

وعلى اثر الاحتلال البريطاني الروسي لايران، جرى تبادل الرعايا الايرانيين المقيمين في ايطاليا بالرعايا الايطاليين المقيمين في ايران. ولنفترض ان السفارة الايطالية بدلت شخصية احد هؤلاء الرعايا، وان المفتي الاكبر استطاع بزيه المدني الاجنبي ان يغادر السفارة المحايدة ليلا تحت انف الحراس، وان ينضم الى قافلة الرعايا الايطاليين، متلبساً هوية

ذلك الايطالي الذي بدلوا شخصيته!

اذن فقد ذابت شخصية المفتي، وتقمصت في شخصية ايطالي من جملة المئتي ايطالي الذين اجاز لهم الحلفاء مغادرة ايران بالقطار الى بلادهم. وعلى اساس هذا الافتراض، سارت القافلة الايطالية بالقطار نحو الحدود التركية، فاجتازت العراق وسورية، او اذربيجان الايرانية، ودخلت تركيا، البلد المحايد الآمن. وهنا زال الخطر عن سماحته، وان كان قد احتفظ بزيه الخفي من قبيل الاحتياط.

واقام سماحته اياماً في استانبول، حتى اذا تم اتخاذ العدة لسفره، غادرها بالقطار الى بلغاريا، واجتاز الحدود التركية بهويته الايطالية خارجاً، كما اجتازها نفسها داخلا.

وفي بلغاريا، الدولة المحورية زال كل محظور ومحذور، فعاد السنيور عمانوئيل الايطالي صاحب السماحة مفتي فلسطين الاكبر. ثم ركب طائرة خاصة الى البانيا، ومنها الى ايطاليا، حيث حلت العمة محل القبعة، والجبة محل المعطف.

وهكذا انتهت مغامرة من اعظم المغامرات الشخصية التي حدثت في هذه الحرب واضاف الحاج امين الى «سوابقه» في هذا الميدان حلقة اخرى، لم تكن لا الاولى ولا الاخيرة من نوعها!

ما كاد سماحة المفتي يصل الى روما في اواخر العام ١٩٤١ حتى تكونت فيها نقط ارتكاز جديدة في العمل العربي. وكانت النقلة الاولى متمركزة حول السيد رشيد عالي الكيلاني في استانبول، والثانية حول الزعيم فوزي القاوقجي في برلين.

وكان فوزي يتابع القتال في بادية الشام بعد انهيار الحكومة الكيلانية، فلما زحف الانكليز على سورية ولبنان في حزيران (يونيو) ١٩٤١، تابع فوزي القتال في المنطقة نفسها. وفي أوائل تموز (يوليو) اصيب بجراح بالغة في رأسه، فنقل على متن طائرة خاصة الى اثينا حيث عالجه بعض كبار الأطباء الالمان، وانقذوه من اخطار بالغة كانت تهدده من اثر

الشظايا في دماغه. ولما شفي انتقل الى برلين واستقر فيها، وتجمع حوله أكثر العرب الذين بارحوا بلادهم في الأيام الأخيرة من الحرب البريطانية - الفيشية. ويجب القول بأن جميع هؤلاء المجاهدين كانوا يريدون الالتجاء الى تركيا، ولكن حكومة أنقره وضعت قيودا شديدة على الدخول الى بلادها في ذلك الحين، فتعذر عليهم السفر اليها، واضطروا الى ركوب الطائرات الالمانية الى أثينا، فمنهم من بقي فيها ومنهم من تابع السفر الى المانيا.

ولم يكن من الطبيعي ان يظل العمل السياسي العربي في اوروبا ممزقا بين ثلاثة اقطاب، فلما وصل المفتي انتقل اليه امر القيادة السياسية.

* * *

اما رشيد عالي فقد ظل في استانبول يتحين الفرص للسفر. وكان قد اجتمع سرا بالمفتي عند مرور الاخير متنكرا باستانبول، فتم بينهما الاتفاق على خطة موحدة لمتابعة الجهاد في سبيل القضية العربية في اوروبا، وفقا لمبادئ «ميثاق استانبول» ولعهود أخرى.

وكان محظورا على رشيد عالي ان يغادر تركيا الا باذن حكومتها، فهي لم تقبله لاجئا الى بلادها الا بعد ان وقع كتابا يتعهد فيه بعدم القيام بأي عمل سياسي كما تعهد بأن لا يغادر البلاد الا بمشورة الحكومة التركية وموافقتها. ومع ذلك فإن الحكومتين البريطانية والعراقية احتجتا الى انقره على قبوله، ولم تسكتا الا بعد ان تعهدت لهما الحكومة التركية بمنع الكيلاني من الاتيان بأية حركة تسيء الى قضيتهما. وعلى ذلك فإن خروجه من استانبول في اتجاه اوروبا برضى الاتراك كان أمرا مستحيلاً.

كانت الأنباء قد بدأت ترد من اوروبا عن شروع المفتي في العمل السياسي، وعن اتصال الحكومتين الايطالية والالمانية به، فقرر رشيد عالي الاسراع في السفر مهما كلف الأمر.

ولم يكن فراره من الرقابة التركية بالامر السهل، اذ كان البوليس التركي يراقبه - كما يراقب جميع اللاجئين العرب - رقابة جد دقيقة. ومع ذلك فقد وضع خطة محكمة للفرار، وافلح في تنفيذها. واستطاع هو ايضاً

ان يصل بلغاريا، وان يتابع السفر منها على متن قطار خاص الى بودابست فروما حيث التحق بالمفتي.

وكما ان طريقة فرار المفتي من طهران الى ايطاليا سر لا يجوز لغيره اذاعته، كذلك لا يجوز الكشف عن سر المغامرة الكيلانية الا بارادة صاحبها ورغبته.

ومع ذلك فإننا لا نذيع سرا اذا ذكرنا ما أشيع يومئذ في هذا الصدد في استانبول، اذ قيل ان الكيلاني ركب زورقا بخاريا في اثناء الليل، فحمله الى مرفأ بورغاس البلغاري القريب. ولكن الرواية السائدة تقول انه تنكر بزي عامل ميكانيكي، ودخل بهذه الصفة الى مطار استانبول في «فادي كوي». وكان الهر شميت مدير قلم المطبوعات في وزارة الخارجية الالمانية يزور تركيا يومئذ على رأس وفد صحافي، فدخل الكيلاني الى طائرة شميت التي تتمتع بالحصانة الديبلوماسية وحملته الى مطار «بورغيشته» في صوفيا حيث استعاد شخصيته الأصلية.

* * *

ما كادت الحكومة التركية تعرف بفرار الكيلاني حتى استاءت استياء شديدا، فأصدرت بلاغا رسميا تستنكر فيه تصرفه أشد الاستنكار. وقد اضطرت الى ذلك لأن فراره احرج موقفها تجاه انكلترا والعراق، بعد ان تعهدت لهما بأن تمنع خروجه الى أوروبا تعهدا قاطعا.

وعلى اثر هذه الحادثة عززت السلطات التركية الرقابة على انصار الكيلاني ونصحت بعض المقربين اليه بمغادرة البلاد للمحافظة على حياد تركيا، فغادر اكثر العراقيين استانبول قاصدين اوروبا للالتحاق بالكيلاني، وبخروج الكيلاني من تركيا، والتحاق الكثيرين به، لم يبق في استانبول سوى عدد قليل من المغتربين العرب، جلهم من الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين. وبذلك انتهى عهد العمل السياسي العربي المنظم فيها قبل ان يولد، وتحول الى مجهود فردي يبذله هذا او ذاك منهم، وفقا لما يراه مصلحة بلاده، وفي حدود الممكن في دولة محايدة كتركيا، تحرص على

حيادها اشد الحرص.

ولا شك في ان وضع المغتربين العرب في تركيا كان دقيقاً جداً، اذ لم تكن لهم دولة تحميهم، وسفارات تدافع عنهم. بل كان اكثرهم مجردا من أوراق الهوية القانونية. فاعتمدوا في الدرجة الاولى على الضيافة التركية.

٤

■ استانبول، ايلول (سبتمبر) ١٩٤١

آن لي، وقد حدثت القارئ عن المرحلة الأولى من غربتنا في استانبول ان احدثه عن تركيا نفسها، فأميط اللثام عن حقائق كثيرة يجهلها ابناء هذه البلاد، عن شعب يربط الجوار مصيره بمصيرنا ربطا محكما منذ عدة قرون.

العربي لا يشعر بنفسه غريبا في تركيا بسبب التشابه الشديد بيننا وبين الاتراك في مختلف أسباب الحياة. ولا ننسى اننا لم ننفصل سياسيا عن الاتراك الا منذ ربع قرن فقط، وان هذه الحقبة القصيرة من الزمن لا تستطيع ان تمحو آثار خمسة قرون من الحياة المشتركة.

ولقد استطاعت دعاية اجنبية ماهرة ان تقيم بين العرب والاتراك منذ ربع قرن سدا رفيعا مصطنعا. وقد كان الاستعمار يقيدنا ويمنعنا من اختراقه، ولكن تركيا الطليقة كانت تستطيع ان تبذل مجهودا في ذلك السبيل. ومن المؤسف انها لم تفعل، لاعتبارات عديدة.

على ان قيام هذا السد السياسي والعاطفي لا يبدل شيئا من الحقيقة الراهنة بأن الأتراك هم أقرب الشعوب الى العرب ثقافيا واجتماعيا، لأن الطرفين استوحيا ولا يزالان يستوحيان مدنيتهما من منهل واحد.

لقد حاول اتاتورك ان يقطع كل صلة بين تركيا والشرق، وان يوجه عن الصداقة العربية بالصداقة البلقانية، وذلك تحت تأثير الثورة العربية في الحرب العظمى، وما عقبها من حوادث مؤسفة، خاصة عند انسحاب الجيش التركي من سورية، ولكن محاولته لم تكن طبيعية اذ ليس بين تركيا والبلقان اية صلة من الصلات التي تربط الاتراك بالعرب. واذا كانت الحرب العظمى قد خلقت بين الشعبين جفاء شديدا، فإن هذا الجفاء ظل مقتصرا على اوساط معينة، ولم يتحول قط الى كره، بينما تتبادل تركيا والبلقان حقدا مزمنا يستحيل ان يزول. لهذا السبب كانت محاولة الابتعاد عن الشرق محاولة فاشلة، ولا تزال تركيا الى يومنا هذا دولة شرقية تشاطرنا المصير ونشاطرها اياه، بل لا تزال حدود الشرق تمتد عبر البلقان حتى حدود النمسا، كما سيجيء الكلام عن ذلك في حينه. وما دام الروس قد اقفلوا البلقان في وجه الاتراك، وما دام العرب قد استعادوا – الى حد ما – مقاليد سياستهم، فإن العلاقات التركية – العربية قادمة خلال السنين المقبلة على عهد جديد.

لقد حول أتاتورك تركيا الى دولة علمانية. ولكن علمانية تركيا نظرية اكثر منها عملية، خاصة في سواد الشعب. فالدين لا يزال ركن العقيدة التركية ودعامتها الاساسية. بل لا اغالي مطلقا اذا قلت ان الجماهير التركية في المدن والقرى هي اكثر تمسكا به منها في الاقطار العربية نفسها. ولو ان اتاتورك احتفظ مع الاصلاحات التي ادخلها، بجوهر الدين بدلا من ان يستبدله بالعلمانية، لكانت تركيا تتزعم الآن حركة الاصلاح الاجتماعي في العالم الاسلامي.

ولا تزال المساجد التركية عامرة بالمصلين في الاوقات الخمسة، والشعائر الدينية محترمة مقدمة. اجل، لقد الغى اتاتورك التعليم الديني من

المدارس، فنشأ الجيل الجديد جاهلا اصول الدين، خاصة في المدن الكبرى. ولكن الدين لا يزال يحتل في قلبه نفس المحل الذي يحتله في قلب المتدين الممارس. فشأن التركي الجديد في هذا المضمار شأن شبابنا الذين لا يمارسون شيئا من شعائر دينهم ومع ذلك لم يخرجوا عنه.

والدين لا يزال الى الآن ركن القومية التركية، كما هي الحال في البلقان ايضاً. ولا يعتبر الاتراك غير المسلمين منهم اتراكا، ولو كانوا مقيمين معهم منذ مئات السنين. ولا يستطيع هؤلاء ان يحتلوا في الحكومة او في الجيش اي منصب، لأن تزكيتهم لا تتعدى حدود تذكرة الهوية او جواز السفر. وعلى ذلك فإنني لا اخطئ اذا قلت ان فصل الدين عن الدولة في تركيا لم يبدل الوضع الديني فيها سوى اسما.

ولا يجوز لرجال الدين في تركيا - على اختلاف مذاهبهم - ان يرتدوا الملابس الدينية الا عند ممارسة شعائر دينهم. فهم يظهرون بين الناس بالملابس المدنية العادية، وان كانوا قد اتخذوا جميعا لأنفسهم الثوب الاسود الرسمي لباسا. ولا يظهر الشيخ بعمته الا في المسجد، والكاهن بقلنسوته الا في الكنيسة، ولا يجوز للتركي ان يصبح شيخا ما لم يجتز امتحانات المدرسة الشرعية ويحصل على اجازة رسمية بذلك، وهذا تدبير حكيم نود لو نطبقه في بلادنا، فنقضي بذلك على فوضى العمائم ونسدي الى الدين خدمة جليلة.

ومن المعلوم ان اتاتورك استبدل الحروف العربية بالحروف اللاتينية. وليس لنا ان ننتقد هذا التدبير، فكل شعب هو حر في اختيار ما يريد. على ان سواد الشعب التركي لا يزال يستعمل الحروف العربية، ولن تسود الحروف اللاتينية وحدها الا عندما يزول الجيل الماضي، وتكبر الاجيال التي تعلمت اخيرا في المدارس الحروف اللاتينية وحدها.

وقد منع اتاتورك في عهده الكتب المطبوعة بالاحرف العربية ولكن اينونو كان اكثر تساهلا من سلفه، فاطلق حرية بيعها وهي تعرض اليوم في واجهات المكتبات.

وادخل اتاتورك تعديلات اساسية على اللغة التركية. واذا كان جزء من هذه التعديلات يهدف الى «تطهيرها» من الالفاظ العربية، فإن الجزء الاوفر منها استهدف اصلاح اللغة وجعلها في متناول جميع ابنائها.

تتألف اللغة التركية من مفردات تركية وعربية وايرانية، وكانت كل كلمة تتبع فيما مضى نحو لغتها، لذلك كان يتوجب على التركي ان يتعلم في آن واحد نحو اللغات الثلاث وصرفها لكي يتمكن من اتقان لغته.

ثم جاءت المحاولة الاصلاحية في عهد اتاتورك، فوضع الخبراء للغة التركية نحواً واحداً سهلاً، وفر على الطالب التركي مشقة تعلم نحو اللغات الثلاث.

واذا كانت الحركة الاصلاحية قد ذهبت بعدد وافر من الكلمات العربية، فحلت محلها كلمات تركية او اجنبية، فإن نسبة الكلمات العربية الاصل لا تزال رفيعة جداً في اللغة التركية، لا تقل عن الاربعين في المئة. وعلى هذا فإن اللغتين العربية والتركية لا تزالان تؤلفان سبباً من اسباب الاتصال بين الشعبين.

كنت مرة اتناول الطعام مع الصديقين الكريمين الدكتور محمد حسن سلمان والاستاذ عفيف طيبي في مطعم «طوران» في انقره، وطلب الاستاذ الطيبي من الخادم صحن كومبوت (خشاف) مشكل باللغة الفرنسية فلم يفهم الخادم كلمة مشكل فقال الدكتور سلمان:

– ولم تستعملون الكلمة الفرنسية لها؟ لنجرب احدى الكلمات العربية، وانا اراهن بأننا لن نخطىء!

وهنا قال الدكتور للخادم بالعربية:

– بير كومبوت مشكل!

فلم يفهم صاحبنا، فعاد الدكتور وقال:

– بير كومبوت منوع!

فلم يفهم ايضاً. فعاود الدكتور الكرة وقال:

– بير كومبوت مختلف!

وهنا هز الخادم رأسه علامة الموافقة، وهو يردد «مختلف، مختلف، حاضر افندم!».

* * *

مهما قيل في اثر الاصلاحات الاجتماعية التي فرضها اتاتورك لتحويل الشعب التركي الى شعب غربي، فإن الشعب التركي لا يزال شرقياً – لحسن حظه – في صفاته الاساسية، اذ لا يكفي ان يبدل الانسان زيه وقبعته لكي يفقد صفاته القومية الاساسية.

ان التركي لا يزال شرقياً كما كان بالأمس، وما عدا ذلك فالمظاهر لا تزيد ولا تنقص من هذه الحقيقة. واذا كان الجيل الجديد يبدو غربياً في مظاهره، واذا كان التعليم المدرسي يدفع به نحو الغرب دفعاً سريعاً، فإن الروحية الشرقية لا تزال طبعاً يغلب التطبع. ثم ان الموجة الغربية في تركيا لا تتعدى طبقات معينة من الميسورين في المدن الكبرى، كما هي الحالة في بلادنا عينها. ولا اعتقد ان تركيا «تغربت» عملياً اكثر منا.

لقد اقتبس اتاتورك عن الغرب انظمة اقتصادية وعسكرية ممتازة. ولا اعتقد ان تطبيقها جعل من تركيا دولة غربية بالمعنى الاوروبي، اذ ان المدنية الشرقية اذا اقتبست فضائل المدنية الآلية الغربية تصبح افضل بكثير من مدنية الغرب.

واعتقد ان السبب الرئيسي في الفكرة الخاطئة التي تكونت في اذهان العرب عن الاتراك هو الانقطاع السياسي بيننا وبينهم. فلو ظل الاتصال قائماً بعد الحرب العظمى عن طريق التمثيل الديبلوماسي والعلاقات التجارية والثقافية والاجتماعية لكنا ننظر اليوم الى تركيا نظرتنا الى قطر شقيق. ولقد قلت سابقاً ان العرب كانوا مشغولين عن العمل الخارجي بالدفاع عن كيانهم الداخلي ضد الاستعمار، فكان الاحرى بتركيا ان تكون هي العاملة على الاحتفاظ بالصلات الودية مع العرب. ولكن انقره اعتبرت العرب بعد الحرب العظمى عنصراً من عناصر السياسة الخارجية فقط، يهمها امرهم بمقدار ما تتطور علاقاتها مع انكلترا وفرنسا. وكان موقفها

منهم موقف حكومة اجنبية من شعب غريب، ولم تعاملهم معاملة شعب شقيق لشعب شقيق. وكانت تستوحي هذه الخطة من ذكريات ثورة الشريف حسين، اي من مذكرات الماضي وحده. ولولا ذلك لما ازداد الجفاء حتى انتهى امره الى واقعة لواء الاسكندرونة.

تلك كانت السياسة التركية في عهد اتاتورك. ولكنني اتوقع ان يطرأ عليها تعديل اساسي في عهد عصمت اينونو بعد اليوم، فقد دهمت الاحداث السياسية والعسكرية تركيا خلال السنين الاخيرة، فاكتشفت بين عشية وضحاها ان محاولة التقرب من الغرب عن طريق البلقان قد باءت بالفشل الذريع، واصبحت البلاد مطوقة من الشرق والشمال والغرب بالنفوذ السوفياتي. واصبح من الطبيعي ان تستأنف حكومة انقره سياسة التعاون الودي مع الاقطار العربية، وهي سياسة يرحب بها العرب لأنها تمثل المجرى الطبيعي للحوادث.

٥

■ استانبول، ايلول (سبتمبر) ١٩٤١

الغريب المقيم في بلاد غريبة، وفي ايام الحرب، يعيش قولا وعملا مع البوليس. لذلك نستطيع ان نقول – نحن العرب الذين همنا على وجوهنا في هذه الحرب – اننا قضينا سني الغربة ونحن نتمتع برقابة البوليس ليل نهار.

واذا كان في العالم بلاد يرتكز نظامها على الامن العام، فهي تركيا. فلقد ادرك الاتراك ان امضى سلاح في يد الحكومة هو اطلاعها على الصغيرة والكبيرة من الشؤون. لذلك عززوا دوائر التحري تعزيزاً مدهشاً، بحيث لا تخفاها خافية بوجه الاجمال.

وكانت استانبول في تلك الايام، اي في صيف ١٩٤١، اعظم مركز للجاسوسية في العالم تقريباً، اذ كانت تؤلف تركيا السد الذي يفصل بين الطرفين المتحاربين او يصل فيما بينهما، فارسل كل منهما رسله وجواسيسه ودعاته الى استانبول، ليرقبوا اعمال الطرف الآخر. وهكذا

كانت استانبول تعج بالالمان والطليان واليابانيين المولجين بالتجسس على الشرق العربي، كما كانت تعج بعملاء الحلفاء المولجين بالتجسس على اوروبا.

ويصعب علينا تعداد الصفات التي كان يتلبسها الجواسيس لتبرير دخولهم الى تركيا وبقائهم فيها، ولا اعتقد ان هناك مهنة لم ينتحلها الجواسيس في ذلك السبيل. لذلك كنا نتحفظ اشد التحفظ تجاه الاجانب، وندرك ان كلا منهم ينتمي حتما الى دائرة من دوائر الجاسوسية، او الى اكثر من دائرة!

ولقد سألت مرة احد اركان مديرية الامن العام التركي عن عدد الجواسيس في استانبول، فقال:

– لو كانت بلادك في حالة حرب، افلا يبذل كل مجهود ممكن في هذا السبيل؟

قلت: بلى!

قال: اذن فاعتبر كل اجنبي مقيم في غير بلاده جاسوساً لبلاده، ولا تستثن احدا، من السفير الى العميل الى الراقصة. والفرق بين السفير وغيره هو انه جاسوس رسمي معترف به، تسهل له الامتيازات الديبلوماسية تأدية عمله. اما الآخرون فيعتمدون اساليب اخرى!

ولقد علمتنا التجارب فيما بعد ان ننظر الى كل اجنبي بالعين التي نظر بها ذلك التركي الى الاجانب. واذا كنا نحن العرب لا نطبق بعد هذه القاعدة في بلادنا، فذلك لأننا لم نصل بعد الى مرتبة الدولة المستقلة، بل كانت صلاتنا الخارجية قبل هذه الحرب في ايدي السلطات الاجنبية.

هكذا كتب علينا، نحن العرب القلائل الذين بقوا في استانبول في صيف ١٩٤١، ان نعيش وسط عالم يكاد يكون كله عالم جواسيس، ونحن مبعدون مشردون، لا دولة لنا ولا سفارة ولكن قانون المجموع شملنا، فإذا بنا نحن ايضاً نصبح تحت الرقابة الشديدة المتواصلة، واذا بنا نصبح موضع الشك والريبة من الجميع، فالمحايد بين المتحاربين هو اسوأ وضعا

منهم جميعاً. وكان الالماني يقول لنا: اذا كنتم ضد الانكليز فلماذا لا تنضمون الينا؟

وكان الانكليزي يقول لنا: ما دمتم لم تنضموا الى الالمان فلماذا لا تعودون الى بلادكم التي نحتلها؟

وكان الفرنسي يقول: تعالوا الينا، فنحن مثلكم لا نحب الالمان ولا نحب الانكليز!.

واخيراً... كان التركي يقول: كيف السبيل الى التسامح مع هؤلاء، وارضاء الانكليز والالمان ومصلحة تركيا في آن واحد؟

ولم يلبث هذا المنطق حتى اصبح بداية متاعبنا.

* * *

كنت كغيري من اللاجئين العرب، خاضعا لرقابة دقيقة. وقد لاحظت منذ اواخر ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٤١ ان هذه الرقابة تشتد، وان البوليس يقتفي اثري في روحاتي وغدواتي. واذا غاب الرقيب لحظة، فهنالك رقباء آخرون يحلون محله.

ولم اخش يوما هذه الرقابة، بل كنت ارحب بها، لأنني لم اكن اقوم بأي عمل سياسي من شأنه ان يمس حياد تركيا. نعم، لم التزم بيتي خلال تلك الاشهر الطوال في استانبول، بل ابديت نشاطا صحافياً ظاهراً، في خدمة القضية العربية وحدها. لذلك كنت اطمئن الى عيون الشرطة، واعتبرها شاهداً على استقامة مسلكي في ديار الغربة.

ولم تكن هناك عيون تركية فحسب بل كان هناك ايضاً جواسيس الانكليز يراقبوننا بلا انقطاع ليروا مدى علاقتنا بالالمان، وكان جواسيس الالمان يراقبوننا بدورهم ليروا ما اذا كانت لنا علاقة بالانكليز. وكان جواسيس الفرنسيين يراقبوننا ايضاً ليسجلوا مدى علاقتنا بالانكليز والالمان على السواء!

في وسط هذا الجو الموبوء بالجاسوسية، قضينا ثمانية اشهر في استانبول. وقد يتوهم القارىء ان الحياة في مثل هذا الجو مستحيلة. ولكنه

مخطىء في تقديره. فالعادة تغلب في النهاية، وتصبح «العيون» جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية. وما دام الانسان يتصرف ضمن حدود القانون، فليس له ان يخشى الرقابة!

ثم ازدادت الرقابة واتخذت اشكالا اخرى، فأخذت رسائلي الواردة في البريد تغيب من صندوق بريدي اسابيع عديدة قبل ان تصل الي، كما لاحظت ان اصابع خفية تعبث بما ابعثه من كتب، او تمتد خفية الى اوراقي حتى في داخل البيت في غيابي. ولكنني لم اعلق ذرة من الاهمية على تلك الحوادث اذ لم اكن اخفي غير ما كنت اعلن. واصبحت في النهاية اعتبر تلك «المعاكسات» ضربا من ضروب التسلية!

وانتهى العام الواحد والاربعون، وحملت نهايته الينا الحرب اليابانية – الاميركية، فكان العنصر الذي قضى على حياد آخر الدول الكبرى في العالم، وزاد الاتراك تمسكا بحيادهم، فازدادت بالتالي رقابتهم على الاجانب.

■ استانبول، كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢

وفي مساء يوم الخميس الواقع في ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢ زارني الأخ واصف كمال في بيتي فقال لي:

– اتعرف؟ ان البوليس لم يتركني اليوم لحظة واحدة!

قلت له: كلانا في «البوليس» سواء!

وخرج صديقي في الساعة الثامنة، وبعد نصف ساعة، ارتديت معطفي قاصداً الى السينما وكانت الثلوج تكسو شوارع استانبول، وهي ما تزال تهطل باستمرار فتمنع الرؤية الى ابعد من اشبار معدودة. وما كدت اجتاز الزقاق المؤدي من بيتي الى شارع الاستقلال الرئيسي، حتى ظهر امامي رجل ضخم الجثة، وقال:

– حضرتك كامل بيه؟

فقلت: نعم!

وقبل ان ادرك ما حدث، اذا بثلاثة اشخاص آخرين يخرجون من الظلمة ويطوقونني بمسدساتهم من جميع الجهات، قائلين:

- سر امامنا بلا ضجة!

وخيل اليّ انني اعيش فصلا من فصول الافلام الاميركية، وتذكرت ان البطل يلكم مهاجميه على طريقة هوليوود ويصرعهم الواحد تلو الآخر. ولكن الرواية لم تكن لحسن الحظ اميركية، فابتسمت وقضيت لحظة وانا امتع الطرف بمشهد المسدسات الاربعة مصوبة الي.

سار «الموكب» في شارع الاستقلال يتقدمني الشرطي الضخم الجثة. وكان الثلاثة الآخرون يطوقونني من جميع الجهات، وانا اسير في وسطهم، كزعيم يتوسط رجاله.

وخطر لي في الطريق ان اسألهم عن سبب اعتقالي، ولكنني آثرت السكوت لا لأنني لم اكن اود ان اعرفه، بل لأنني كنت اشعر في قرارة نفسي بطمأنينة راسخة جعلتني لا اهاب شيئاً. وقد يعجب القارىء اذا علم انني كنت اشعر بشيء من اللذة في تلك اللحظة، اذ يتيح لي الاعتقال ان اتعرف الى تجربة جديدة من تجارب الدنيا. والواقع ان تجربة استانبول هذه كانت خير معوان لي على تجارب اخرى من نوعها، حلّت بي فيما بعد!

كان الثلج ينهمر بشدة، والشوارع خالية تقريبا من الناس. وكنت احدق بوجه كل المارة، على امل ان يكون بينهم احد من معارفي، فيرى ما حل بي، وينبىء اخواني بالامر. ولكنني لم ار احداً منهم.

بلغنا بعد بضع دقائق مخفر شرطة باي اوغلو المركزي، فأدخلوني الى غرفة مدير الشرطة، فاستقبلني استقبالا جعلني اعتقد انني زائر كريم. وسألته عن سبب اعتقالي، فأجاب:

- ومن قال لك انك معتقل؟ لقد تلقينا امراً بارسالك الى دائرة الشرطة المركزية في استانبول. هذا كل ما اعلم. لكن هناك رجاء آخر يا كامل بيه، سأرسل الآن من يرافقك الى بيتك، حيث يجري تفتيشه ومصادرة ما فيه من اوراق ووثائق، فالرجاء الا تمانع في ذلك!

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة من مساء ذلك اليوم عندما غادرنا مخفر البوليس في باي اوغلو قاصدين الى بيتي لتفتيشه، يرافقني اثنان من رجال الشرطة السريين.

واستمرت عملية التفتيش زهاء نصف الساعة، جمع على اثرها «الضيوف» اكثر ما وجدوه من اوراق ورسائل في حقيبة صغيرة، فاقفلتها امامهم واحتفظت بالمفتاح.

وحول منتصف الليل تقريباً وصلنا الى دار البوليس المركزي في استانبول الواقع على مقربة من القرن الذهبي، وذلك بعد عملية تسجيل طويلة حملوني بها من مخفر الى مخفر.

وفي دار البوليس المركزي رحنا نصعد من طابق الى طابق، حتى بلغنا الطابق العلوي السابع، فأدخلوني حجرة صغيرة يبلغ طولها المترين، وعرضها المتر الواحد، وفيها سرير حديدي صغير واقفلوا الباب علي.

وفي تلك اللحظة تجلت لي الحقيقة التي لم اكن قد تميزتها بعد. انا سجين، اجل، انا سجين، في اقرب نقطة الى السماء من دار البوليس المركزي في استانبول!

في الغرفة نافذة صغيرة تطل على... القرميد فقط. وقد تحطم زجاجها منذ زمن طويل، فأصبحت تشكل منفذاً ممتازاً للهواء البارد القادم من جهة البوسفور.

انا سجين. ولكن لماذا؟

٦

■ استانبول، ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤١

جلست على السرير افكر في وضعي الجديد، فرحت استعرض مسلكي منذ قدومي الى تركيا لثمانية اشهر خلت، حتى تلك اللحظة، فلم اجد فيه ما يبرر اعتقالي قط. اذن لماذا اعتقلوني؟ اهناك مؤامرة ام دسيسة ام مناورة؟

وحانت مني التفاتة الى السرير، فلاحظت ان كل ما عليه جديد. فالحرام الصوفي جديد، والغطاء الابيض جديد، وغلاف المخدة جديد. وتتمتع السجون التركية عادة بسمعة ليست جد مرضية، فاعتبرت هذه العناية الخاصة بالسرير دليلا طيباً، اذ لو كانوا يضمرون من وراء اعتقالي نية سيئة، لما حملوا انفسهم عناء ابتياع الاغطية الجديدة!

كان البرد قارساً والحرارة لا تقل عن العشرة تحت الصفر، والنافذة تحمل اليّ بلا انقطاع رياح البحر الاسود اللاذعة. لكن التفكير في المصير شغلني قليلا عن ذلك.

وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل، والحركة لم تهدأ في المر المؤدي الى حجرتي. ثم سمعت ضجة ووقع اقدام كثيرة، فنهضت استرق النظر من خلال شقوق رفيعة في عوارض الباب، فإذا بالشرطة يجلبون ضيفا آخر. انه رفيقي وصديقي محي الدين الطويل. وبعد قليل جاء موكب آخر: انه موكب الاخ المجاهد واصف كمال. وتتابعت المواكب بعد ذلك حتى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل، والشرطة تجلب الواحد منا تلو الآخر. ثم انطفأت الكهرباء، فادركت ان الليل بدأ في عرف ارباب الدار، فعدت الى السرير اقضي في ضيافته ليلتي الاولى في السجن. ولكن كيف السبيل الى النوم بلا ملابس للنوم، وتحت حرام رقيق لا يدفع من شر البرد شيئاً؟

وتذكرت عندئذ مشاهد السجناء في الافلام السينمائية، وكيف ينامون بملابسهم فضحكت، وشددت حولي ردائي الثقيل، وخلعت حذائي، وصعدت الى السرير، فإذا به كالبراد!

ولا استطيع وانا اصف للقارئ ذلك السرير، الا ان اتذكر ما حل بنا فيما بعد في اوروبا، عندما حملت الغارات الجوية الموت والدمار اليها، فإذا بنا نهيم على وجوهنا في العراء، واذا بنا نقضي الليالي الطوال في فراش من الثلج والجليد. ولكم ذكرت في تلك الليالي سرير استانبول هذا، وتنهدت حسرة عليه!

عبثاً حاولت ان اغمض عيني، فقد ظل دماغي يتساءل عن اسباب اعتقال هذه القافلة من العرب اللاجئين. وقد ادهشتني هذه المجموعة التي اختاروها من بيننا، اذ اعتقلوا جماعة لا صلة بينهم في اعمالهم، وفي اتجاهاتهم، وفي مبادئهم، فهل تعمدوا ان يختاروا «من كل واد عصا» ام هناك سبب نجهله؟

وكان صمت رهيب يسود الجو، ولا يعكره سوى خطوات الحارس عند تبديله، اذ كانوا يبدلونه بسواه مرة كل نصف ساعة. وفجأة سمعت صوتاً يتمتم نغمة شرقية ناعمة، ثم اخذ الصوت يرتفع رويداً رويداً، واذا به ينطلق

منشداً.

يا ظلام الليل خـيم اننا نهـوى الظلامـا

ليس بعد الليل الا فـجر مـجد يتـسامى!

سقياً لك ايها الصديق الحبيب، يا واصف! لقد اخترت هذه اللحظة لكي تحمل الينا من نفسك الصادق نفحة من نفحات الوطن العزيز، فتملأ قلوبنا بالعز والرجاء!

وحبست انفاسي خشية ان تعكر عليّ سماع ذلك اللحن الصافي.

ثم دب الرقاد الى جفوني، فاغمضت عيني وانا اشعر بقلبي قد كبر حتى تجاوز السجن كله وبلغ اقصى حدود الاطمئنان!

تلك كانت ليلة السجن الاولى.

■ استانبول، ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٤١

هل تذوقت طعم السـجن في حياتك ايها القارىء؟ اذا كان جوابك بالنفي، فإنني اتمنى لك السجن ولو بضعة ايام تروض فيها اعصابك على الصبر، فتفيد من هذه التجربة فائدة كبيرة تعود عليك بأطيب النتائج في حياتك اليومية!

تصور نفسك بين اربعة جدران، بلا انيس ولا جليس، بلا صحف ولا كتب، تشكل في حجرتك عالما مستقلا عن العالم. تصور ساعات النهار تزحف كالسلحفاة وانت غارق في المجهول لا تدري من امرك شيئا. تصور هذا كله، ثم قدر بعد ذلك امثولة الصبر التي يفرضها عليك الاعتقال فرضا!

انقضى النهار الاول من الاعتقال، وانا جالس على حافة السرير انتظر، ولم اسمع وطء اقدام قط، مما دعاني الى الاعتقاد بأن رفاقي ايضاً قابعون في حجراتهم ينتظرون مثلي.

واشتد البرد منذ الصباح الباكر، فانصرفت الى معالجته، تارة بتعليق غطاء على النافذة ذات الزجاج المحطم، وطوراً بالقفز وبمصارعة الجدار. وكم وددت يومئذ لو اعطيت قلماً وقرطاساً، اذن لكنت ألفت احسن كتاب عن

الوقت الذي يقتلك ولا تقتله!

وفي ساعة متأخرة من المساء، جاء اليّ الحارس يدعوني الى مرافقته، فتنفست الصعداء، وسرت وراءه في سلسلة من الممرات الضيقة المتعرجة الى غرفة فسيحة جلس في صدرها امين بك، مدير الشعبة الثانية يومئذ في البوليس التركي، وهي الشعبة السياسية. فادركت فوراً ان التهمة الموجهة الينا سياسية.

وكانت حقيبة اوراقي موضوعة امامه فطلب اليّ ان افتحها بالمفتاح الذي كنت احتفظ به، ففعلت. فراح على الاثر يستعرض تلك الاوراق واحدة واحدة، وانا جالس امامه على مقعد وثير، اتمتع بجو الغرفة الدافىء، واقابل بين فضائل حجرتي «الطبيعية» وما صنع الانسان الطليق لنفسه من اسباب الراحة والرفاهية.

وانتهت الزيارة الاولى عند هذا الحد، وغادرت الغرفة وفي القلب حسرة من تلك الموقدة المستعرة التي كانت تصهر البرد صهراً، وعادوا بي الى حجرتي حيث كانت الدرجات العشر تحت الصفر تنتظرني!

وقضيت الليلة الثانية في السجن، وقد نسيت بعدها كل شيء الا البرد، فأصبح همي الوحيد ان اتقيه، وليس لدي من وسائل اتقائه ما يكفي.

ثم تعاقبت الايام، فمر الثالث والرابع والخامس، ومرت معها ثقتي بفائدة السجن في اصلاح البشر. وكم اود لو يقضي القضاة وواضعو القوانين بضعة ايام في السجن، اذن لبحثوا عن وسائل اخرى للعقاب الذي يقصدون من ورائه الاصلاح. ولا بد لي من ان اشن يوماً ما حملة شعواء على السجن، وان اطالب بأن تحل عقوبة العمل محل عقوبة الجلوس بين اربعة جدران!

■ استانبول، ٢١ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢

في صباح اليوم السادس لاعتقالي، جاء الحارس يدعوني مرة اخرى، فقادني الى غرفة مدير الشعبة الثانية امين بك.

جلست على المقعد الوثير الى جانب الموقدة، وبعد الكلام عن الطقس والبرد، قلت له. هل دقت ساعة التحقيق؟

فأجاب: كلا، وانما اود ان نتحدث حديثا شخصيا، من شأنه ان يساعد على جلاء الحقيقة. قل لي، ما رأيك في مصير القضية العربية؟ وايهما افضل لكم، فوز الحلفاء ام فوز الالمان؟

– انني اعتقد ان القضية العربية قضية مستقلة تمام الاستقلال عن قضية الحرب، فالقضية كانت قبل الحرب، ولا تزال في اثنائها، وستبقى بعدها. لذلك لا ارى كيف يمكن ان نربط قضيتنا ربطا دائما بقضية الحلفاء او بقضية المحور ما دام احد الطرفين منهما سينهار في هذا الصراع ونحن لا نريد ان تنهار قضيتنا.

– وماذا تريدون اذن؟

– نريد ان نفعل ما تفعلون انتم الاتراك، فتظل القضية العربية في هذا الصراع عنصراً مستقلا، يفيد من تطورات الحرب دون ان يتأثر بها اذا استطاع الى ذلك سبيلا!

– ولكنكم غادرتم بلادكم عندما احتلها الانكليز. الا يعني ذلك انكم تريدون فوز الالمان على الانكليز؟

– نحن لم نغادر بلادنا الى المانيا، بل الى تركيا المحايدة!

– ولماذا لا تتصلون هنا بالانكليز وتتفاهمون معهم، كما يتصل بعضكم بالالمان ويتعاون معهم؟

– من تعني بذلك؟

فصمت امين بك قليلا، ثم قال:

– لدينا معلومات تثبت ان بعضكم يدبر مؤامرات لا تمت الى القضية العربية بصلة، من شأنها التأثير على حياد تركيا والتشويش على شؤونها الداخلية!

وادركت من هذا الجواب سر اعتقالي، فقلت:

– لديكم معلومات ام وثائق؟

فأجاب: معلومات ووثائق!

- وهل تأكدتم من صدق هذه الوثائق ومن صحة تلك المعلومات؟

فأجاب: هذه مهمتنا!

وساد الصمت لحظة فعدت وسألته: اتريد ان تقول ان تلك المعلومات والوثائق موجهة ضدي؟

- ربما... لقد راقبنا حركاتك زمناً طويلا، فوجدناك كثير الحركة، كثير الاتصالات، ثم جاءت هذه الوثائق توجه اليك تهماً معينة، فلم يبق مفر من التحقيق فيها!

- وماذا تنتظرون للتحقيق معي؟

- لا لزوم للتحقيق معك انت. نحن نقوم الآن بالتحقيق اللازم من دونك.

- هل تستطيع ان تعين المصادر الاجنبية التي اعطتكم تلك الوثائق المرسومة؟

فصمت امين بك، ثم ابتسم واجاب:

- انظر، لقد عاد الثلج يهطل. سيكون البرد هائلا هذا العام. انا لا احسد الذين يحاربون الالمان في الجبهة الشرقية.

فقاطعته قائلا: ... والذين يقبعون في حجرات الاعتقال ايضاً.

صمت امين بك لحظة ثم سألني:

- هناك نقطة لا استطيع ان افهمها. لقد لاحظنا بين زائريك صحافياً يابانياً، وآخر فرنسياً، وثالثاً ايطالياً، ورابعاً المانياً، وخامساً اميركياً. وهناك ايضاً فتاة انكليزية، واخرى يونانية، وسيدة صربية، فكيف تستطيع ان تجمع بين جماعة ينتمون الى معسكرين متحاربين؟ ولماذا تفعل ذلك؟

- وماذا يهمني ما هم الآخرون، ومن هم؟ المهم هو انني اعرف نفسي، وسيان عندي اذا كان زائري انكليزياً ام المانياً، فليس ذلك مما يؤثر على موقفي وآرائي! اما علاقاتي معهم فهي اما صحافية او شخصية!

- هذا ما تقوله انت. ولكن هناك وثائق تقول العكس!

– انني اتحدى هذه الوثائق!

– وكيف تعرفت على الياباني؟

فابتسمت، اذ تذكرت امامي ذلك الياباني بقامته القصيرة، ورطانته الثقيلة وأجبت: في صباح عيد الاضحى قرع الباب واذا بالياباني يدخل ويقول: «السلام عليكم! انا اسمي محمد اينوموتو، واراسل جريدة «ازاهي شمبون» في طوكيو!». واعجبني في الحكاية ان يكون اسمه محمداً. فسألته عن اسلامه، فأجاب انه اسلم حديثا. وتذكرت في تلك اللحظة الحاج عبدالله فيلبي (*)، وتوسمت في اينوموتو تلميذه النجيب!

– الا تعرف ان اينوموتو رجل خطر ذو اتصالات خطرة؟

– سمعت شيئاً من ذلك. ولكن مثلي في الامر مثل احد المارة في الشارع، يستطيع ان يعرض نفسه للخطر اذا ما القى بنفسه امام احدى السيارات العابرة، وما دمت اسير على الرصيف فلا اخشى خطراً!

وساد الصمت بضع دقائق، ثم عاد امين بك الى الكلام:

– كان ينبغي لك ان تلتزم جانب الحذر، ولا ترضى بالتعرف على كل من اراد الاتصال بك. ثم جاءت الوثائق المدسوسة، فلم نر بدأ من التحقيق!

– انا لا اخشى الدس اذا كان يرافقه التحقيق!

– صحيح، فالتحقيق لم يثبت عليك شيئا حتى الآن. ومع ذلك فإنني اعتقد ان مصلحتك تقضي عليك بمغادرة هذه البلاد!

قلت: اهي نصيحة ام امر ام ايحاء؟

فأجاب: قد تكون هذا او ذاك. لا ادري، او بالاحرى لا ادري بعد. ولكنني استطيع ان اؤكد لك بأن «العين حمراء» عليك، وان بقاءك في استانبول لم يعد مقبولا في نظر بعضهم. واعتقد انك ستخرج قريبا من السجن، ولكنني اعتقد في الوقت نفسه انهم لن «يحلّوا» عنك. واذا كانت

(*) مستشرق وكاتب بريطاني، اسمه الاصلي هاري سانت جون فيلبي، عينته حكومته ممثلاً لها لدى الملك عبد العزيز آل سعود في الثلاثينات، فتقرب منه واعتنق الاسلام. انتقل الى بيروت في الخمسينات، حيث توفي عام ١٩٦٠ وهو والد العميل البريطاني – السوفياتي المزدوج كيم فيلبي

الوثائق هذه المرة لم تؤت الثمرة المرجوة، فإنهم قد يوفقون في المرة المقبلة الى احكام الحلقة، فخذ حذرك!

– هل لك ان تصارحني فتعين لي من تعني؟

– لقد ذهبت في الصراحة معك الى ابعد من الحد اللازم. نحن لا نريد ان نلحق بك وبرفاقك اي اذى، بل نود بالعكس ان نعامل اللاجئين العرب بأقصى ما يكون من التساهل. ولكن لا تنس اولاً اننا دولة محايدة، وثانياً انكم لستم محايدين ومهما حاولتم التنصل من هذه التهمة فإن نشاطكم السياسي قبل قدومكم الى هذه البلاد يفضي عليكم لوناً معيناً. انتم خصوم احد الطرفين المتحاربين، وان لم تكونوا حلفاء الطرف الآخر، وما دمتم لا تتمتعون بالحماية الرسمية من قبل احد الطرفين، فإننا نجد انفسنا مرغمين على الاذعان لكل طلب ملحٍ يوجه الينا من احدهما في صددكم، احتراماً لحيادنا.

وشعرت بأن في اقوال الرجل كثيرا من الحقيقة! فقد وشت بنا دولة اجنبية كما يزعمون فلم يتردد الاتراك في اعتقالنا اكراماً لها وليس للوشاية، ولم يتقدم احد للدفاع عنا، اذ لم يكن لنا دولة – يومئذ – ننتمي اليها، ولم يكن لنا ممثل ديبلوماسي يدافع عنا، ولم يكن بيننا وبين الطرف المحارب الآخر من العلاقات ما يبرر تدخله لدى الاتراك لمصلحتنا!

– وماذا تريدوننا اذن ان نفعل؟

– اما ان تغادروا بلادنا او تنتقلوا الى الاناضول، حيث تكونون بمعزل عن التيارات الاجنبية!

وتطلع امين بك الى ساعة الحائط، ثم نهض وقال:

– لا تنس ان الحديث الذي دار الآن بيني وبينك هو حديث شخصي لا علاقة له بالرسميات وبالتحقيق!

واتجه نحو خزانة كبيرة، واخرج منها بضعة كتب، فناولني اياها قائلا: خذها معك الى حجرتك، فإنها تساعدك على قتل الوقت!

ولما جاء الحارس ليرافقني قال له:

– اعطوا كامل بيه ما يطلب من كتب وصحف ومجلات، واسمحوا له ان يشتري ما يريد من الخارج!

* * *

يسدون الينا النصيحة بالذهاب، فأين نذهب؟ هذا هو السؤال الذي ظل يتردد في خاطري عند عودتي الى الحجرة بعد مقابلة امين بك. أنعود الى الوطن حيث تنتظرنا معسكرات الاعتقال، ام نسافر الى اوروبا حيث تنتظرنا الحرب؟ كلا ان المنافذ كلها موصدة في وجوهنا، فلا خير في سفر على كره، ولا بد من البقاء في تركيا اذا كنا نريد المحافظة على حيادنا، وتجنب العواصف. ولكن اذا كان البقاء يعني الانتقال الى الاناضول، فخير منه ان نضرب في ارض الله الواسعة، مهما عصفت الاقدار وتجهم الافق!

هبط الليل علينا وانا غارق في هذه الافكار، احدق الى الجدار كأن خريطة العالم منشورة عليه امامي. وخطر لي ان ارسم عليه خريطة، وان ادرس عليها ما اريد ان ادرسه، لولا ان سمعت صوت واصف يخترق الصمت، وينطلق منشداً بحنان وعذوبة:

عليك مني السلام يا ارض اجدادي

ففيك طاب المقام وطاب انشادي!

رد الله غربتك يا واصف! لقد كانت حياتك كلها مرحلة متواصلة من الجهاد، فلم تترك ناحية من نواحيه الا وخضت غمارها. ترى هل خطر لك ان اناشيدك في السجن كانت هي ايضاً نفحة من نفحات ذلك الجهاد؟

وما ان سمعت هذا الصوت، حتى نسيت امين بك، وتحذيرات امين بك، ونصائح امين بك، واصبحت الدنيا كلها في عيني تردد:

عليك مني السلام يا ارض اجدادي!

عليك مني السلام يا ارض اجدادي!

لم اذن القلق والتساؤل؟ سيان ان بقينا في استانبول، ام نزحنا الى الاناضول ام نفرنا الى اوروبا. اجل سيان ما دامت «ارض اجدادي» هي الوسيلة والغاية، ففي سبيلها يحلو كل شيء!

٧

■ استانبول، ٢٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢

ها قد مر علينا اسبوع كامل ونحن في السجن. وكنت اسمع حركات رفاقي دون ان اراهم. ومع ذلك فقد استطعت ان اتصل بهم، فعلمت انهم لم يستدعوا بعد لا الى التحقيق ولا الى «احاديث شخصية» كتلك التي خصوني بها.

اذن، لم هذا الاعتقال على ذمة التحقيق، ما داموا لا يحققون معنا؟ قال امين بك انهم يحققون في قضيتنا من دوننا. ألم يكن باستطاعتهم ان يجروا ذلك التحقيق ونحن احرار؟

* * *

يقول المثل: «كل شيء عادة، حتى العبادة». ولا ازعم انني اعتدت على حياة السجن، ولكنني اعتدت – على الاقل – على الناحية المادية منه، فلم يعد يضيمني ان اقضي سبعة ايام بلياليها بملابسي كاملة، وان اترك لحيتي طليقة، وشعري غير مسرح، وانا الذي كنت اعتقد لسبعة ايام خلت

ان الحياة تفقد الكثير من معناها اذا انحرفت «كسرة» البنطلون قليلا عن استقامتها!

* * *

في ساعة متأخرة من مساء اليوم السابع سمعت ضجة ووقع اقدام، فنهضت استرق النظر من شقوق الباب، فرأيت وجوهاً جديدة تساق الى السجن. ونقرت على الباب، فجاء الحارس، فقلت:

– أضيوف جدد؟

– نعم، افندم... ولو كنت محلك لشعرت اما بالقلق او بالطمأنينة!

– ولِمَ؟

– لأن قدوم طلائع هذا الفوج، يعني، ان فوجكم انهى مدته هنا بانتهاء التحقيق!

– أتعتقد اننا سنخرج غداً؟

– نعم، ولكن من يدري الى اين تخرجون؟ قد يطلقون سراحكم، ولكن قد ينقلونكم ايضاً الى السجن العادي!

كنت كما اسلفت قد اعتدت على حياة السجن، وانتظم قيامي ونومي فيه ولكن كلام الحارس جاء ينخر في دماغي كالوسواس الخناس: «غداً يتقرر مصيرنا... غدا الحرية او القيد... غداً البيت والمدفأة ولقيا زيد... كلا، غداً الاناضول وتكسير الحصى!»

■ **استانبول، ٢٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢**

عبثا حاولت النوم، فقد ظلت هذه الهواجس تتردد في خاطري حتى سمعت مؤذن مسجد السلطان سليمان المجاور لي يترنم بالتوحيد، فادركت ان الصباح قد اصبح ولما تغمض لي عين بعد

وجاء الحارس باكراً بالصحف، بعدما سمحوا لنا بها، فإذا بها تتضمن انباء خطيرة عن الزحف الياباني على سنغافورة، وعن الكرات الالمانية امام موسكو. ولكنني لم استطع ان اقرأ شيئاً منها، اذ كان بصري

«متسمرا» على الباب ينتظر المصير الموعود!

وانقضى القسم الاول من النهار وليس من جديد. ولكنني سمعت في الساعة الثالثة بعد الظهر وطء اقدام وحركة وضجة، فسارعت الى شق الباب فلم ار شيئاً الا ان الحارس كان واقفا امامه، يسده بظهره. ولم البث ان سمعت حركة القفل، فإذا بالباب ينفتح واذا برئيس الحراس عزيز بيه يقول:

– تفضل ارتد ملابسك وتهيأ لمرافقتي! ثم تذكر ان ملابسي لم تفارقني منذ دخولي السجن، فاستدرك قائلا:

– عفواً، اردت ان اقول لك ان تحلق ذقنك وتصلح هندامك. وسيرافقك الآن احد رجالنا الى المزين حيث تقص شعرك، والى «البوياجي» حيث تلمع حذاءك، والى المصور حيث تتصور!

لم اتمالك من الضحك عندما سمعت هذه التعليمات «الفنية» مشفوعة بابتسامة عريضة، وسألته:

– سنذهب الى العرس ام تريدون ارسال صورتي الى هوليوود؟

– جانم... توكل على الله!

قلت: ورفاقي؟

قال: توكل على الله ايضاً!

بعد دقائق معدودة من محاضرة عزيز بيه، كنت حاضرا للذهاب الى المزين والمساح والمصور. فجاء شرطي حديث السن، قصير القامة، يرافقني. وكنت اظن في البدء ان عملية الزينة ستجري داخل السجن. وكم كانت دهشتي عظيمة عندما وجدت ان الرفيق يقودني الى الطابق الادنى. ثم نخرج معا من الباب الحديدي الى الشارع!

الهواء الطلق! لن تعرف ايها القارئ معناه اذا لم تعرف السجن. لقد شعرت انني انتقل من عالم الى عالم، وكنت ارمق كلا من المارة لأقول له: «انظر اليّ، انا آت من عالم غير عالمك! هنئني بالخروج من بين الجدران الاربعة!».

ولكن لم اشأ ان اخدع نفسي، فإني لست حراً طليقا، وهذا الشرطي يسير الى جانبي، ولقد خطر لي في تلك اللحظة ما يخطر لكل من يمر عليه ما مر علي: مغافلة الحارس والفرار. ولكن الى اين الفرار وانا غريب شريد طريد في الاساس؟

وردنا على المزين، فخرجت من لدنه بعد نصف ساعة مزينا اطيب زينة. ثم مررنا على المساح، واذا بحذائي يلمع كوهج الشمس. واخيرا مررنا على المصور فالتقط لي الرسم المطلوب. وبعد قليل كنا نجتاز الشارع عائدين نحو دار البوليس المركزي، فمشينا ايابا الخطى التي مشيناها ذهابا، واذا بي اجد نفسي في الحجرة الضيقة بين الجدران الاربعة، وانا الذي كنت احسب نفسي ذاهبا الى عرس!

وكنت لا ازال تحت ضغط تلك النزهة القصيرة الى عالم الحرية، عندما فتح الباب، وأطل عزيز بك مرة اخرى قائلا:

– كامل بيه تفضل!

قلت: الى اين؟ الى العرس؟

فقهقه ضاحكا وقال:

– كلا، الى التحقيق!

اذن هناك تحقيق معنا؟ وتذكرت احاديثي مع امين بيه، وشعرت بسرور دافق يغمرني. اذ كنت اود من صميم الفؤاد ان يجري معنا تحقيق مباشر، فنضع النقاط على الحروف!

سرت مع عزيز بك خطوات خفيفة، ونزلنا من الطابع السابع الى الثاني، واذا بنا ندخل قاعة فخمة، وقد جلس فيها كهل قصير القامة، ابيض الشعر، انيق الملبس وليس في مظهره ما يدل على انه مستنطق. واستقبلني الرجل بابتسامة عريضة، وصافحني بحرارة، وجلست الى جانبه ثم قال: انت لا تعرف من التركية كفاية، فلنتحدث اذن بالالمانية!

قلت: حسنا! أحضرتك المحقق؟

قال: كلا، ولكنني لن اقول لك من انا. انما اود قبل ان ابدأ الحديث

معك ان اعلمك انك ستغادر السجن اليوم وتعود طليقا. اعندك مانع من القبول؟

رحت اتأمل بهذا المحقق الذي يقوم بدور المحقق من دون ان يكون محققاً. وادرك الرجل ما يجول في خاطري، فقال:

- لقد اطلعت على تقرير واف عن تصرفاتك في تركيا، واستخلصت منها انك وطني عامل، ولكنك متطرف الى حد لا يتلاءم مع حياد تركيا!

واعتصمت بالصمت، اذ لم اشأ ان اخوض معه في بحث عقيم، ورحت اتأمل بخريطة للعالم معلقة على الحائط. فراح هو ايضاً - وتبين ان اسمه جلال بيه - يتأمل بها، وقال:

- ما رأيك، من يربح الحرب؟ المانيا ام بريطانيا؟

قلت: العلم عند الله، وعند المطلعين على خفايا الامور، فما رأيك انت؟

قال: اعتقد ان كفة الانكليز هي الراجحة في الوقت الحاضر، رغم دخول اليابان الحرب الى جانب المحور.

قلت: والى مَ تستند في رأيك؟

قال: المال! المال هو عصب الحرب ويأتي بعده الذكاء. واعتقد ان الالمان لو كانوا اذكياء لربحوا الحرب منذ عدة اشهر. وما داموا لم يربحوها في سنتي ١٩٤٠ و١٩٤١، فإنهم لن يربحوها في العام المقبل وما بعده!

وسكت، ثم استطرد قائلا:

- وماذا يكون وضع العالم العربي في حال فوز هذا الجانب او ذاك؟

قلت: نحن طلاب استقلال، سواء افاز هذا ام ذاك!

فضحك وقال: ونحن ايضاً طلاب استقلال، ولكن مصير بلادنا لا يتوقف - الى حد كبير - على رغبتنا، فهناك الدول الكبرى ومصالحها في الشرق الاوسط. وهناك نقطة استفهام قائمة في الشمال (واشار باصبعه على الخريطة الى موسكو) لا يعرف احد سرها..!

وصمت الرجل لحظة، ثم قال:

- لو لم يهاجم الالمان روسيا لكان الجيل الحاضر في الشرق الادنى

انهى عمره بسلام. اما وقد فارت الدبابير الان، فإنني اعتقد اننا سنشهد مع هذه الحرب، او بنهايتها، خضة جديدة تهز كياننا .

وحدق الرجل فيّ لحظة، وقال:

– وكيانكم انتم ايضاً!

ولا تزال كلمات جلال بك ترن في اذني. وقد حققت الايام نبوءته، فإذا بهذا الجيل يشهد الخضة الموعودة، واذا بشرقنا يتحول الآن الى ميدان آخر للصراع بين الروس والانكلوسكسون، يهز كياننا هزاً عنيفاً

ولا بد لي ان اذكر بأن الاتراك كانوا اكثر وعيا من العرب لحقائق السياسة الدولية في هذه الحرب. وما اجتمعت بأحد رجالهم في اقامتي الاولى في تركيا في ١٩٤١، ثم في اقامتي الثانية فيها في اواخر سنة ١٩٤٤، الا وحدثني عن الحالة الدولية حديثاً معقولا يشبه ما قاله جلال بك. ويعزى الفضل في ذلك الى ان الاتراك يؤلفون منذ زمن طويل دولة ذات كيان دولي معترف به وذات سياسة خارجية. اما نحن فقد قضينا ربع القرن الماضي ونحن نناضل ضد الدول الاجنبية لكي نتمكن من تعيين ناطورنا – على الاقل – بأنفسنا، فلم يترك لنا نضالنا متسعاً من الوقت للعناية بالشؤون الخارجية الا من خلال منظار باريس ولندن، ومن خلال اقوال الصحف. اما وقد اصبح العرب الآن دولا مستقلة ذات صلات دولية وسياسة خارجية فإنني اتوقع ان يزداد الوعي الشعبي تقديراً لحقائق السياسة الدولية، وان يدرك رجل الشارع ان رغيفه اليومي مقيد باحداث تجري على بعد آلاف الاميال منه اكثر مما هو مقيد بسراي البرج مثلا!

قال جلال بك: جاء الآن دور التحقيق!

وصفق بكفيه، فدخل علينا كاتب يحمل ملفاً، فتناول منه جلال بك ورقة وراح يتلو عليّ الاسئلة المعهودة: اسمك، عمرك، ابوك، الخ.

وراح يلقي اسئلة عليّ تتعلق بحركاتي وسكناتي في تركيا، ثم يملي عليّ بالنيابة عني اجوبة مناسبة. ولاحظ انني ابتسم فقال:

– الاجراءات هي الاجراءات يا بني، ولا بد من اتمام هذه المعاملة!

وفي اقل من خمس دقائق كان التحقيق قد انتهى وهنا التفت اليّ وقال:

– انا بحاجة اليك... يجب ان تتولى مهمة الترجمة بيني وبين رفاقك!

قلت: ومتى كان يجوز للمتهم ان يحضر التحقيق مع متهمين آخرين ويسمع اقوالهم؟

فحدجني بنظرة ابوية ولم يجب شيئاً ثم ضغط على الجرس، وطلب استقدام الرفاق فجاؤوا اولاً بالرفيق محي الدين الطويل. وبعد اجراء تحقيق آخر معه على طراز التحقيق الشكلي معي، جيء بالرفيق واصف كمال. وعندئذ قال جلال بك:

– اذهبوا الآن الى حجراتكم، ولعلنا ننتهي قبل المساء من طبع الاوراق وتوقيعها، فتقضون الليلة في اسرتكم وفي بيوتكم!

■ **استانبول، ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢**

لن اطيل الشرح على القارىء، فبعد انتهاء التحقيق عادوا بنا الى حجراتنا، واقفلوا علينا الابواب. وفي الساعة الثامنة والنصف مساء عادوا ففتحوا هذه الابواب، وجاء رئيس الحراس عزيز بيه يقول:

– انتم احرار!

والقيت نظرة الوداع على الجدران الاربعة التي آوتني طيلة ثمانية ايام، وخرجت مع الرفاق بخطوات ثقيلة. واذا بنا بعد لحظات احرار في عرض الشارع.

ومرت موجة الوجوم الاولى، تبادلنا النظرات فالابتسامات فالقبلات وراح كل منا يروي مغامراته في السجن كأنما كنا نجوب الفيافي والقفار!

وقضيت تلك الليلة، ليلة ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢ في سريري، بعد ان تمتعت بنعمة الاستحمام واستمطرت شآبيب الرحمة على الذي اخترع الصابون والكولونيا. على ان النوم تمرد عليّ، لا لأن الهواجس تشغل دماغي، بل لأن اضلاعي تعودت على سرير السجن القاسي، فلم

ترتاح على الفراش الوثير!

منذ الصباح الباكر تدفق الاخوان العرب علينا يستفسرون ويستفهمون ويهنئون، وراحوا ينقلون الينا ما انتشر في استانبول من الشائعات الغريبة المتضاربة عنا وعن مصيرنا.

وذهبت قبيل الظهر ازور احد كبار المغتربين في فندق «بيرابالاس». وبينما انا انتظره شعرت بيد تربت على كتفي، فالتفت فإذا بي ارى امامي... المسيو شامبار. اجل شامبار، ديكتاتور الصحافة في سورية ولبنان في عهد فيشي، الذي اعتقله الانكليز بعد احتلال بلادنا. وكانت مفاجأة غير منتظرة. فانتحينا زاوية من قاعة الاستقبال، وراح يحدثني عن اعتقاله في عكار وعن اقامته الجبرية في صيدا، ثم عن اطلاق سراحه وسفره الآن الى فرنسا مع المسيو كونتي مدير المكتب السياسي

وسألت شامبار اذا كان قد سمع شيئا عنا في البلاد، فابتسم، واخرج من جيبه نسخة من جريدة «لا سيري» المحترمة، واذا بها تنشر برقية عن اعتقالنا، تفيض باللؤم والدس والتلفيق، فلم يدهشني ان تحافظ «لا سيري» على تقاليدها المأثورة!

قلت: والحالة في البلاد؟

قال: ليس في البلاد حالة. فيها احتلال، وفيها جو حرب!

قلت: ولم خسرت فيشي المعركة؟

– لم يكن لدينا رجال ولا عتاد. ولو كان لدينا عتاد ثقيل لكنا احتللنا القدس قبل ان يحتل الانكليز مرجعيون!

– أصحيح ان الالمان مدوكم بالمساعدات العسكرية!

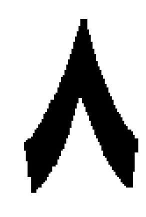
– نعم، مدونا بخبير اسمه «ران»، غايته الوحيدة سفك اكبر كمية ممكنة من الدماء الفرنسية ضد الانكليز!

– ولم حاربتم اذن؟

– لقد جاء الامر من المارشال بيتان ونحن نؤمن باخلاص المارشال. واعتقد اننا لو لم نحارب لاتخذ الالمان تدابير انتقامية شديدة بحق الوطن

الفرنسي. نحن لم نحارب في سورية اكراماً لهتلر كما يقولون، بل دفاعاً عن مصالح فرنسا العليا.

واستفاض الشاب في الدفاع عن مسلك (المفوض السامي الفرنسي) الجنرال دانتز (الموالي لحكومة فيشي والذي خُلع بعد دخول الديغوليين بيروت في حزيران / يونيو ١٩٤١)، الى ان نزل الشخص الذي كنت انتظر، فودعته شاكراً، على ان اراه قبل سفره الى فرنسا.



■ استانبول، ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢

لم تنسني حريتي التحذير المباشر الذي صارحني به مدير الشعبة السياسية امين بك في السجن. لقد انذرونا بمغادرة تركيا اذا كنا نريد تجنب الوقوع في ما هو اشد وادهى. ولو كان هذا الانذار صادراً عن الاتراك وحدهم، لما عدمنا وسيلة لندبر الأمر. ولكن الرجل قال بصراحة ان حكومته لن تستطيع ان ترد طلب الانكليز مثلا، اذا ما رغبوا اليها في اعتقالنا مجدداً او اخراجنا من البلاد.

ولقد ادهشني ان يطلق الاتراك سراحنا بلا قيد ولا شرط، فقررت ان اجلو النقطة الغامضة، وذهبت ظهراً الى بيت مدير الشعبة السياسية استفسره عن الحقيقة، فأجابني:

– القضية لا تحتاج الى ايضاح. لقد رفعنا تقريراً بنتيجة التحقيق معكم وارسلناه الى انقره، ولها ان تقرر مصيركم كما تشاء!

– اذن لم تنته قضيتنا بعد؟

– لا اعتقد!

لم اشأ ان اشغل بالي بالنتيجة، فقررت ان اكتفي بالانتظار، وعدت استأنف حياتي العادية كالسابق.

وكانت الحرب الروسية – الالمانية قد وصلت يومئذ الى نهاية مرحلتها الاولى، فوصل الالمان الى ضواحي موسكو، واضطروا الى التوقف امامها ثم لم يلبث الروس حتى كروا عليهم وارغموهم الى التراجع في عدة مواقع.

وكان الهجوم الياباني يومئذ على سنغافورة يتطور بسرعة، ومع ذلك فإن الاتراك كانوا منصرفين عنه الى متابعة مجرى القتال في روسيا. لقد ساءهم ان يكتسح الالمان السهول الروسية بهذه السرعة، وان يبلغوا ضواحي موسكو في اقل من خمسة اشهر، لأنهم كانوا يعتقدون ان انتهاء الحرب بسرعة في روسيا لصالح الالمان يجر بلادهم الى الحرب حتما، اذ يحاول الظافر عندئذ ان يغزو الشرق الادنى عن طريق تركيا. لذلك استقبلوا وقف الزحف الالماني امام موسكو بغبطة ظاهرة. ولكن هذه الغبطة كانت مشفوعة بشعاع من القلق الخفي من قوة روسيا. لقد وجه الالمان ضربات قاصمة الى الجيش الاحمر في سلسلة المعارك الجبارة التي وقعت في بيالوستوك وكييف وخاركوف، وتوهم الكثيرون ان القوة السوفياتية تزعزعت، ولن تستطيع الصمود في وجه الدفعة الالمانية الجبارة على موسكو. وقال الكثيرون ان الشتاء المبكر كان السبب الرئيسي في ذلك، وهذا صحيح الى حد كبير. ولكن اذا كان الشتاء قد اوقف الالمان فإنه لم يمد الروس بتلك القوى الجرارة التي بدأت تكر على الالمان على طول الجبهة. اذن فالروس هم اقوى مما يتوهم العالم عامة، والاتراك خاصة. واذا كان بين الدول كلها دولة يهمها مصير روسيا، فهي تركيا. لذلك راح الاتراك ينظرون الى الكرات الروسية بعين الحذر واليقظة متسائلين: اذا كان فوز الالمان يعني زجنا في الحرب، فما يعني فوز الروس؟ وكيف يتطور الموقف غداً، اذا ما كسح الروس الالمان، وزال الجيش الالماني، واصبح الجيش الاحمر وحده سيد الميدان؟ وماذا يكون مصير تركيا عندئذ؟

جلست في مساء ذلك اليوم استمع الى زميل تركي يحلل الموقف العسكري والسياسي على الشكل الذي ذكرت، ويقول:

– ليس في الدنيا حياد غريب الشكل كحياد تركيا. نحن محايدون في حرب يتجه فيها الطرفان نحونا. فحيادنا ناشيء لا عن رغبتنا فيه، بل عن انهماك احد الطرفين بالآخر، ومتى اسفر العراك عن هزيمة احدهما يأتي دورنا. ومع ذلك فنحن محايدون!

■ **استانبول، ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢**

ها قد مر زهاء اسبوع على خروجنا من السجن، نسيت خلاله ان مصيري معلق في كفة القدر. ولكن هذا القدر عاد يذكرني بحكمه بأسرع مما كنت اتوقع ليخطو بي الخطوة الحاسمة نحو برلين!

كنت اتناول طعام الغداء على مائدة الاخ رشاد بربير عندما وفد علينا شرطي يحمل الينا دعوة لزيارة البوليس المركزي مرة اخرى. وجلس حضرته على المقعد ينتظرنا، قائلا انه لا مبرر للعجلة قط. وفي الساعة الثانية ركبنا سيارة الى دار البوليس، ودخلناها هذه المرة بخطى خفيفة بعد ان تمرسنا على ذلك في الاسبوع الماضي!

توهمت في البدء ان الدعوة موجهة اليّ والى رشاد وحدنا، اذ جلسنا في غرفة الانتظار زهاء الساعة دون ان نرى احداً غيرنا. ولكن لم نلبث حتى رأينا الرفاق يردون الواحد تلو الآخر، فما كادت عقارب الساعة تبلغ الرابعة حتى كانت القاعة تضم عدداً وافراً من المغتربين العرب في استانبول. ولا بد من الملاحظة بأن عدد هؤلاء المغتربين كان قد تناقص كثيراً خلال الاسبوعين الاخيرين، اذ سافر زهاء خمسين شخصاً منهم الى اوروبا، فلم يبق في تركيا اكثر من عشرين لاجئاً.

وطال وقت الانتظار، حتى اذا بلغت الساعة السادسة اطل علينا رئيس الخفراء عزيز بيه – صاحب السجن – مناديا:

– كامل بيه، فاسيف بيه...

ونهضت وواصف، ولحقنا به الى مكتب مدير البوليس المركزي العام، فاستقبلنا بحفاوة دلت على ان الرجل يحمل الينا نبأ مشؤوماً. ولم يلبث ان تنحنح وقال:

- لقد ارسلنا اوراقكما الى انقره على اثر اعتقالكما في الاسبوع الماضي. ويسرني ان اقول لكما ان النتيجة كانت حسنة من حيث علاقتكما بتركيا، اذ لم نجد في تصرفاتكما ما يتصل بها مباشرة. ومع ذلك فإن وزارة الداخلية ارتأت لأسباب ليس لي ان اناقشها ان ادعوكما لمغادرة تركيا في خلال اسبوع واحد!

اذن، فهذه هي النتيجة التي مهد لها امين بيه في الاسبوع الماضي. وتبادلت النظرات مع واصف، وقلت:

- اهذا القرار مبرم؟

- انه صادر عن مجلس الوزراء، وهو يتناول خمسة عشر عربياً.

- وهل تعتبرون هذا التبليغ موجها لنا وحدنا ام للجميع؟

- كلا، انه موجه اليكما وحدكما، وهناك من يتولى الآن ابلاغ القرار الى الآخرين. وانما اردت ان ابلغه اليكما بنفسي بصورة خاصة، لأنني اعتبر قضيتكما تختلف في الاساس عن قضية الآخرين!

وحاولت ان اناقشه في القرار، فأجابني: انا موظف ينفذ الاوامر العليا، فليس باستطاعتي ان اناقش هذه الاوامر. انما اترك لكم وللآخرين الخيار في جهة الخروج من تركيا، اذ تستطيعون ان تعودوا الى بلادكم اذا شئتم، او تسافروا نحو الغرب. اتعرفان رشيد عالي؟

قلنا: طبعاً نعرفه!

قال: ان فراره كان السبب في تبدل موقف انقره منكم جميعاً، اذ ضغطت علينا دول معينة ضغطاً شديدا، فلم يعد باستطاعتنا ان نغمض اعيننا عن تصرفاتكم ولو لم تكن اعمالكم موجهة ضد تركيا نفسها.

وضرب الرجل بقبضة يده على الطاولة وبدت على وجهه علائم التأثر، واستطرد قائلا:

– لقد كدت اخسر منصبي بسبب رشيد عالي... انا الذي اخدم الدولة منذ ثلاثين عاماً. اتعرفون كيف هرب؟

قلنا: لا!

وسكت الرجل لحظة، فاغتنمت الفرصة للتفكير في كلماته، وساءلت نفسي اذا كان يعني حقا ما يقول، ام يتظاهر بالجهل، ولعله ادرك ما يجول في خاطري، فنهض فجأة، ومد يده الينا مصافحا، وقال:

– هوذا الشرطي محمد يرافقكما الآن الى داخل الدار لاكمال معاملات التبليغ، ومتى انتهت، تعودان احرارا، على ان تغادرا البلاد بعد اسبوع واحد تماما!

اذن فقد دقت ساعة الرحيل... ذلك هو الهاجس الذي كان يتردد في خاطري وانا خارج مع الاخ واصف كمال من غرفة مدير البوليس، الى حيث تجري معاملات التسجيل.

وقادنا الشرطي الدليل من غرفة الى غرفة، فكانوا يسجلون ويقيدون ويصورون، حتى تجاوزت الساعة الحادية عشرة ليلا، واخيرا قال الشرطي:

– لقد انتهت المعاملات الان، وسنرسل اليكم غدا شرطياً يساعدكم على الاستحصال على اجازات السفر الى حيث تريدون. والآن تستطيعون الخروج احرارا اذا قدمتم لنا كفيلا يضمن عودتكم الى هنا بعد اسبوع تماماً، لكي تغادروا البلاد!

يريدون منا كفيلا في منتصف الليل؟ ومن اين نأتي بالكفيل في مثل هذه الساعة المتأخرة؟ وعبثا حاولنا افهام الشرطي ان طلبه غير معقول، فقد اصر على تنفيذ الاوامر بحرفها في غياب رؤسائه، وطلب منا ان نقضي ليلتنا في المخفر الى ان يصبح الغد، فيأتي رؤساؤه او نجد الكفيل! وهكذا قضينا تلك الليلة في غرفة التحقيق جلوسا على الكراسي، نتسامر مع الشرطي، هذا اذا كان التثاؤب والتعذير يعد سمراً!

وشعر الشرطي بالملل يسود الجو، فغاب لحظة، ثم عاد الينا بشاب نحيل اصفر اللون، قائلا:

– هذا موقوف، جئت به اليكم لتتحدثوا معه!

واذا به يهودي آت من المانيا، دخل الى تركيا بلا جواز، فاعتقله الاتراك في استانبول ريثما تصله الـ «فيزا» للدخول الى سورية. وراح الرجل يحدثنا عن مغامراته من برلين الى استانبول، ويسألنا عن الفندق الذي يجب ان يحل فيه عند وصوله الى بيروت. فهز واصف رأسه وقال:

– سبحان الله! هوذا يهودي هارب من اوروبا الى سورية، وهوذا عربي هارب من سورية الى اوروبا، وكلاهما يلتقيان في هذه الحجرة. ما اغرب القدر واحكامه!

■ استانبول، ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢

دبرنا الكفيل في الصباح، وعدنا احرارا لمدة اسبوع. بقي علينا ان نقرر وجهة السفر. انعود الى سورية ام نسافر الى اوروبا؟

تلك كانت لحظة تاريخية في حياتي، عندما جلست على شرفة «كازينو تقسيم» البلدي، اتأمل في مياه البوسفور يعصف بها ريح بارد آت من البحر الاسود، واضع قراري النهائي.

بيروت ام برلين؟ الانكليز ام الالمان؟

فكرت طويلا وطويلا في الامر، فاستقرت عندي القناعة بألا اعود الى بيروت، والا اذهب الى برلين. لقد غادرت بلادي طوعاً، حرصاً على حريتي. فهل يعقل ان اضع هذه الحرية في القيد من تلقاء نفسي؟ كلا، لن اذهب لا الى بيروت ولا الى برلين، بل الى بلد استطيع ان احتفظ فيه بحريتي طليقة من كل قيد، ولكن اين هو هذا البلد؟

استعرضت كل ما بقي امامي من ابواب مفتوحة، ثم نهضت فجأة عن الكرسي وقلت ما قاله ارخميدس عندما اكتشف ضالته:

– لقد وجدتها... لقد وجدتها!

اجل، لن اذهب الى بيروت، ولا الى برلين، بل الى دكار، عاصمة السنغال. فقد عرفت دكار في رحلتي الافريقية في سنة ١٩٣٨، ولي فيها

اخوان واصدقاء وانسباء.

وكان الثلج يغطي استانبول بكثافة فتصورته يذوب من خلال نظرتي وينكشف عن رمال تلمع تحت وهج الشمس، كأن لم يكُ بيني وبين دكار، غير تلك النظرة!

٩

■ **استانبول، ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٢**

شمرت عن ساعد الحزم والعزم، ورحت اسعى للحصول على السمات اللازمة للسفر الى دكار.

وكنت احمل – كغيري من اللبنانيين والسوريين – جوازات صادرة عن «المفوض السامي الفرنسي»، اذ لم تكن لنا بعد دولة مستقلة، فكانت السفارة الفرنسية المعتمدية الاجنبية التي نستند عليها شرعياً. وكان جوازي قد امتلأ قبل بضعة اسابيع، فذهبت استبدله بغيره من القنصلية الفرنسية، فاعطتني بدل جوازي اللبناني جوازاً فرنسياً، كان له فضل كبير في تسهيل حركاتي ورحلاتي في اوروبا فيما بعد.

حملت جوازي ورحت الى القنصلية الفرنسية اطلب «فيزا» الى دكار، فابتسم القنصل ابتسامة لم افهمها في البدء ثم قال:

– لا نستطيع اعطاءك الـ «فيزا» الى دكار قبل استشارة فيشي، فيجب عليك ان تنتظر. ثم ان السفر الى دكار يقتضي السفر الى مرسيليا،

والسفر الى مرسيليا يقتضي اجتياز بلغاريا ويوغوسلافيا وايطاليا، فعليك اذن ان تستحصل على «تأشيرات» بلغارية والمانية وايطالية اولاً والعادة ان يحصل الطالب على هذه التأشيرات في مهلة ثلاثة اشهر، وانت تريد السفر في اسبوع، فكيف توفق بين هذه الضرورات؟

ورحنا ندرس الموضوع من جميع جهاته، الى ان قال القنصل:

– خير لك ان تذهب الى بلغاريا، فتقيم فيها بانتظار التأشيرات المطلوبة. واعتقد ان البلغار لن يعارضوا في اعطائك «فيزا» الدخول ما دمت تحمل جوازاً فرنسياً.

وبعد بضع دقائق كنت جالساً امام الملحق الصحافي في المفوضية البلغارية، السيد ماتوف، ابسط له قضيتي، فأجابني:

– لا مانع عندنا من اعطائك الـ «فيزا» ولكن لا تنس ان بلغاريا دخلت الحرب منذ بضعة اسابيع، وان الجيش الالماني يحتل بلادنا، فليس باستطاعتنا اعطاء السمة دون موافقة الالمان. فاما ان تستحصل على كتاب من السفارة الالمانية او تستحصل على «فيزا» المانية فنعطيك فوراً ما تطلب!

اذن لا مفر من مراجعة الالمان، مع انني اردت السفر الى دكار لكي اتجنب الانكليز والالمان.

ذهبت الى دار السفارة الالمانية في شارع اياس باشا وملأت طلب الـ «فيزا» ولما قرأه الكاتب التركي، ضحك ضحكة عريضة وقال:

– تريد الحصول على الجواب في مهلة اسبوع؟ هل نسيت ان هذا الطلب سيذهب الى بيروت، وان الجواب يرد عادة في مهلة تتراوح بين الشهرين والسنة؟

– اذن ما العمل، والاتراك لا يصبرون علينا اكثر من اسبوع، فإذا مر الاسبوع ولم نغادر البلاد اعتقلونا واعادونا الى الحدود التي دخلنا منها؟

– راجع الدائرة السياسية، فلعلها تتوسط لك، او تبرق الى برلين فيأتي الجواب في ساعات. هناك رفاق آخرون لك طلبوا السفر الى المانيا امس، فوافق (السفير الالماني) البارون فون بابن على اعطائهم الـ «فيزا» في

الحال. ولكنك تطلب السفر الى دكار، وليس في هذا الطلب ما يرضي الالمان، لذلك استصعب ان تعطى سمة المرور بالسهولة التي تتصور!

وكان يدير القنصلية يومئذ الدكتور زايلر قنصل المانيا السابق في بيروت، يساعده هر «شابو روج» الذي عرفته اوساط بيروت الاجتماعية قبل الحرب معرفة وثيقة فقررت ان استنجد بهما على حل مشكلتي.

■ **استانبول، ٥ شباط (فبراير) ١٩٤٢**

بعد جهود استغرقت اسبوعاً كاملا، وبعد مباحثات ومراجعات ووساطات، وفقت الى الحصول على الـ «فيزا» الالمانية، فنلت على الاثر الـ «فيزا» البلغارية، وانا مصمم على الاقامة في صوفيا عاصمة بلغاريا الى ان تأتيني «فيزا» دكار، فأتابع السفر اليها بطريق مرسيليا.

ورحت احزم حقائبي، واستعد للسفر، وكان موعده السادس من شباط (فبراير). ولكن الثلوج قطعت الطريق، فمدد البوليس موعد سفرنا الى التاسع منه.

■ **استانبول، ٨ شباط (فبراير) ١٩٤٢**

«بكره السفر... بكره... بكره». اغنية من اغاني الآنسة ام كلثوم، كان يرددها الصديق الاستاذ اكرم زعيتر كلما تذكر سهرته الاخيرة في بغداد مع المجاهد الزعيم فوزي القاوقجي.

وفي هذه الليلة الاخيرة في استانبول راح اكرم يردد، ونحن نردد معه: بكره السفر، بكره، بكره!

لقد شعرت بغصة في القلب وانا ادخل سريري في تلك الليلة الاخيرة.

غداً نبارح استانبول بعد ان قضينا فيها سبعة اشهر ونيف. غداً ابارحها وضميري مرتاح الى ما قمت به خلال تلك المدة من واجباتي الوطنية ضمن نطاق مهنتي وامكاني، اذ لم اترك فرصة تمر دون ان اغذي بها الصحف والشركات البرقية على اختلاف انواعها بالانباء والمعلومات

التي تدعم القضية العربية، ولم اترك شخصية تركية او محورية او حليفة الا واتصلت بها. وما دام ضميري مرتاحاً، فسيان عندي ان اغادر تركيا طوعاً او قسراً، ففي غيرها ايضاً متسع للخدمة الوطنية!

واغمضت عيني في تلك الليلة، وصدى الاغنية يتردد في اذني:

بكره السفر.. بكره، بكره!

■ استانبول، ٩ شباط (فبراير) ١٩٤٢

اليوم يوم السفر. منذ الصباح الباكر ارسلنا الحقائب الى المحطة، واكملنا معاملات الخروج، ورحنا نودع الاخوان والخلان عندما وصلنا الى استانبول لسبعة اشهر خلت، كانت المدينة تعج بالمغتربين العرب، اما اليوم فلم يبق منهم سوى نفر قليل يعد على الاصابع، اذ سافر الباقون الى اوروبا.

ومنذ الساعة السادسة مساء اجتمعنا في فناء المحطة ننتظر القطار. كنا تسعة، يجمعنا الحاضر ويدفع بنا دفعة واحدة نحو فوهة القارة الاوروبية الملتهبة، وقد التفت حول كل منا علامة استفهام طويلة، تشمل كل شيء!

اقلع القطار من محطة «سير كجي» في الساعة الثامنة تماما، وسط عاصفة ثلجية بعد ان ودع استانبول بصفرة طويلة، حملتها تحية زكية، وزفرة حرى صادرة عن قلب يزخر ويعمر بالذكريات. على ان انطلاق القطار في تلك اللحظة كشف لي عن حقيقة مؤلمة لم تكن تخطر ببالي قبلا وانا مقيم مستقر في «دار السعادة»، ذلك ان كل دورة تدورها الارض بعد الآن تبعدني خطوة اخرى عن ارض بلادي، وتقربني خطوة اخرى من عالم غريب، ليس بيني وبينه معرفة ولا ود، وان كنت قد قرأت الكثير عنه.

على ان عزم الشباب بدد وحي تلك الهواجس، فرحت ألقي نظرة الوداع على انوار استانبول، وهي تغيب الواحدة تلو الاخرى وراءنا، ثم لا تلبث حتى نراها تتلألأ من جديد على وجه البوسفور، لتعود وتغور في

جوفه. وداعا يا استانبول وداعا لا لقاء بعده!

وتذكرت وانا متكىء على حافة النافذة ارافق ظل القطار في انسيابه، قول شاعرنا: «مشيناها خطى كتبت علينا...» فاستولت عليّ سحابة من الكآبة ثم تصورت ان شاعرنا مشى الخطى على قدميه، وانا اركبها ركوبا في قطار مريح دافىء سريع، فأضحكني هذا الخاطر، واعادني من جو الخيال والعاطفة الى جو الواقع!

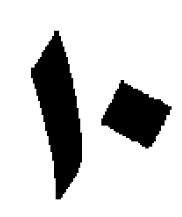
جلسنا نتسامر، وحاولنا ان نلطف الجو بالمزاح، بالاحاديث، بل وبالجدل، فلم نفلح، اذ كان في نفس كل منا ما يدعوه الى السكوت، وفي ذهنه ما يشغله عن الثرثرة والهزل.

لا ادري بماذا كان يفكر رفقائي، ولم احاول ان اسأل. ولكنني اليوم وانا جالس اكتب هذه الكلمات، اسائل الاقدار اين طوحت بهم. ترى هل كانوا يحلمون يومئذ بما خبأه لهم القدر من عناء وهم وتهلكة؟ وهل كانوا يستسلمون للمستقبل المجهول لو عرفوا، بذلك الاطمئنان الذي واجهوه به؟

انني استعرض الآن امام عيني ما حل بنا - نحن التسعة - منذ ذلك الحين، واتتبع الخطوات التي كتب على كل منا ان يمشيها، كل في طريقه واتجاهه، فأرى كيف استحالت تلك الأصابع القليلة التي كانت تفصل فيما بيننا على مقاعد القطار الى آلاف الاميال!

ها أنذا عدت الى بلادي، اما الباقون فأين هم اليوم (سنة ١٩٤٦)؟ الشيخ حسن ابو السعود منفي في جزر سيشل، ومعه موسى الحسيني ايضاً، واصف كمال لا يزال في مكان ما في اوروبا، محيي الدين الطويل في بلغاريا، رشاد البربير في المنطقة الاميركية من المانيا، محمد المغربي في فيينا، جورج معلوف في ايطاليا، خليل محمد في فرنسا.

ومع ذلك، فقد كنا في تلك الليلة جالسين الواحد الى جانب الآخر، في حجرة لا يزيد طولها على المتر ونصف المتر، نحاول ان نفرض النوم على انفسنا، فتتمرد حواسنا وتأبى الا ان تتيه بين امس لا ندري اذا كنا سنبكي عليه، وبين غد لا نتميز من ظلمائه شعاعاً!



■ الحدود التركية – البلغارية، ٩ شباط (فبراير) ١٩٤٢

القطار يجتاز الآن المنطقة العسكرية، وهي حرام على الاجانب والغرباء، وتمتد طول مقاطعة تراقيا التركية من ضواحي استانبول حتى الحدود البلغارية والجنود يحرسون مداخل العربات المخصصة للركاب الاجانب ومخارجها، والظلمة السائدة على جانبي القطار تحول دون رؤية شيء.

ومع ذلك فقد كنا نسمع صهيل الخيول وهدير محركات الدبابات. ولا عجب فقد حشد الاتراك يومئذ في هذه البقعة الضيقة ربع مليون جندي، يؤلفون خط الدفاع الاول عن استانبول، ضد هجوم الماني طارىء من جهة اليونان وبلغاريا. وقد حدثني ضابط تركي ان القيادة التركية العليا كانت تعتزم يومئذ اشغال العدو بضعة ايام – اذا امكن – في سهول تراقيا، الى ان يتسنى للجيوش التركية وللدوائر التركية الانسحاب من استانبول، والاعتصام بجبال الاناضول. وكان مفروضا الا يدافع الاتراك عن مدينة

استانبول نفسها خشية تدميرها.

وكان السفر بين استانبول وبلغاريا يجري قبل الحرب بالخط الحديدي مباشرة ولكن الاتراك نسفوا الجسر القائم على نهر الماريتزا على حدود اليونان عندما احتل الالمان تلك البلاد في سنة ١٩٤١ خشية ان يتابعوا زحفهم على تركيا. وبذلك انقطعت المواصلات الحديدية، فأصبح المسافر يركب القطار من استانبول الى محطة «بابا اسكي» القريبة من ادرنة، ومن هناك يركب السيارة الى الحدود البلغارية، حيث يعود الى ركوب القطار.

قضينا الليل بين يقظة وغفوة، حتى اذا اصبح الصباح بلغ القطار محطة بابا اسكي وهي آخر محطاته، فغادرناه. ووجدنا امام المحطة سيارتين كبيرتين (اوتوبيس) فخضنا في الوحول حتى بلغناهما. وبعد مساومة على اجرة واخذ ورد، احتللنا مقاعدنا، وانطلقت السيارتان في اتجاه ادرنة، ترافق القافلة سيارة عسكرية، وفقاً للاصول.

بلغت قافلتنا ادرنة عند الظهر، وتوقفت امام مخفر الشرطة لاستكمال معاملات الخروج، فاغتنمت الفرصة ورحت اتجول في ارجائها، بينما كانت قصيدة شوقي فيها تتردد في خاطري:

بعت العدو بكل شبر مهجة
وكذا يباع الملك حين يرام

حتى حواك مقابراً وحويته
جثثاً فلا غبن ولا استسلام!

حقاً لقد قضت الحروب البلقانية على ادرنة، فلم تترك فيها الا مقابر، هذه هي مقابرها المنتشرة حولها خير شاهد على المعارك الفاصلة التي دارت فيها في سنتي ١٩١٢ و١٩١٣!

لقد ماتت ادرنة كمدينة منذ انفصلت البلقان عن تركيا. كانت قبل الانفصال نقطة اتصال بين قارتين، فازدهرت ونمت ولكن منذ استقل البلقان فقدت ادرنة اهميتها العسكرية والتجارية، فتحولت الى قرية مهملة، ذات منازل قديمة متداعية، ولم تحتفظ من امجاد الماضي الا بذلك المسجد الفخم،

مسجد السلطان سليمان، الذي لا يزال قائماً في وسطها، شاهداً على عظمتها الغابرة، تلمع مآذنه الشاهقة وقببه الضخمة على وجه السماء، فكأنها الحد الفاصل بين عالمين، وهي كذلك في الواقع.

رحت اتجول في شوارع ادرنة الكئيبة واتحدث الى اهلها، فإذا بهم يعيشون معها ايضاً على ماضيهم، فذكروني بنا نحن الذين نعيش على امجاد اجدادنا.

على أن ادرنة لا تزال تحتفظ بأهمية عسكرية كبرى، فهي الهدف الاول لكل زحف آت من الغرب على تركيا، لذلك اقامت القيادة التركية حولها التحصينات المتينة، وانشأت الخط تلو الخط للدفاع ضد الدبابات والمشاة.

* * *

استلفت نظري في شارع ادرنة الرئيسي محل قصاب يبيع «الشاورمة» امام الباب، فتستفز رائحة الشواء جوع المارة، ويتهافتون عليه بلا انقطاع. وخطر لي ان اودع الشرق - ولم يبق بيني وبين الغرب سوى ١٥ كيلومتراً - بمآكله الشهية، فدلفت بدوري نحو القصاب. وادرك الرجل من مظهري ولهجتي انني غريب، فقال لي:

- هل انت بلقاني؟

قلت: كلا، انا عربي!

ولا استطيع ان اصف للقارىء بالضبط ما حدث في الدقائق القليلة التالية، ولكنني اذكر انني رأيت مدية اللحم الطويلة تطير في الهواء، بينما اطبق عليّ الرجل يعانقني ويقبلني بلهفة، مردداً:

- اهلا وسهلا، حبيبي، سيدي، شلونك سيدي، يا تقبرني... يا حبيبي!

وتاهت حواسي للوهلة الاولى بين عواطف الرجل الفائضة، وبين رائحة اللحم التي نشرها بيديه على وجهي وملابسي، ثم استدركت الموقف ورحت اسأله عن حاله، فإذا به حمصي يدعى خالد الموسر، وقد خدم في الجيش التركي ايام «سفر برلك»، وحارب مع اخوانه الثلاثة في معركة ادرنة في سنة ١٩١٢، فقتلوا جميعاً فيها. ولما كان اخوانه آخر من بقي على وجه

الارض من احبائه واهله، فقد اقسم ان يقضي بقية ايامه في ادرنة، وان يموت فيها ليدفن الى جانبهم.

وكان الرجل يروي لي قصته ودموعه تنهمر من عينيه، والزبائن يفدون الواحد تلو الآخر، فيصرفهم بالاشارة!

قلت له: ولم لا تعود اليوم الى بلادك؟ الا تشعر بشوق اليها؟

فقال: لم يبق من العمر اكثر مما مضى، ها انا انتظر الموت منذ ثلاثين سنة، ولم يبق بيني وبينه سوى القليل القليل، فلن اترك اخواني يضطجعون وحدهم في هذه التربة!

قلت: ألم تحاول الاتصال بمعارفك في الوطن طيلة هذه المدة الطويلة؟

قال: كلا، لقد خشيت ان يضعف الاتصال عزمي على البقاء، فآثرت القطيعة وقد يدهشك ان تعلم انك اول عربي رأيته منذ خمس سنين، اي منذ مر الوفد السوري من هنا عائداً من باريس!

وبينما انا مسترسل في الحديث معه، اذا بالشرطي المرافق للقافلة يبحث عني ويدعوني على عجل، اذ دقت ساعة الرحيل. فودعت الرجل وانا اكرر له النصيحة بالعودة الى الوطن. وبعد بضع دقائق كانت سياراتنا تنساب في ازقة ادرنة نحو الحدود البلغارية.

ولا تزيد المسافة بين ادرنة والحدود عن خمسة عشر كيلومترا، يجتازها القطار عادة في اقل من نصف ساعة. ولكن طريق السيارات قديم وعر، تكسوه الثلوج وتطغى عليه مياه الامطار، لذلك كانت سياراتنا تسير ببطء شديد.

حتى ادرنة كانت الاراضي جرداء قاحلة. ولكن مذ خرجنا منها انكشفت امامنا سهول واسعة. نحن نسير الآن على موازاة نهر الماريتزا. هذه الضفة اليمنى تركية، اما الضفة اليسرى فإنها يونانية، تبدو من ورائها تلال رفيعة مكسوة بالزيتون. وامامنا تماما تنبسط السهول البلغارية الجنوبية.

حقاً انه لمشهد رائع، هذا المشهد الذي تقع عليه العين عند مخرج

ادرنة، فيمر الانسان بلحظة واحدة على ثلاث دول: تركيا واليونان وبلغاريا، بلا جواز ولا رقابة. ومع ذلك، فليس في العالم تقريباً ثلاثة اقطار تتبادل الكره والبغضاء والعداء كتركيا واليونان وبلغاريا.

ولقد كانت تراقيا ولا تزال الميدان الذي تتلاقى عليه الدول الثلاث منذ اجيال، فكل شبر من هذه الارض التي نسير عليها سقته دماء هذه الشعوب الثلاثة. ورغم الماضي وعبره، فإن الحقد القديم لا يزال على حاله، ولا يزال البلغار يطمعون بأن تصبح ادرنة التركية يوماً ما «اودرين» البلغارية، كما يطمح اليونانيون لأن يجعلوها «ادريانوبولوس» اليونانية!

* * *

ما تقطعه السيارة في ربع ساعة، قطعناه نحن في ثلاث ساعات. فالطريق بين ادرنة والحدود البلغارية تحولت الى بحيرة طويلة، يغذيها فيضان نهر الماريتزا وذوبان الثلج.

وأخيراً، وبعد عبور وخوض وتزلج وطوفان، بلغت قافلتنا مخفر قابو كولي الواقع على الحدود. وهو عبارة عن بيت قديم، اتخذه خفر الحدود مقراً موقتاً لهم.

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة. وكان البرد قارساً، والظلام آخذاً في الهبوط، وليس من نور يضيء الظلمة غير مصابيح من البترول، معلقة عند مداخل البيت.

حول المخفر تراكمت تلال من الأكياس، تنتظر الشحن من تركيا الى المانيا. رحت استعرضها، فإذا هي ملأى بالقمح والقطن و... التمر!

... أجل، التمر العراقي. ولكن كيف يخرج التمر العراقي من بلاد يحتلها الانكليز الى بلاد يحتلها الالمان؟ ذلك هو سر التجارة في أيام الحرب، وذلك هو فضل الحياد التركي، فقد كانت تمر من خلاله البضائع الالمانية الى الشرق، والبضائع الشرقية الى المانيا. رغم الحصار ورغم الرقابة والمنع!

ولم اتمالك من احداث ثغرة في احد الأكياس بمدية صغيرة،

واستخرجت منه بعض حبات من التمر. وكان الشيخ حسن ابو السعود واقفاً الى جانبي، فتناول نصيبه منها قائلاً:

- كلها يا كامل بتمهل.. لعلها آخر ما نأكله من التمر قبل دخولنا الى اوروبا!

وشعرت بالغصة عندما ذكرتني هذه الجملة بأننا قاربنا نهاية المرحلة الاولى من غربتنا، وألقيت نظرة عامة على هذا الموقع، فإذا بنا نقف على هضبة منحدرة في اسفلها المخفر التركي، وفي رأسها المخفر البلغاري.

لم يبق بيننا وبين بلغاريا سوى كيلومتر واحد، فإذا اجتزناه انقطعت كل صلة بيننا وبين الوطن.

في استانبول كنا نقيم في بلد محايد، نتلقى فيه الرسائل من الوطن، ونرى القادمين منه والعائدين اليه. ولكن بعد ألف متر فقط، تنقطع تلك الصلة نهائياً، فندخل عالماً يسوده قانون الحرب، الداخل اليه مفقود، والخارج منه مولود!

استغرقت معاملة الجوازات أكثر من ساعة، وعقبها تفتيش الحقائب. وكانت الساعة قد تجاوزت السابعة وحلت ظلمة حالكة عندما ركبنا السيارات، واستأنفنا السير على منطقة الارض الحرام نحو النقطة الاولى من اوروبا السياسية، نحو سفيلنغراد، مدخل بلغاريا.

حتى هذه اللحظة كانت الشرطة التركية تخفرنا، اما الآن فقد عدنا احراراً بلا خفر ولا دليل. عدنا سياحاً عاديين، وان كانت سياحتنا غريبة المعنى والمرمى.

كنا سكوتاً كأن على رؤوسنا الطير وفي أقل من ثلاث دقائق، اجتازت السيارة الارض الحرام، ووقفت امام قوس انتصب امامه جنديان بلغاريان شاكيا السلاح. وتقدم احدهما منا قائلاً باللغة التركية:

- الى أين؟

فأجبت باسم الرفاق: وكيف الى أين؟ نحن قادمون الى بلغاريا، وهذه جوازاتنا، وعليها السمة البلغارية!

قال: نحن نقفل حدودنا في الساعة السادسة مساء، والآن الساعة السابعة، فليس باستطاعتنا قبولكم. عودوا الى المخفر التركي واقضوا فيه ليلتكم.

تصور نفسك منفياً من بلاد بعد سجن وتحقيق وتقييد، وانت تعلل النفس بعد رحلة شاقة في جو قاس لا يرحم بالوصول الى بلد تستعيد فيه حريتك، حتى اذا ما وصلت الى مدخل هذا البلد في ساعة متأخرة من المساء، قيل لك: عد من حيث جئت!

هذه كانت حالنا مع خفر الحدود البلغاريين في تلك الساعة. ولكن كيف نعود الى تركيا وقد غادرناها لدقائق خلت منفيين؟ واذا عدنا فأين نبيت؟

ورحت أصف وضعنا للجندي، فما كان منه الا ان قال:

– انتم الآن في منطقة عسكرية، ولا يجوز لنا ان نناقش الاوامر. انني اعطيكم مهلة دقيقة للخروج من هذه المنطقة، والا فسنضطر بعد ذلك الى اعتقالكم او الى اطلاق النار!

كنا التسعة محتشدين حول الجندي، فما لفظ الجندي عبارة «اطلاق النار» حتى تلفَتّ حولي، فإذا بي واثنان من الرفاق وحدنا، واذا بالباقين «ينكفئون» على عجل. ولم اتمالك الضحك، فضحك الجندي بدوره، فرطبت الضحكة الجو، واغتنمنا الفرصة لمعاودة الكرة فقلت:

– بيننا رفاق يحملون توصيات خاصة من السفارة الالمانية، وهم حلفاء لكم، فهل تعاملون حلفاءكم على هذا الشكل، وهم الذين تحملوا في سبيل القضية المشتركة ما تحملوه؟

وفعلت هذه الجملة فعل السحر في الجندي، وقال:

– ليرافقني احدكم الى ضابط الموقع. ووقع اختيار الرفاق عليّ، ورحت اتلمس طريقي وراء الجندي وسط الثلوج الكثيفة، وانا لا ارى شيئاً. ففي السماء ظلام حالك، وعلى الارض بياض يخطف الابصار، ولا نور ولا قبس. ومع ذلك كان الجندي يسير بسهولة. وحاولت ان اتحدث اليه، فقال:

– الرجاء الا تخاطبني، نحن هنا في منطقة عسكرية!

ورحت اجيل الطرف فيما حولي، علني ارى مظهراً من مظاهر هذه المنطقة العسكرية، فلم اتبين شيئاً، وأدركت ان التخفية والكتمان هما ولا ريب مظهرها الأهم!

سرنا اكثر من خمس دقائق، وفجأة سمعت صوتاً يلعلع على بعد متر فقط من اذني، ولمحت حربة تلمع في الظلام.

– كوي؟ كوي؟ (معناها بالبلغارية: من المار؟)

والقى اليه الجندي بكلمة السر، فاختفت الحربة، ورأيت الخفير يهبط الى حفرة في الارض ويختفي فيها. أجل نحن حقاً في منطقة عسكرية، لا تقل «عسكريةً» ولا ريب عن المنطقة التركية التي تجابهها!

وأخيراً لاح كوخ أبيض، ودخلنا حجرة صغيرة مضاءة بنور شاحب، وقد جلس ضابط فتيّ وراء مائدة عريضة انتشرت عليها الخرائط. وطرق الجندي قدميه بالتحية العسكرية، بالعزم الذي يجعل من الجندي البلغاري أقوى وأقسى جندي في البلقان، وراح يحدث الضابط عن قضيتنا بلغته البلغارية. وقد ظلت هذه اللغة اثقل لغات العالم على سمعي الى ان تعلمتها.

ونهض الضابط من وراء المائدة وقال:

– اذن انت عربي؟

قلت: نعم!

فقال: لا أصدق، انت ابيض!

قلت: ومن قال لك بأن العرب سود، ودار بيني وبينه جدل استغرق بضع دقائق، وعبثاً حاولت اقناعه بأن العرب بيض، اذ كان يردد:

– مايكا مي ستارا... مايكا مي ستارا... (أي ما يقال بالعربية: آخ يا ماما!) عربي ابيض!

وعدنا الى بيت القصيد، وطلبت الاذن بالدخول الى بلغاريا في تلك الليلة، فأجاب:

– لا مانع عندي من دخولكم الليلة اذا شئتم، ولكن أين تبيتون؟ انتم

هنا في اقصى الحدود وفي منطقة عسكرية. ولن تجدوا مدنياً واحداً قبل عشرة كيلومترات. فإذا كنتم تأخذون على عاتقكم امر المبيت، فأهلاً وسهلاً بالعرب البيض.

قلت: وهل من مانع من السير على اقدامنا الى موقع مدني؟

قال: لا استطيع ان ازعج المنطقة كلها. ولن تقطعوا المسافة في اقل من ساعات طوال، اذ سيستوقفكم الخفراء مئة مرة. لا تنس اننا هنا في الجبهة تقريباً!

وعدت الى رفاقي وعرضت عليهم النتيجة، فقال الشيخ حسن ابو السعود (مفتي الشافعية في فلسطين):

- السجن التركي ولا النوم على الثلج. هيا بنا نعود الى المخفر التركي!

فقال محيي الدين الطويل: واذا لم يقبلنا الاتراك؟

فأجاب واصف كمال: نبقى في الارض الحرام بين البلدين!

ودرجت بنا السيارة عائدة الى المخفر التركي، والشيخ حسن ابو السعود يردد:

- هذه بادرة شؤم يا شباب... جاء في الحديث الشريف...

ودوى انفجار عنيف، ورسبت السيارة في مكانها، ورسبت قلوبنا معها. أهي قنبلة ام لغم ام ماذا؟

كلا، لقد انفجر مطاط العجلة في انحس الاوقات. وتنهد واصف كمال وقال:

- آه على السجن!

ونزلنا من السيارة، ورحنا نعالج عجلتها مع صاحبها، في ظلام دامس، وسط المنطقة الحرام بين تركيا وبلغاريا، على بعد امتار معدودة من آسيا، وبضعة امتار من اوروبا!

* * *

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما تم اصلاح السيارة، ودلفنا

عائدين الى المخفر التركي. واذا به قد خلا من الشرطة وحل الجيش محلها في الحراسة الليلية.

واحاط الجند بسيارتنا وحرباتهم تلمع امام انوار السيارة، وكانت اسئلة، وكانت اجوبة، وكانت مخابرات هاتفية مع ادرنة، ومع استانبول واخيراً اجيز لنا ان نقضي ليلتنا في المخفر التركي على ان نستئنف السفر في الصباح التالي.

ودخلنا الى المخفر، وهو عبارة عن غرفة صغيرة واحدة، تقوم في وسطها مدفأة جديدة ومائدة وثلاثة مقاعد هذا هو رياش الحجرة التي قضى على تسعة اشخاص المبيت فيها.

طبقنا اولاً نظام القرعة على الكراسي ومن ثم فرشنا الابسطة على الارض وتمددنا عليها. ولا شك ان القارئ يدرك بداهة اننا لم تغمض اعيننا في تلك الليلة، فقد اعطتنا مغامراتنا الطويلة في ذلك اليوم درساً قاسيا عما ينتظر الغريب الشريد الطريد من المصاعب والهموم في بلاد الغير وفي ايام الحرب.

وكان يخترق سكون الليل احيانا ازيز الرصاص او جلجلة بعيدة، او صهيل الخيل او دوي المحركات، او تنير الجو صواريخ ملونة. ذلك ان الحدود البلغارية - التركية كانت كما اسلفت تؤلف جبهة كاملة، لا ينقصها الا الشروع في القتال. فكانت حركات الجيوش فيها متواصلة ليل نهار، وكانت هذه الحركات سبباً في استمرار الاشاعات طيلة سني الحرب عن قرب وقوع الحرب بين تركيا وبلغاريا ولا تزال هذه الاشاعات مستمرة الى يومنا هذا، ما عدا ان الجيش الاحمر حل محل الجيش الالماني وراء الجيش البلغاري.

وقال احدنا: وما رأيكم لو وقعت الواقعة هذه الليلة، فنصبح نحن وسط خط النار تماماً بين الجيشين؟

فقال الشيخ حسن ابو السعود:

- لا بأس، زيادة الخير خير!

للمرة الاولى منذ ايام نرى وجه الشمس. نهضنا في الساعة السادسة صباحاً، فإذا بالسماء صافية، واذا بالشمس تنشر اشعة دافئة على سهول تراقيا، وتبدد الغيوم والضباب التي كانت تحجب الرؤية الى ابعد من بضع مئات من الامتار.

الثلج يغمر كل شيء، ومع ذلك يستطيع الناظر ان يتبين من خلاله الحصون الصغيرة من بلغاريا وتركيا اختفى الجند الذين رأيناهم في الليل، وحل محلهم رجال الشرطة. ولكن اين ذهبوا؟ هذا هو سر تراقيا. فهذه السهول المنتشرة امامنا تخفي في بطنها اكثر من نصف مليون جندي من الطرفين!

وذهبنا الى السيارة، قاصدين الى الحدود البلغارية مرة اخرى. ولم انس قبل الصعود اليها ان اثقب احد اكياس التمر المكدسة امام المخفر، وان استخرج منه «زوادة» صغيرة!

١١

■ الحدود البلغارية، ١١ شباط (فبراير) ١٩٤٢

في الساعة الثامنة والدقيقة العاشرة ترجلنا من السيارة امام مخفر الحدود البلغارية ووطئت اقدامنا ارض اوروبا. واكتفى الخفراء العسكريون بالقاء نظرة عارضة على جوازاتنا، تاركين مراجعتها لمخفر الحدود الرئيسي الواقع في قرية سفيلنغراد على بعد عشرة كيلومترات من الحدود.

وقيل لنا ان سيارة النقل البلغارية تأتي في الساعة العاشرة لتحملنا الى تلك القرية، فاغتنمت فرصة المهلة الباقية، ورحت اتجول في المنطقة.

نحن على رأس رابية، تطل على المخفر التركي الذي قضينا فيه ليلتنا. الى الجنوب ينساب نهر المارتيزا، فاصلا بين بلغاريا واليونان، الى ان يصب في بحر ايجه.

اعجبني مظهر الجنود البلغار، انهم اقوياء البنية اشداء، يجمعون في انظمتهم وبزاتهم فضائل التقاليد الروسية والالمانية في آن واحد.

وجدت بين الضباط فتى يتقن اللغة الفرنسية، فرجعت اتنزه واياه،

حتى بلغنا ضفة نهر المارتيزا، وجلسنا امامها. وبعد ان قضى زهاء ربع الساعة يسألني عن العرب، رحت بدوري اسأله، فقلت:

– وأين الجيش الالماني؟ اننا نسمع منذ اشهر انه يرابط على حدودكم، ولكني لا ارى له اثراً!

فأجاب: ان الالمان لا يرابطون على الحدود تماما، ولا يحتل الحدود تجاه الجيش التركي سوى الجيش البلغاري وحده. اما الالمان فإنهم منتشرون وراءنا في منطقة سفيلنغراد.

واشار الضابط بيده الى الضفة الاخرى من نهر المارتيزا وقال:

– هذه هي تراقيا اليونانية. لقد انتزعها منا اليونانيون في سنة ١٩١٣ وحرمونا منفذنا الوحيد على بحر ايجه. ولكن الالمان وعدوا بأن يعيدوها الينا بعد ان احتلوا اليونان في العام الماضي. وقد وضعوها اليوم فعلا تحت ادارتنا العسكرية، وان كانوا يحتلون هم الجزء الصغير منها، المحاذي للحدود التركية. انظر تلك الراية المنصوبة على قمة الجبل هناك... انها الراية الالمانية، انها آخر راية المانية في القارة الاوروبية!

قلت: وهل ستحاربون الاتراك كما يشاع؟

قال: كلا، لا اعتقد ذلك. وعلى كل فإن الكلمة ليست لنا. ان القيادة الالمانية العليا هي صاحبة الحل والربط، واذا قررت الهجوم على تركيا فإن القيادة البلغارية تنزل عند ارادتها صاغرة. وعلى كل فإن البلغار لا يأنفون الحرب مع الاتراك، فبيننا وبينهم حسابات عتيقة تبدأ بأودرين (ادرنة)!

قلت: لقد اعلنت جميع الدول البلقانية الحرب على روسيا، فلماذا لم تشاركوا المانيا فيها؟

– لا نستطيع ان ننسى ان روسيا هي التي حررتنا في سنة ١٨٧٨ من الاتراك فكيف نحمل السلاح ضد اخواننا وابناء عمومتنا؟ كلا، ان الجيش البلغاري قد يرضى بمحاربة الاتراك او الانكليز، اما الروس فإن الاكثرية الساحقة من الجند تستنكف عن محاربتهم!

– وكيف توفقون اذن بين اعلانكم الحرب مع المانيا على انكلترا

واميركا، وبقائكم على الحياد تجاه روسيا؟

فسكت الضابط، واسمه كوليو، لحظة، ثم قال:

- ان المانيا لا تحتاج الينا في روسيا. لقد كتب علينا موقعنا الجغرافي ان نكون مدخل اوروبا ومخرجها نحو الشرق، لذلك يحتفظ بنا الالمان لمجابهة الاتراك. وما دام جيشنا سليما محايدا مرابطا على الحدود، فإن الاتراك لن يجرأوا على مهاجمتنا ولن يسمحوا للانكليز بالمرور!

ادهشني ان اسمع هذا الضابط يتحدث عن الحرب والسياسة بمثل هذه الصراحة والسهولة، ذلك انني لم اكن قد تعرفت بعد الى جو البلقان، هذا الجو الموبوء بالاحقاد والشهوات والثورات منذ اجيال، هذا البلقان الذي اشغل دول العالم ولا يزال يشغلها، هذا البلقان الذي لم يعرف السلام ولو جيلاً واحداً.

■ سفيلنغراد، ١١ شباط (فبراير) ١٩٤٢

قبل الظهر وصلت السيارة فصعدنا اليها قاصدين الى اول قرية بلغارية: سفيلنغراد، حيث نركب القطار الى صوفيا.

وما كدنا نبتعد بضع مئات من الامتار عن خط الحدود حتى لاحظنا ان الطبيعة قد تبدلت، اذ انتهت تلك الحقول الجدباء الممتدة من استانبول حتى قابوقولي وانبسطت امامنا سهول عامرة بالاشجار والمزارع، تشهد بحيوية الفلاح البلغاري وعزمه. وبالرغم من ان الثلوج كانت تغطي كل شيء تقريبا، فقد كان الزرع الباكر يلوح من خلالها، فيذكرني مشهده وتنظيمه بسهول البقاع عندنا في لبنان.

ولم تلبث السيارة حتى بلغت سفيلنغراد وهي قرية صغيرة شبيهة بقرى الجبل اللبناني ووقفت بنا امام المحطة. وترجلنا منها ورحنا نسلم جوازاتنا للشرطة. وكان اول ما لفت نظري جندي طويل القامة، معتمر بتلك الخوذة الفولاذية العريضة التي اصبحت رمزاً للجبروت والتحدي. انه اول جندي الماني تقع عيني عليه في حياتي.

رحت اتأمل بهذا الجندي، وادرس على محياه ومظهره صفات هذا العالم الجديد الذي يسوقنا القدر اليه. ولكن لم اجد فيها ما يجعلني ابدل رأيي في ان الانسانية واحدة...

وانتهت عملية الجوازات في المخفر البلغاري بسرعة. ولما طلبت جوازي قيل لي:

– يجب ان يمر على المكتب الالماني على الـ «غستابو»!

الـ «غستابو» هنا؟ اين هو هذا الـ «غستابو» الرهيب الذي ترتجف القلوب هلعا لذكره والذي تبوأ في سطور الصحف مركزا دائما يتنافس منه احرف الجر والعطف؟

وكان يخيل لي حتى ذلك الحين ان كلمة «غستابو» كلمة خفية، لا يستخدمها الا خصومه للتعبير عنه، ولكنني لم البث حتى عرفت ان الكلمة شائعة، وانها تجمع المقاطع الاولى من الكلمات التالية: «غيهايم شتات بوليستاي»، اي بوليس الدولة السري.

وارشدني احدهم الى مكتب الـ «غستابو» فرأيت رجلا بالملابس المدنية، مكباً على الجوازات يفحصها، وليس في حركاته او سكناته ما يميزه عن غيره من البشر. ومع ذلك فهذا هو الـ «غستابو»!

وافضيت بشعوري هذا الى فتى بلغاري تعرفت عليه في المحطة، فقال:

– ولكن «غستابو» الجوازات شيء، و«غستابو» معسكرات الاعتقال شيء آخر.

ولم تلبث الحوادث ان علمتني فيما بعد هذا الدرس على حسابي الخاص، وعرفت بعد مدة ان ذلك الفتى البلغاري الذي تحدثت اليه في محطة سفيلنغراد، كان هو ايضاً صورة من صور الـ «غستابو»!

وطال بنا انتظار الجوازات، فسألت احدهم عن سبب التأخير، فأجاب:

– الالمان يخابرون برلين بالتلفون في امركم...

– في امرنا نحن العرب؟

– نعم، فهم يبلغون برلين عادة اسماء الوافدين الاجانب، وينتظرون

جوابها.

– وماذا يكون الجواب عادة؟

– اما القبول او الرفض او الاعتقال.

– ولِمَ يعتقلون الناس ما داموا قد اعطوهم الـ «فيزا»؟

– نحن الآن في حالة حرب، وكثيراً ما تكون الـ «فيزا» الممنوحة للوافد الطعم الذي يحمله الى الشبكة!

وكان الشيخ حسن ابو السعود الى جانبي، فترجمت له اقوال الرجل، فضحك وقال:

– لا تزعج نفسك بالتفكير. لقد اكلنا الطعم... وبقي علينا ان نعرف ما يكون من امرنا مع الصنارة!..

* * *

في فناء المحطة كومة من الرياش على اختلاف انواعه، وقد وقف جنود بلغاريون يحرسونها. سألت عنها فقيل لي انها رياش المفوضية الاميركية في صوفيا. ولما كانت بلغاريا قد اعلنت الحرب منذ شهرين على الولايات المتحدة وبريطانيا فإن الاميركيين يشحنون رياشهم ومستنداتهم من صوفيا الى استانبول. واستغربت يومئذ ان يهتم الاميركيون وحدهم بنقل الرياش من صوفيا. ولكن هذا التدبير كان في حد ذاته انذاراً لم يفهمه البلغار في حينه، اذ كان الاميركيون يضمرون العزم على قصف صوفيا عندما تسنح الفرصة، فعمدوا منذ البداية الى اخراج كل ما يملكون فيها. ولم يتذكر البلغار «تدابير الجلاء» هذه الا في ١٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٤، يوم بدأت الاساطيل الاميركية تمطرنا النار والحديد.

وكانت الطائرات الالمانية تروح وتغدو بلا انقطاع فوق رؤوسنا، فسألت عنها فقيل لي ان الالمان يملكون عدة مطارات في منطقة الحدود، وان الطائرات تقوم بالمناورات بلا انقطاع، من قبيل التهويل على الاتراك، وتشجيعاً للبلغار، وارهابا لليونانيين. وفجأة سمعنا قصف المدافع وازيز الرصاص على مقربة منا، فانكمشت قلوبنا، نحن الذين لم نعرف الحرب

قبل ذلك اليوم الا على صفحات الجرائد، ورحنا نتطلع بعضنا ببعض بوجوم، دون ان نجرؤ على الاستفسار. ولكننا لاحظنا ان الاهلين يتابعون اعمالهم بسلام، متجاهلين ذلك الدوي، فأدركنا بداهة ان القوى البرية تشارك الطائرات في المناورات. أجل، نحن في اوروبا حقاً حيث تسود الحرب كل شيء بلا منازع. وها هي تذكرنا بوجودها منذ اللحظة الاولى التي ننتقل بها من بلد محايد الى بلد طلّق حياده.

وعصف الجوع بنا فدخلنا مطعم المحطة نتناول الغداء بدعوة من البارون فون هيلفرسون، موفد المفوضية الالمانية في صوفيا لاستقبال بعض رفاقنا. وحمل الينا الخادم اطباق الطعام، والى جانب كل منها قرص اصفر اللون. ولما طلبنا الخبز قيل لنا ان يوم الثلاثاء هو يوم بلا خبز في بلغاريا، اذ تحل اقراص الذرة الصفراء والبطاطا محله، ويجري ارسال الكميات المتوفرة من ذلك القمح الى تراقيا اليونانية لدرء خطر المجاعة عن أهلها.

ورحنا نزدرد تلك الاقراص على كره وفي نفور نابض بالتحسب والتخوف من هذه الطلائع التي تستقبلنا اوروبا بها: جيوش ومناورات، رقابة و«غستابو»، تقنين وذرة صفراء. انها الحرب، ولكن في ألطف صورها وأهون مظاهرها بالنسبة الى ما ينتظرنا..

وقبيل الساعة الرابعة بعد الظهر اعيدت الينا جوازاتنا، فركبنا القطار وغادرنا سفيلنغراد في اتجاه صوفيا. ولا انسى ان اذكر قبل مغادرة هذه المحطة انني رأيت فيها ثلاث عربات جديدة من عربات القطار تحمل ارقاماً عربية، واذا بها عربات أوصت عليها ايران في المانيا فوصلت الى سفيلنغراد في نفس اليوم الذي هاجم فيه الحلفاء ايران، فأوقفها الالمان في المحطة. وقد استولى عليها البلغار فيما بعد واستخدموها على خطوطهم، وتركوا الارقام العربية على حالها، فأطلق عليها الناس اسم «ارابسكي فاغوني»، اي العربات العربية، ولم يلبث هذا الاسم، حتى اضحى رسمياً، اذ تبنته شركة سكة الحديد واطلقته على القطار الذي يسير بين صوفيا والحدود الجنوبية، وأصبح للعرب خط حديدي وسط البلقان!

* * *

اقلع بنا القطار من محطة سفيلنغراد في الساعة الخامسة بعد الظهر، وراح يزحف ببطء صعوداً عبر سهول بلغاريا الجنوبية، الملقبة في العهد العثماني ببلاد الروملي. لقد ظلت هذه المنطقة خاضعة للسيادة التركية حتى السنة ١٩١٠، اذ انضمت الى الامارة البلغارية وشكلت معها مملكة بلغاريا الحالية. ولا يزال في بلادنا الوف من الكهول والشيوخ الذين يعرفون الروملي حق المعرفة، فقد كانت الفرق العربية في العهد العثماني تساق الى هذه البقعة من البلقان وتعسكر فيها قبل توزيعها على الجبهات. وكأن هذه الصلة طبعت المنطقة بالطابع العربي، اذ ان قراها شبيهة بالقرى الشامية.

القطار يزحف كالسلحفاة. هبط الظلام باكراً، ولكن انوار القرى على الجانبين تتلألأ من خلاله، وتنعكس على الثلوج فتتضاعف مئات الأضعاف، وتثير سناء يخطف الابصار. القرى تتعاقب بسرعة، شاهدة بالعمران السائد في هذه البقعة. الفلاحون يتدافعون للصعود الى القطار والنزول منه، بلباسهم الوطني، الشبيه - اجمالا - بملابسنا البلدية: سراويل (شروال) من الصوف البني، مع سترة قصيرة من القماش نفسه، تفصل بينهما «شملة» حمراء اللون. وفوق ذلك كله «مضربية» من جلد الغنم. اما لباس القدم فيتألف من «شادوف» مصنوع من جلود المواشي، وقد التفت فوقه حتى الركبة قطعة من اللباد السميك.

ان الفلاح البلغاري فلاح مئة بالمئة في ملبسه ومظهره، ارتضى لنفسه ما اورثه اياه اجداده من الازياء الناشئة عن مقتضيات المناخ والعمل، وتمسك بها رغم انتشار الازياء الاجنبية (اي الجاكيت والبنطلون) فلم يستبدلها بسواها، وجعلها عنواناً لوطنيته ودليلا على اعتزازه بتراثه.

وليس في العالم كله بلد نستطيع ان نسميه بلد الفلاحين كبلغاريا. فهي تتألف من صغار الفلاحين، يقوم كيانها ونشاطها وتطورها على سواعدهم وحدهم. هم يستثمرون خيرات ارضها الخصبة، وهم يؤلفون

حكومتها، وهم يحملون البندقية عندما يدعوهم داعي الحرب. انهم يثبتون للعالم كله ان الفلاح يستطيع ان يبني دولا وان يصون استقلالا، وان يكون بنشاطه دعامة بلاده لا عالة عليها.

وكم مرت على بلغاريا محن وحلت بها نوازل منذ نالت استقلالها في سنة ١٨٧٨، ومع ذلك فقد استطاعت ان تنهض المرة تلو المرة من كبوتها بفضل فلاحها، ولا تزال الى يومنا هذا - رغم هزيمتها الأخيرة - أقوى شعوب البلقان واكثرها املاً بالحياة.

■ صوفيا، ١٢ شباط (فبراير) ١٩٤٢

ايقظتنا اهتزازات القطار في الساعة الخامسة صباحاً. لقد صعدنا في اثناء الليل زهاء سبعمئة متر، حتى بلغنا الهضبة التي تؤدي بنا الى العاصمة صوفيا. لم يبق بيننا وبينها سوى ساعة واحدة. البرد شديد جداً والثلوج تغطي كل شيء. ما اكره منظر الثلج الدائم لمن لم يعتد عليه. اين سماء بلادنا الصافية من هذا الجو الموحل؟ واين اديمها السندسي من هذا البياض الاجرد الذي لا ينقطع؟ وأين طقسها الدافيء حتى في الشتاء من العشرين تحت الصفر؟

دخلنا منطقة الضواحي، وبدأنا نمر وسط حي العمال: بيوت صغيرة ذات قرميد احمر، يتألف كل منها من غرفتين او ثلاثة، تحيط بكل منها حديقة صغيرة. متى تنشأ في بلادنا مثل هذه البيوت، وتخطو بالعامل الخطوة الاجتماعية التي لا تستقر بلاد من دونها؟

وبلغنا اخيراً العاصمة، وراح القطار يخترق البيوت الى ان وقف في فناء ضيق: انه محطة صوفيا. وسمعنا الموسيقى تعزف النشيد الالماني، واذا بفصيلة من الجيش الالماني واخرى من الجيش البلغاري تؤديان التحية لقائد الماني كان معنا في القطار.

والقينا نظرة على الوجوه المحتشدة في المحطة تنتظر الركاب، كأننا على ميعاد مع احد. ثم تذكرنا اننا غرباء ها هنا... فبادرنا الى النزول.



■ صوفيا، ١١ شباط (فبراير) ١٩٤٢

ها نحن في اول عاصمة اوروبية يصل اليها القادم من الشرق: صوفيا. كانت حتى ثلاثين سنة خلت قرية حقيرة، فإذا بها تصبح اليوم مدينة كبيرة، ذات شوارع واسعة مستقيمة، تجعلني اتحسر على شوارع بيروت. الحدائق العامة منتشرة بين احيائها، والغابات الواسعة التي غرسها الملك فرديناند في القرن الماضي حولها تلطّف مناخها وتزيد في جمالها. كانت تعد قبل سنين ربع مليون، فارتفع عدد سكانها مع الحرب الى الاربعمئة الف.

ويخيل للزائر الشرقي في الوهلة الاولى انه يدخل بلداً غربياً، ولكنه لا يلبث حتى يكتشف ان الشرق لا ينتهي في تركيا، ولا سيما عندما يسمع الباعة المتجولين ينادون على بضاعتهم بقولهم: «اوربايسكي... اوربايسكي.. »، أي بضاعة اوروبية مستوردة، كأنهم ليسوا في اوروبا!

كنت اتجول مرة في شوارع صوفيا بعد غارة جوية عليها في آذار

(مـارس) ١٩٤٤ فـوقع نظري على كـتـاب انتـشـر مـع الانقـاض فـي عـرض الشـارع، فـتناولـتـه، فـإذا به كـتـاب انكليـزي يدعـى «مراكـز الاضـطراب في الشرق الادنى» صدر سنة ١٨٩٠. وخيل لي وانا اتصفحه انني سأجد فيه حديث الشرق الادنى كما نفهمه اليوم، واذا به يعالج شؤون صربيا وبلغاريا واليونان على قدم المساواة مع شؤون سورية والعراق ومصر. ذلك ان حدود «الشرق الادنى» كانت في القرن الماضي تمتد عبر البلقان حتى نهر الدانوب شمالا، وحتى ابواب النمسا شرقاً. واذا كانت التسمية قد تبدلت اليوم، فإن الشرق لا يزال قائماً في بلغاريا واليونان ورومانيا ويوغوسلافيا. انك لتجده في جـانب من لغـتـهم، في مـأكلهم وملبسـهم، في طبـاعـهم وعـاداتـهم، في نظرتهم الى الدنيا والدين. ان الشرق ليس اسما فحسب. انه مدنية وروح ايضـاً، واذا كـانت السـيـاسـة قد اسـتطاعت تعـديل الحـدود وتبـديل الدول وتغيير الاسمـاء، فإن اصـول الشـرق ظلت ثابتـة فـي البلقـان كمـا كـانت في السابق. والفارق الوحيد هو التسمية!

ولا ننسى ان العثمانيين احتلوا البلقان في القرن الخامس عشر، في نفس الوقت الذي احتلوا فيـه العالم العربي فـخضـع كـمـا خضـعنا طوال اربعـمئة سنة لسلطان واحـد، ولأسـاليب واحـدة في الحكم والادارة، فنشـأ بفضل ذلك تشـابه غريب بين العـرب والبلقـانيين. ومما زاد هذا التشـابه ان الاتراك اقتبسوا عن العرب الكثير من مظاهر الحضارة ونقلوها الى البلقان الذي كان يومئذ في حـالة البداوة الجبلية، واستقرت فيه الى يومنا هذا دون ان يعرف سواد الشعب انها صادرة في الاصل عن شرقنا العربي.

ولم ينحسر الظل التركي عن البلقان الا بعد الحرب البلقانية الاولى في سنة ١٩١٢، أي قـبـيل انحسـاره عنا بست سنوات فقط. وعلى هذا فقد كـان العرب والاتراك والبلقـانيون يـعيشـون حـتى الأمس القريب في مجتمع واحد، ولا يسـتطيع ربع قرن من الانفصـال ان يمحـو اثار خمسـة قرون من الاتصال.

هذه مـلاحظة عـامـة عن البلقـان، وددت ان ابسطها للقـارىء بعـد ان

وصلت به اليه في مذكراتي.

* * *

نحن الآن في فندق «سلافيانسكا» في صوفيا. لقد وصلنا في الصباح ثم انصرف كل منا الى تدبير اموره. وكان اول ما فعلت ان ذهبت الى دار المفوضية الفرنسية - الفيشية اسأل اذا كانت «فيزا» السفر الى دكار قد وصلت فكان الجواب سلبا. اذن لا بد من الانتظار في صوفيا الى ان تصل.

اما بقية الرفاق فقد غادروا صوفيا في اليوم التالي او في الايام القليلة التالية. منهم من سافر الى روما، ومنهم من سافر الى برلين، ولم يبق في صوفيا سواي وسوى الاخ محيي الدين الطويل.

وذهبت قبيل الظهر الى قلم المطبوعات البلغاري لزيارة مديره زيارة «بروتوكولية» تفرضها عليّ صفتي الصحافية، فاستقبلني امين السر السيد ميهاي افراموف بحفاوة زائدة، وراح يسألني عن بيروت وعن حيفا وعن القاهرة سؤال العارف، واذا به يعرف بلادنا ويحبها، وله شقيقة متأهلة في مصر.

وانتقل الحديث على الاثر من الشرق الى اوروبا، فزالت الابتسامة عن وجه الرجل، وابدى تحفظا شديدا، قائلا:

- انا لا احب الحرب، ولا ارى لزوما لها. ان الشعوب الصغيرة تذهب دائما ضحية لمطامع الشعوب الكبيرة!

- ولم اعلنتم الحرب اذن على اميركا وانكلترا؟

وتجنب الرجل الرد على سؤالي وقال:

- انا موظف ينفذ الاوامر، ولست وزيرا للخارجية...

ثم استطرد قائلا: اذا كان يهمك ان ترى وزير الخارجية فأنا هو الموظف المولج بتدبير الزيارات الصحافية.

قلت: ولكني صحافي متقاعد في الوقت الحاضر، فإذا ما قابلته فإنني اود ان اقابله بصورة شخصية.

فأجاب: ان المسيو ايفان بوبوف (اي الوزير) هو ابن عمي، ويسرني ان

ادبر المقابلة بصورة شخصية. انني اريدك ان تقابله لكي يرى ويتأكد من ان العرب ليسوا سوداً!..

قلت: هل يعتقد الوزير ان العرب زنوج؟

فضحك وقال: هذا هو الرأي السائد في بلادنا تقريبا. ولقد رأيت في رحلتي الى بلادكم من مظاهر العمران والتطور ما ادهشني. ومع ذلك فإنهم لا يصدقونني في هذه البلاد...

واتفقنا على موعد المقابلة مع الوزير، وغادرت الدار وانا اضحك من نفسي، ومن هذه الظروف التي جعلتني «فرجة» في بلاد الغربة!

رحت اتجول في شوارع صوفيا، فلم ار فيها اثراً من آثار الحرب التي رأيناها في منطقة الحدود. المتاجر زاخرة بالبضائع والحياة باسمة في كل مكان. اجل، ان بلغاريا في حالة الحرب، ولكنها لا تحارب واهلها مغتبطون لأنهم استطاعوا ان يستعيدوا بلا قتال المناطق التي كانوا يصبون دوماً الى استعادتها: تراقيا اليونانية ومقدونيا.

وعلى بناية قصر العدل الجبارة انتشرت ثلاث رايات، يبلغ طول الواحدة منها ثلاثين مترا. انها رايات المانيا وايطاليا واليابان، وقد نشروها ابتهاجا بسقوط سنغافورة امس في ايدي اليابانيين.

* * *

في المساء خرجت «اكتشف» حياة صوفيا الليلية. وكانت تقع على مقربة من الفندق دار كبيرة للسينما تدعى سينما «رويال» فدخلت اليها فإذا بحسناء شقراء جالسة وراء المنصة تبيع التذاكر. وقفت امامها اطلب تذكرة، فبادرتني بعبارة كانت اول عبارة تعلمتها في اللغة البلغارية:

– زا قوغا؟ (في أي وقت تريد؟) وانطبع وجه هذه الشقراء في ذاكرتي انطباع عبارتها، وانطباع ذكريات الليلة الاولى في صوفيا.

ومر عام كامل على تلك الليلة، سافرت خلاله الى المانيا وعدت الى بلغاريا اقيم فيها: وفي اوائل العام ١٩٤٣ وقعت في بلغاريا سلسلة من الاغتيالات، فكان مجهولون يطرقون ابواب كبار القادة والزعماء الموالين

للالمان، فيطلقون الرصاص عليهم ويختفون.

وفي الصباح الباكر من يوم من ايام آذار (مارس) ١٩٤٣، سمعت دوي طلقات نارية على مقربة من بيتي في شارع جنيفا، فنهضت مذعوراً، وسارعت الى النافذة استطلع الخبر، واذا بي أرى على بعد خمسين متراً شاباً يعدو بسرعة، ووراءه فتاة، ووراءهما ضابط يطلق الرصاص من مسدسه عليهما. وكان الشاب والفتاة يلتفتان الى الوراء ويطلقان النار على الضابط على غير هدى. ولم يلبث الشاب ان اصيب برصاصة في كتفه على بعد بضعة امتار من منزلي، فسقط الى الارض وتدحرج كالكرة قبل ان يستقر على بطنه. وكانت الفتاة تعدو بسرعة، فتعثرت به وسقطت فوقه. وفي تلك اللحظة ادركهما الضابط فقبض عليها وشدها من شعرها الذهبي. وكم كانت دهشتي عظيمة عندما وجدت انها نفس تلك الشقراء التي باعتني تذكرة الدخول الى سينما «رويال»!

ولم يلبث التحقيق ان اثبت ان الفتاة كانت ركناً من اركان جمعية شيوعية ارهابية، وانها اشتركت في عدة اغتيالات وان عملها في السينما كان ستاراً يحجب وراءه نشاطها السياسي.

هذه الحادثة تعطي القارئ صورة عن العقلية السياسية في البلقان، حيث يمثل المسدس دوره في الحزبية ولو في يد حسناء لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها. والواقع ان الاغتيال السياسي يجري في البلقان بسهولة «شربة الماء» عندنا، والاستهانة بالحياة – حياة القاتل وحياة القتيل على السواء – لا تعرف حداً. واذا كان الاغتيال السياسي وسيلة مكروهة في الدول الراقية، واذ كانت هذه الوسيلة قد سممت حياة البلقان عدة اجيال، فإنها دلت على وعي شعبي كان له اثره الكبير في تعديل سياسة الدول البلقانية.

■ صوفيا، شباط (فبراير) ١٩٤٢

شهر كامل قضيته في صوفيا عاصمة بلغاريا، اعني به شهر شباط

(فبراير) من العام ١٩٤٢. وكنت اراجع كل يوم القنصلية الفرنسية سائلا عن «فيزا» دكار، فلا اجدها.

وكانت الحياة يومئذ في صوفيا هادئة جميلة. وكانت جيوش المانيا – حليفة بلغاريا – تكتسح القفار السوفياتية والصحارى الافريقية، فيسود الاطمئنان نفوس البلغار الى الجانب الذي اختاروه لا حباً منهم به، بل لأن فوزه يعني اعادة مقدونيا وتراقيا اليونانية اليهم.

ويجب ان اذكر بهذه المناسبة ان الالمان كانوا يتصرفون في البلقان تصرفاً مزدوج الوجه، فكانوا يعاملون حلفاءهم احسن معاملة، وينتقمون من خصومهم اشد الانتقام. وعلى هذا فقد استفاد البلغار في بداية الحرب فائدة كبيرة من تحالفهم مع المانيا، وان كانت تلك الفائدة موقتة.

وكان في بلغاريا جيش الماني صغير، يرابط اكثره على الحدود التركية ويتولى تأمين المواصلات مع اليونان في اتجاه كريت وليبيا، ومع رومانيا في اتجاه روسيا، وعلى نهر الدانوب في اتجاه البحر الاسود وشبه جزيرة القرم.

وكان قد مر شهران فقط على دخول بلغاريا الحرب ضد الولايات المتحدة وبريطانيا، فكان الجدل حول هذا الموضوع متواصلا، لا تجلس في مقهى الا وتسمع الناس يتناقشون في خطأ ذلك التدبير او صوابه. وكان انصار الفكرة يقولون ان اميركا بعيدة وبريطانيا بعيدة، وقد اعلنت بلغاريا الحرب عليهما لأنها لن تحاربهما عملياً، فتشتري بهذه الحركة الرمزية رضى المانيا. اما خصوم الفكرة فكانوا أولئك الذين يتوقعون فوز الحلفاء في الحرب، ومعظمهم من طلبة الكلية الاميركية في سميونوفو من ضواحي صوفيا.

ولا ازال اذكر ان جريدة «فستنيك» نشرت صباح احد ايام شباط (فبراير) رسماً كاريكاتورياً لنيويورك تحت ستار من القماش الاسود، وكتبت تحتها: «نيويورك تتخذ تدابير الوقاية الجوية بعد ان اعلنت بلغاريا الحرب عليها». وبعد ان بدأت الغارات الاميركية على صوفيا في سنة

١٩٤٤، نشرت احدى صحف نيويورك ذلك الرسم الكاريكاتوري عينه، قائلة للبلغار: لقد جاء الآن دوركم!

ولم يشعر الرأي العام البلغاري بشيء اسمه الحرب مع انكلترا او اميركا، لأنه لا يكاد يشعر بوجودها في حياته اليومية فالعلاقات التجارية والثقافية بينهما وبين بلغاريا لم تكن لتستحق الذكر. والواقع ان البلقان لا يتأثر الا بدولتين: المانيا وروسيا. فالمانيا هي الميدان الوحيد لتصريف المنتوجات الزراعية البلقانية، وهي اقرب الدول الى تزويده بحاجاته الصناعية. اما روسيا فإنها تجاوره شمالاً وترتبط به بوشائج القربى السلافية. اما الانكلوسكسون فلا يهمهم البلقان الا كوسيلة سياسية ضد المانيا او روسيا.

وقد استطاعت روسيا الآن ان تحتل البلقان كله، فاتجه خصومها فيه شطر اميركا وانكلترا، ليستمدوا منهما العون الذي كانوا يستمدونه من المانيا ضد موسكو. على ان هذا الوضع موقت، ولا بد من عودة النفوذ الالماني الى البلقان حالما تعود المانيا دولة مستقلة، اذ ان البلقان بوضعه الجغرافي والاقتصادي ميدان الماني - روسي قبل كل شيء. وسأميط اللثام في مقالي المقبل عن سر من اسرار التنافس الالماني - الروسي على هذا البلقان، اتيح لي ان اطلع عليه من مصادر عليا في اثناء اقامتي في اوروبا.



■ صوفيا، شباط (فبراير) ١٩٤٢

بعد مرور يومين فقط على سفر (وزير الخارجية السوفياتي) الرفيق مولوتوف من برلين، اي في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٠ استدعى المستشار هتلر الملك بوريس البلغاري لزيارته، فحل ضيفاً عليه في برتشغادن (قرية بافارية على الحدود الالمانية النمسوية جعلها هتلر مقراً شخصياً له). وضرب هتلر ضربته «النفسية» منذ اللحظة الاولى فعرض على الملك مطالب الروس في البلقان واقنعه ان الاتحاد السوفياتي عازم على ادخال بلغاريا في منطقة نفوذه، فتصبح شيوعية، ويطير التاج والصولجان.

ولم يكن الملك بوريس بحاجة الى كبير اقناع في كل ما يتعلق بالشيوعية، فوافق بسرعة على قبول الحماية السياسية الالمانية ضد روسيا، على ان يذهب في التعاون مع المحور ضدها الى ابعد من ذلك الحد اذا اقتضت الضرورة. وعاد بوريس الى صوفيا، واذا بالامير بولس

اليوغوسلافي يطير بدوره الى برتشغادن ويوافق على ما وافق عليه بوريس. ثم جاء دور المارشال انطونسكو (وصي العرش الروماني) ، فأيد بدوره هتلر، وفتح ابواب رومانيا في الحال امام الجيش الالماني بحجة تدريب الجيش الروماني. والواقع ان الالمان ارادوا من احتلال رومانيا انشاء السد الاول الذي يمنع الروس من الزحف على البلقان، وتحقيق المطالب التي تقدم بها مولوتوف في برلين، ثم اتيح لهم بنهاية هذه الحرب تحقيقها.

وهكذا ضمن هتلر معونة بلغاريا ويوغوسلافيا ورومانيا ضد موسكو بفضل ملوكها وزعمائها، دون ان تشعر شعوبها بما كان يتحرك وراء الستار.

على ان موسكو لم تكن بغافلة عن المساعي الهتلرية في البلقان، وكما بدأ هتلر مساعيه في بلغاريا بدأت هي مساعيها في بلغاريا ايضاً، بصفة كونها مفتاح البلقان وابنة روسيا البارة.

ولما كانت الاوضاع الراهنة لا تسمح بأن يزور موسكو السوفياتية ملك، فقد خطت روسيا الخطوة الاولى في سبيل الاتصال بالحكومة البلغارية. فما كاد الملك بوريس يعود من برتشغادن حتى وصل الى صوفيا الرفيق الكسندر سوبوليف سكرتير وزارة الخارجية الروسية، حاملا الى الملك بوريس مذكرة ظلت محتوياتها سراً خفياً.

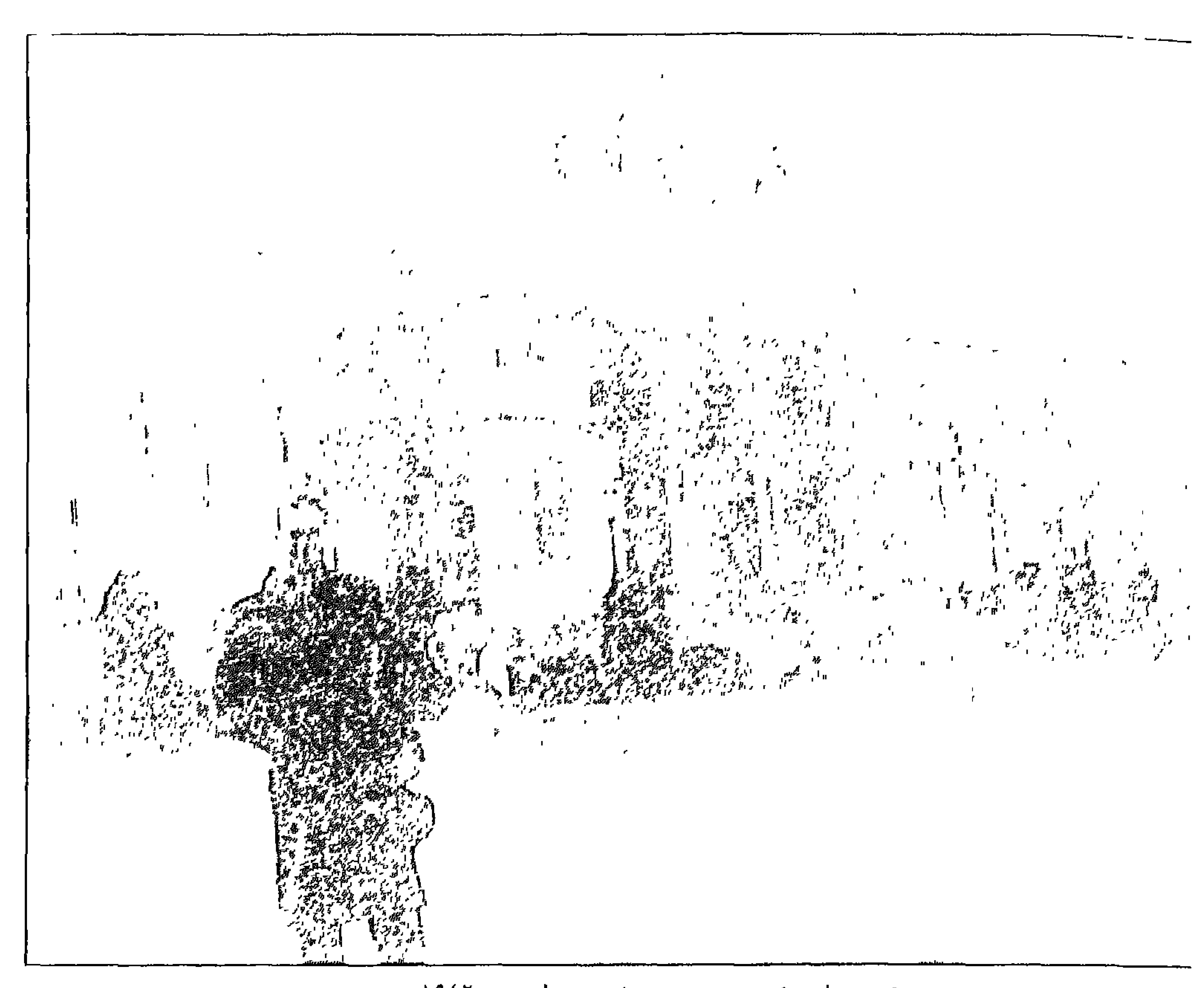
وكم كانت دهشة الملك عظيمة عندما تلا المذكرة، فوجد انها تتضمن عين المقترحات التي حذره هتلر منها في مقابلة برتشغادن. وقد اكد لي وزير الخارجية البلغاري السيد ايفان بوبوف انها كانت تتضمن المقترحات التالية:

اولاً - عقد تحالف عسكري فوراً بين بلغاريا وروسيا.

ثانياً - تتعهد روسيا على الاثر بضمان حياد بلغاريا وسلامتها.

ثالثاً - ابتياع جميع المنتوجات البلغارية (وكانت تشتريها المانيا يومئذ).

رابعاً - تتعهد روسيا ان تذيع على العالم اجمع انها تعتبر سلامة



في حدائق قصر سوسرون في فيينا، ربيع ١٩٤٢





رشيد عالي الكيلاني
فوق والحاج امين
الحسيني

بين عادل العظمة الى اليمين
واكرم زعيتر في استانبول
صيف ١٩٤١

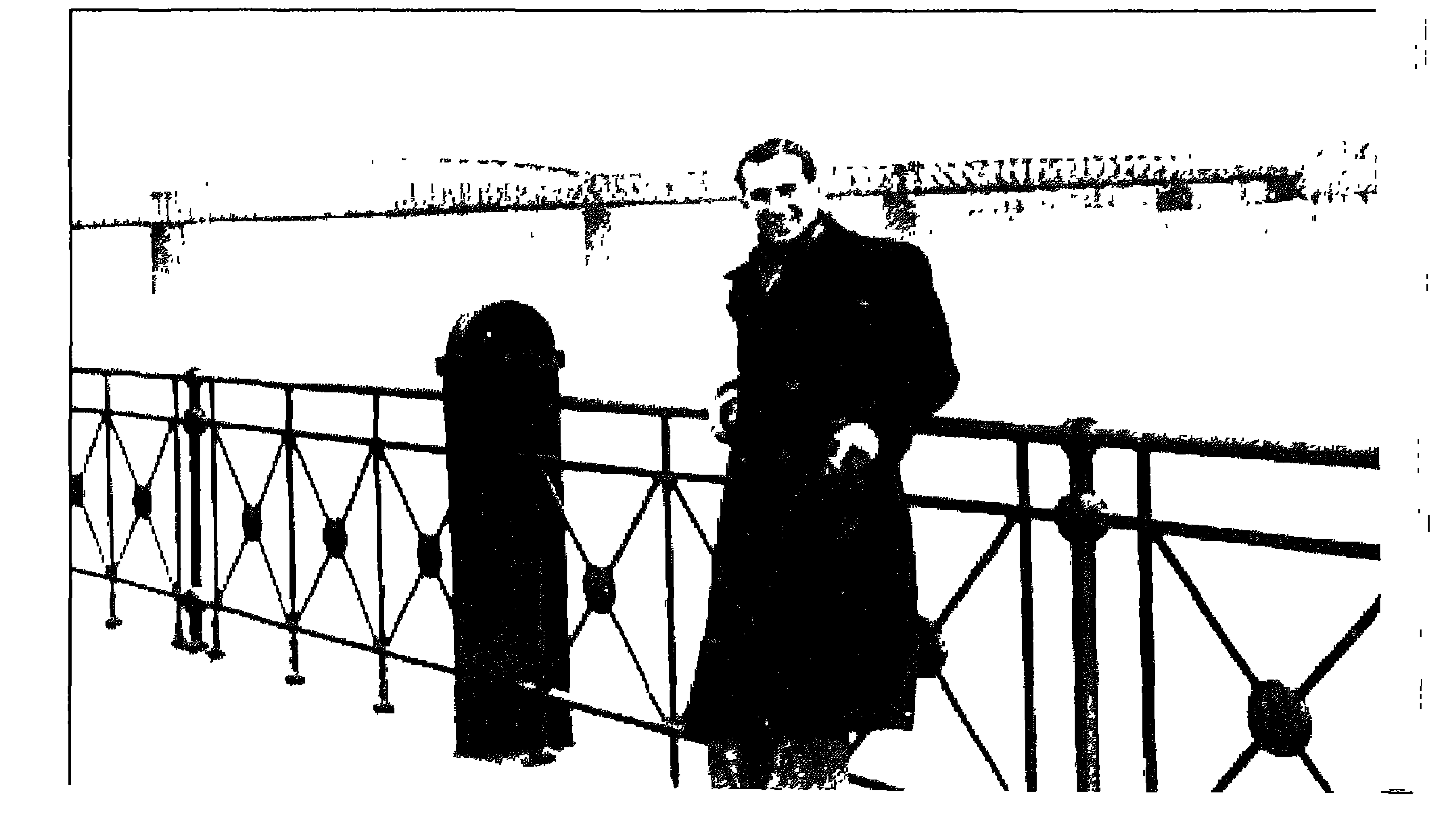


ايفا براون
في بافاريا،
عام ١٩٤٠

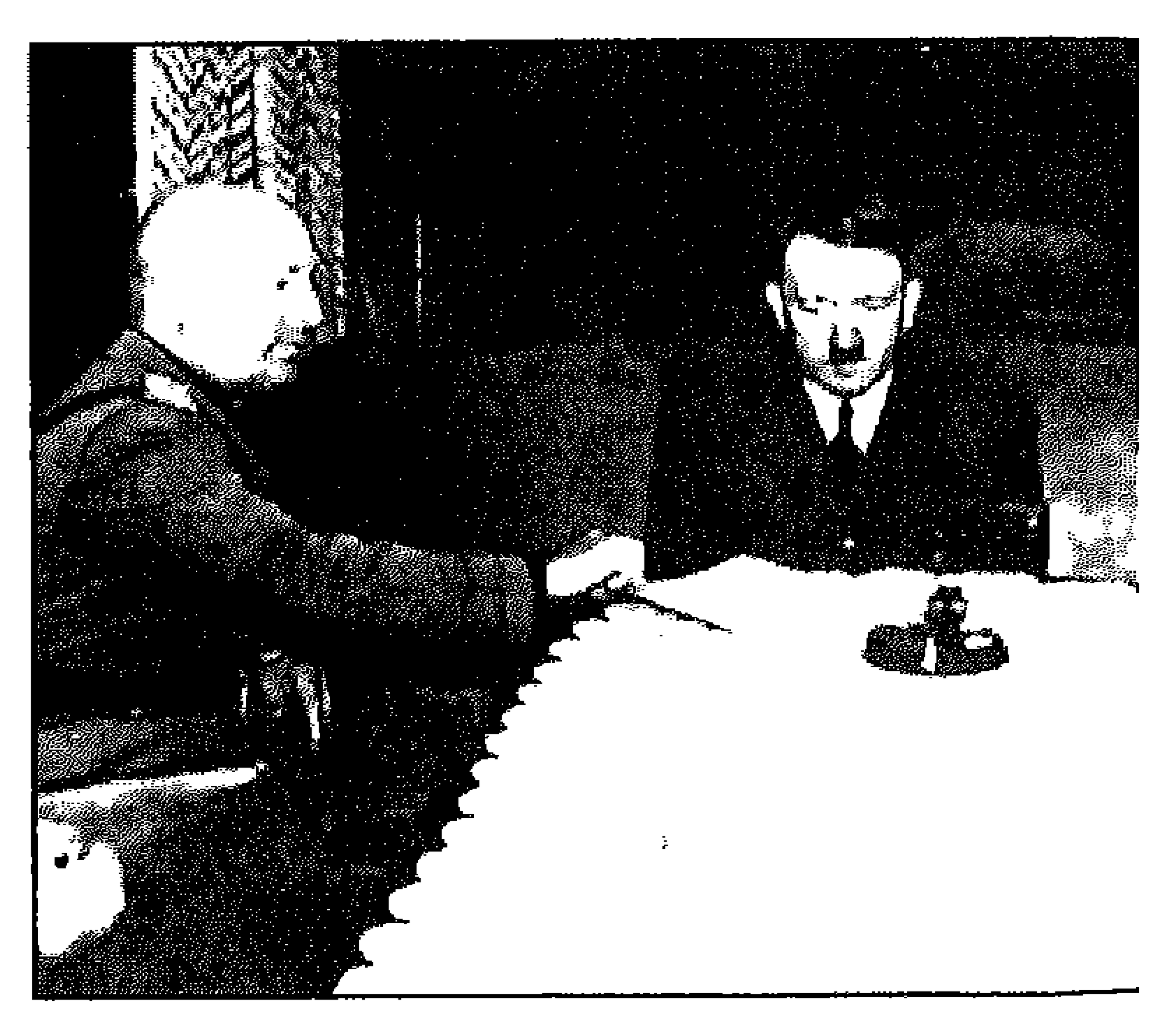


مع واصف كمال
وايفا في
صوفيا،
شتاء ١٩٤٢

على ضفاف نهر
الدانوب قرب فيينا،
ربيع ١٩٤٢



جندي سوفياتي
يرفع العلم الاحمر
فوق الـ «رايشتاغ»
(مبنى البرلمان)
في برلين يوم
سقوطها، اول
ايار (مايو) ١٩٤٥.



المحور: هتلر وموسوليني، خريف ١٩٤٠.



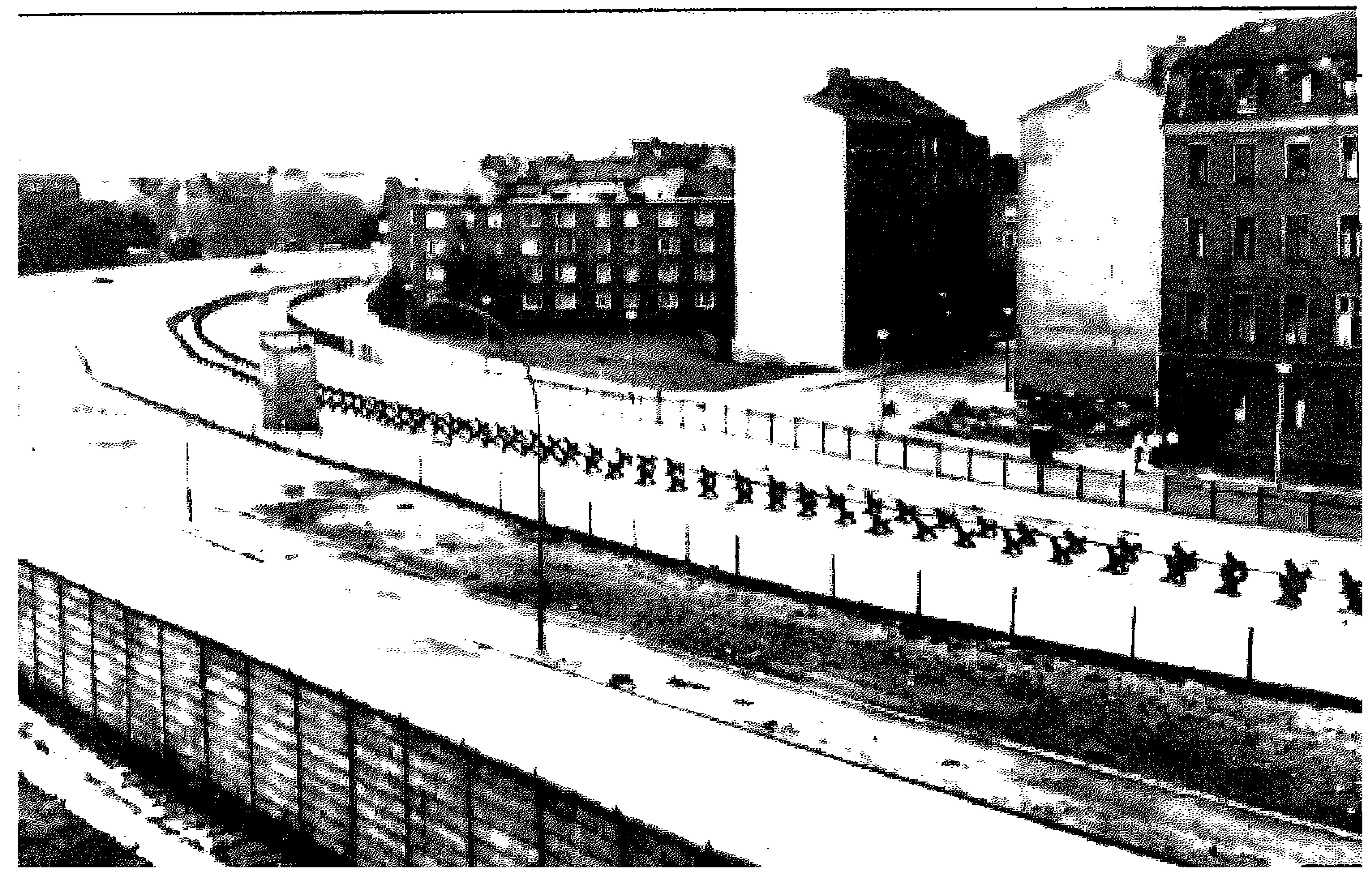


الحلفاء: ستالين وروزفلت وتشرشل، شتاء ١٩٤٥

امام بوابة براندنبرغ
في برلين، شتاء ١٩٦٣.



الشريط العازل بين برلين
الشرقية والغربية، مطلع
الستينات.



بلغاريا شرطاً لسلامتها، فكل من يمسها يجد الجيش الاحمر في وجهه.

مقابل هذه العروض طلبت روسيا ما يلي:

اولاً - السماح للاسطول السوفياتي في البحر الاسود باستعمال مرفأي بورغاس وفارنا البلغاريين كقاعدتين له.

ثانياً - السماح لروسيا بتحويل المطار المدني في بورغاس الى مطار حربي.

وهنا اترك الكلام للسيد بوبوف الذي قال:

- دعاني الملك بوريس اليه بعد ظهر ذلك اليوم، وطرح امامي المذكرة السوفياتية،قائلا: اقرأ!

وقرأت المذكرة بسرعة ويداي ترتجفان من رهبة الموقف وخطورة الموضوع فلما انتهيت قلت له:

- ارى ان القسم الاول قابل للبحث اما الثاني فيعود امره لكم!

وظل الملك صامتاً، ينقر على المائدة باصابعه، ثم قال:

- يجب ان نعرف رأي الانكليز في القضية. هذا عليك يا ايفان...

ونهضت من لدن الملك، وقبل ان اتخطى الباب قال:

- والاميركيين ايضاً... لا تنس الاميركيين...

انتظر الموفد السوفياتي سوبوليف جواب الملك بوريس اسبوعاً. ولم يحاول خلاله ان يتصل بالحكومة البلغارية لأن الحكومة كانت في الواقع اداة في يد الملك خاصة فيما يتعلق بالشؤون الخارجية.

وفي نهاية الاسبوع اجيب الموفد السوفياتي بأن الحكومة البلغارية تحتاج الى مدة من الزمن لدرس المقترحات، وستبعث بجوابها عليها الى موسكو رأساً بالطرق الديبلوماسية العادية. وكان هذا الجواب بمثابة دعوة الى الموفد لكي يعود الى بلاده، فغادر صوفيا في اوائل كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٠، وهو يشعر بمرارة وخيبة.

وهنا اترك الكلام لوزير الخارجية البلغاري السيد بوبوف، قال:

- عرضنا المقترحات السوفياتية على الالمان، فأجابوا ان اقل ما

ينتظرون منا هو الرفض الفوري. اما الانكليز فقد سكتوا بضعة ايام قبل ان يبلغونا بصورة غير رسمية انهم لا يتدخلون في استقلال بلغاريا السياسي، فلها ملء الحق في ان تتعاقد مع من تشاء، ومع ذلك فإنهم يحتفظون لأنفسهم بحق «اعادة النظر في موقفهم» في حالة قبول المقترحات.

وكان هذا الجواب بمثابة رفض مشفوع بتهديد خفي. اما الاميركيون فقد ذهبوا في الصراحة الى ابعد مدى، فقال لي الوزير الاميركي المستر ايرل: «نحن لا نريد ان تصبح بلغاريا قاعدة سوفياتية»

ولا بد من الملاحظة بأن المذكرة السوفياتية كانت اول حركة عدائية تقوم بها موسكو ضد المانيا مباشرة منذ عقد ميثاق عدم الاعتداء الموقع في سنة ١٩٣٩ وقد اضطرت الى الاقدام على ذلك لأن تلك الاسابيع كانت تشكل المرحلة الحاسمة في مصير البلقان، فاما ان يسير مع المانيا او يسير مع روسيا ضدها.

وكانت غاية الروس من اتخاذ بلادنا قاعدة عسكرية، متعددة الاهداف، اهمها:

اولاً - تهديد الالمان من المؤخرة في حالة دخولهم الى رومانيا، فإذا اصبحت بلغاريا قاعدة روسية عدل الالمان عن احتلال رومانيا واستخدامها ضد الاتحاد السوفياتي (وقد احتلوها فعلا بعد ذلك بأيام قليلة).

ثانياً - ارغام تركيا على التعاون مع روسيا، لأن قاعدة بورغاس المطلوبة لا تبعد اكثر من بضعة كيلومترات عن تركيا، كما ان الحدود البلغارية تقع على مرمى قنبلة من المضايق، فيكتمل بذلك تطويق تركيا من الشرق والغرب.

ثالثاً - الاقتراب عسكريا من البحر المتوسط، استعداداً للطوارىء، خاصة في حالة الحرب مع بريطانيا او التحالف معها.

ولم يكن باستطاعة الملك ان يتحدى الرأي العام الموالي للروس برفض تلك المقترحات رسميا، فنام عليها، وانكرت الحكومة البلغارية وجود مقترحات رسمية قائلة ان سوبوليف تباحث بصورة غير رسمية معها.

وكـان التـغلغل الالماني في رومـانيـا قـد بدأ، ولم يعـد الوقت يسـمح بالانتظار. لذلك ضربت موسكو عرض الحائط بالعرف الديبلوماسي، وعهدت الى ممثلها في صوفيا بابلاغ زعماء الاحزاب السياسية البلغارية تفاصيل تلك المقترحات، رغبة منها في اثارة الرأي العام على الحكومة فيضطر الملك تحت الضغط الى قبولها.

واحـدث هذا العـمل رد فـعل قـويا في بلغـاريا، وانهـالت البـرقـيـات والعرائض على القصر الملكي وعلى رئيس المجلس مؤيدة تلك المقترحات، وراح انصـار موسكو يوزعـون المناشيـر ويكتـبون على الجـدران داعين الى عقد التحالف على اعتبار انه يضمن حياد بلغاريا طيلة الحرب.

وازاء هذه الحـملة بدأ الملك بوريس حـملة مـعـاكسـة، وراح خـصـوم التحـالف يذكرون الشـعب البلغـاري بأن له مطالب قـومـيـة مـعروفـة، اهمـها مقدونيا وتراقيا، ويقولون ان التحالف مع روسيا يؤدي الى الحرب مع تركيا واليونان، ويغضب في آن واحد جميع الدول. وكانت اسهم روسيا العسكرية يومئذ متدنية بسبب فشلها في الحرب مع فنلندا، فتركت هذه الاقوال اثرها في الرأي العام، وفترت حماسته للمقترحات، ولم يلبث حتى نسيها.

وهكذا رفض الملك بوريس ضم بلغاريا الى المعسكر السوفياتي رفضاً نهائياً وانضم الى المعسكر الالماني. ولم تمر ثلاثة اشهر على ذلك حتى كان الجيش الالماني يدخل بلغاريا في آذار (مارس) ١٩٤١، ويستـخدمـها قاعدة للهجوم على اليونان وعلى يوغوسلافيا.

ولو رضيت بلغاريا يومئذ بالمطالب السـوفيـاتيـة، لتبدل وجـه الحرب كلها.

اذا كان بوريس قد رفض علناً التحـالف مع روسيـا، فإنه لم يكن قد اصبح بعد حليف المانيا، وكان يتظاهر بالحرص على حياد بلغاريا، ويبني سياسـته على التعاون مع المانيا من جـهة، ومع انكلترا واميركا من جـهة اخرى. ومع ان بوريس الماني الاصل، فإنه لم يكن مواليا لالمانيا او غيرها، بل كان يهمه المحافظة على عرشه اولاً، وتوسيع حدود بلغاريا ثانيا. وفي

سبيل هاتين الغايتين كان يتقرب تارة من الالمان وطورا من الانكلوسكسون. ولكنه لم يحاول مرة واحدة التقرب من موسكو، لأنه كان يعتقد ان روسيا تشجع الشيوعية في بلغاريا والشيوعية هي عدو الملكية اللدود.

ولما اطمأن الالمان الى ان بلغاريا رفضت بصورة نهائية التحالف مع روسيا شرعت جيوشهم تتدفق علنا على رومانيا منذ نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٠ وتعزز الطلائع التي دخلت بصورة شبه سرية في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٠.

ومن غريب الصدف ان اول شخص علم بدخول الالمان الى رومانيا كان وزير مصر المفوض. فقد ذهب يومئذ يقوم بجولة في ضواحي بوخارست مع صديق تركي فضلّ الطريق، ووصلت سيارته الى ثكنة رومانية عسكرية، واذا بها تعج بالالمان!

وفي الوقت عينه الذي كان الالمان يتدفقون على رومانيا، هاجم موسوليني في ٢٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٠ اليونان واسرع الانكليز الى نجدتها، وانتقلت اسرابهم الجوية الى مطاراتها، فأصبحت على مسافة ساعتين من آبار البترول الرومانية اذا ما مرت فوق بلغاريا، واصبح باستطاعة الانكليز تدمير بلوشتي بسهولة تامة، ولا سيما وان الالمان لم يكونوا قد نظموا بعد الدفاع الجوي عنها.

وهنا قام الملك بوريس بمناورة ماهرة عادت على الالمان بفائدة كبرى، وساعدت فيما بعد على جر بلغاريا الى المعسكر الالماني. ففي اوائل كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٠ استدعى وزير الخارجية البلغاري السيد ايفان بوبوف الوزير البريطاني المفوض المستر بيدل، والوزير الاميركي المفوض المستر ايرل، وابلغ كلا منهما ان الحكومة البلغارية جد حريصة على المحافظة على حيادها التام. وكما انها رفضت المقترحات السوفياتية، وحالت بذلك دون دخول الجيش الاحمر الى بلغاريا، فإنها راغبة في منع الجيش الالماني من دخول اراضيها وهي تطلب الى انكلترا ان تساعدها على ذلك.

وسـأل الوزير البـريطاني كـيف تسـتطيع بريطانيا مسـاعـدة بلغـاريا، فأجابه بوبوف:

– لقـد ابلغنا الالمان انه اذا حلقت الطائرات البـريطانيـة المرابطة في اليونان فوق اراضي بلغاريا لكي تضرب آبار البترول الرومانية فإن الجيش الالماني يقتحم بلغاريا ويحتلها فورا!

وحـمل الوزير البـريطاني النبـأ الى حكومـتـه وكـانت انكلتـرا يومـئـذ مستعدة لقبول اي طلب كان في سـبيل استبقـاء بلغـاريا على الحـياد، لأن دخول الجيش الالماني اليـها يجعله على حـدود اليونان، فيتدخل في الحـرب اليونانية الايطالية ويقلب الخطط العسكرية البريطانية رأسا على عقب.

وبعد بضعة ايام مثل بوبوف امام اللجنة الخارجية في المجلس النيابي الـ «سـوبرانيـه» وابلغـهـا ان الحكومـة البـريطانية وافقت علـى احـترام حـياد بلغاريا، ولن ترسل طائراتها لضرب الآبار الرومانية.

وتختلف الآراء فـي تأويل خطورة هذا الحـدث. فمن قـائل ان الاحـجـام البريطاني مكّن الالمان من تثبيت اقدامهم في رومـانيا واستثمار آبارها. ومن قـائل انهم احـجـمـوا عـمـدا لأنـهم كـانوا يودون ان يتـزود الجـيش الالماني بالبترول الـلازم ليهاجم روسيا ويضـعفها. ومن قـائل ان هذا التـدبير اسـاء الى الالمان انفسـهم، فلو انهم احتلوا بلغـاريا في شـتـاء ١٩٤٠ وزحـفوا على اليـونـان، لوفـروا على انفـسـهـم القـيـام بحـملة ربيع ١٩٤١ ضـد اليـونان ويوغوسلافيا، وربحوا شـهراً كاملا في حربهم مع روسيا، وهو الشـهر الذي ادركهم فيه الشتاء امام موسكو، فكان ما كان.

* * *

ادهشـتني خـلال اقامـتي في صـوفـيا ظاهرة فـريدة. فكثـيراً مـا كنت اصـادف في الشوارع وجـوهاً ليست غريبة عني، فيخيل اليّ ان اصـحـابهـا من العـرب الذين قـذفتـهم اقـدار الحـرب مـثلي الى اوروبا، فـأسـارع الى مخاطبتهم واذا بهم من البلغار!

وقد تكرر معي هذا الالتباس حتى استقر في نفسي اعتقاد بوجود

شبه غريب في السحنة بين البلغار والعرب، مع ان العرب ساميون، والبلغار مزيج من العنصرين البلغاري والسلافي.

عرضت هذه الفكرة على مدير قلم المطبوعات وسألته رأيه فيها، فأجابني:

– هناك شخص واحد يستطيع الجواب على ذلك.

– ومن هو؟

– رئيس الوزارة السيد بوغدان فيلوف!

قلت: وما علاقة رئاسة الوزارة بالدراسات العنصرية؟

فقال: ان رئيس وزارتنا ليس سياسياً، بل كان استاذاً في الجامعة قبل ان استدعاه الملك بوريس الى الحكم في العام الماضي. انه اختصاصي في علوم الآثار الشرقية، وقد زار بلادكم مراراً قبل الحرب، ويعرف الكثير عن العرب ولا شك انه يستطيع ان يجيب على سؤالك اذا كان الامر يهمك!

ورجوته في الحال ان يطلب لي موعداً من الرئيس فيلوف، فوعدني خيراً. وبعد يومين دعاني الى مقابلته وقال:

– ان الرئيس فيلوف يرحب بزيارتك اليه، ويود ان يرى عربياً في بلاده بعد ان رأى العرب في بلادهم. ولكنه يشترط عليك شرطاً واحداً...

– وما هو؟

– الا تبحث معه في السياسة، بل تعتبر اجتماعك به زيارة شخصية بين بلغاري وعربي، لا بين رئيس وزارة وصحافي!

وقبلت الشرط. وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم كنت ادخل على الرئيس في مكتبه في شارع راكوفسكي واذا بي امام رجل تدل ملامحه كلها على انه ليس سياسيا، وان الذين نقلوه من بين الكتب الى ما بين الملفات قد جنوا عليه!

والواقع ان هذا الانتقال كلفه حياته اذ اعتقل بعد انسحاب الجيش الالماني في ايلول (سبتمبر) ١٩٤٤ ودخول الجيش الاحمر، ثم حوكم واعدم بتهمة التعاون مع الالمان

رحب بي الرجل ترحيباً خاصاً وجلس يحدثني عن رحلاته الى بلادنا، وقال انه تخصص بدراسة الآثار في تدمر، وقضى عدة سنوات يشترك في اعمال الحفر والتنقيب. ثم عرض عليّ كتاباً ضخماً كتبه باللغة البلغارية عن آثار تدمر وبعلبك.

والقيت على الرجل سؤالي عن اسباب التشابه بين السحنة العربية والسحنة البلغارية فأجاب:

– السبب بسيط جداً. ففي العهد العثماني الذي استطال اربعة قرون ونيفاً، كان الاتراك يستقدمون الفرق العربية الى بلغاريا. ولا تنس ان عدد العرب في الامبراطورية العثمانية كان ضعف عدد الاتراك، وبالتالي كانت اكثرية الجيش العثماني عربية. وهكذا انتشر العرب في بلادنا طيلة اربعمئة سنة، فاختلطوا بنا، ونشأ عن هذا الاختلاط هذا الشبه الذي تلاحظه في السحنة، خاصة في العاصمة وفي السهول والسواحل!

وعرض عليّ فيلوف معجما للغة البلغارية اشار الى بعض كلماته بخط احمر، وقال:

– هذه هي الكلمات العربية الاصل في لغتنا. لقد اخذناها عن الاتراك، والناس يعتقدون حتى الآن انها تركية. ولكنني حصرتها بمساعدة بعض الخبراء، لكي نشير الى اصلها الصحيح في الطبعة الجديدة من المعجم.

– وكم عددها؟

– انها لا تقل عن ثلاثة آلاف كلمة!

وهنا انتهى الوقت المحدد للزيارة، فودعت الرئيس شاكراً له لطفه، وخرجت وانا افكر في عظمة الثقافة العربية، واثرها البعيد في اقطار نكاد نجهل وجودها!

١٤

■ صوفيا، شباط (فبراير) ١٩٤٢

انقضى شهر شباط (فبراير)، وانا انتظر في صوفيا وصول الـ «فيزا» الفرنسية، لكي اتابع السفر الى دكار. واذا كانت الحياة في صوفيا هادئة جميلة كما وصفتها سابقاً، فإن البرد الشديد كان ينغص عليّ حياتي. فقد كانت الثلوج تكسو كل شيء، وكانت الحرارة تهبط ليلا الى الثلاثين تحت الصفر. ورغم وسائل التدفئة المتوفرة، كنت اشعر بنفور شديد من هذا المناخ. لقد عرفت الثلج للمرة الاولى في استانبول، وها انذا «اعاشره» في صوفيا ليل نهار، فتزداد نقمتي عليه، ويزداد حبي الى بلاد تشرق فيها الشمس حتى في صميم الشتاء!

ولما انتهى شهر شباط (فبراير)، ذهبت الى دائرة الشرطة لأجدد تذكرة الاقامة، فاعتذرت عن تجديدها، قائلة انها تلقت امرا بذلك. فقلت:

– ومن اين جاء هذا الامر؟

فأجابني المدير: من السلطات الالمانية!

قلت: وما دخل السلطات الالمانية في شؤوني، وأنا لست المانياً؟

فضحك الرجل وأجاب: لا تنس انك لم تدخل بلغاريا الا بعد حصولك على الـ «فيزا» الالمانية، ومعنى ذلك ان الالمان هم المسؤولون عنك وليس البلغار!

وكانت مفاجأة ادهشتني ونشرت افكاري ذات اليمين وذات الشمال تتساءل وتستفسر. قلت:

– وما العمل الآن؟

فأجابني: اليوم صباحاً ورد علينا الامر بأن نمنع عنك «التمديد»، ولا شك في ان الالمان سيتصلون بك اليوم او غداً. هذه هي العادة!

وكنت قد انتقلت من فندق «سلافيانسكا» الى حجرة استأجرتها في احد البيوت، فسارعت اليها انتظر الوافد، خشية ان يزورني وانا غائب عنها.

ومر اليوم الاول من آذار (مارس)، وعقبه الثاني، ولم يأت احد. على ان الوافد المنتظر اطل في صباح اليوم الثالث، فإذا هو صحافي الماني، يدعى فراي هر فون زاس، رئيس نقابة الصحافيين الاجانب في صوفيا. وكنت قد التقيت به مراراً في اثناء اقامتي.

ولاحظت على وجه الرجل شيئاً من الارتباك، فقلت له:

– هر فون زاس، يلوح لي انك قادم اليّ بمهمة...

فابتسم واجاب:

– لقد سهلت عليّ بسؤالك الدخول في الحديث رأساً. اجل انا موفد اليك بمهمة من قبل الملحق الصحافي في المفوضية الالمانية الدكتور برغه.

– خير ان شاء الله؟

وسكت الرجل لحظة، ثم استطرد قائلا:

– انك تنتظر على ما يظهر وصول الـ «فيزا» لكي تتابع السفر الى دكار، اليس كذلك؟

قلت: بلى!

قال: لقد ورد نبأ من السلطات الالمانية في برلين، يدعوك الى السفر الى فيينا.

- فيينا؟ وماذا تريدني ان افعل في فيينا؟

فأجاب: لا ادري شيئا من الامر، ولا اعرف السبب. كل ما هنالك ان الدكتور برغه عهد اليّ بابلاغك هذه الرسالة، بصفتك زميلاً لي!

فقلت: ولكنني لا اريد الذهاب الى فيينا، وليس لي ثمة سبب للذهاب اليها!

فأجاب: هذا ما اراد لي الدكتور برغه ان اوضحه اليك. انني ارجوك الا تعارض في السفر اليها. لا تنس انك الآن في اوروبا، فلا فائدة في المعارضة. وما دامت برلين تريدك ان تسافر الى فيينا فذلك يعني انها تدرك ما تريد، وتعني ما تريد، ولا مفر من السفر الى فيينا!

وتذكرت في تلك اللحظة كيف تلقى البوليس البلغاري الامر من الالمان بعدم تجديد تذكرة الاقامة وقلت للرجل:

- هل لك ان تجمعني بالدكتور برغه؟

وفي الحال تناول الرجل سماعة التلفون واتصل به، ثم قال لي:

- غداً صباحاً ينتظرك الدكتور برغه في دار المفوضية الالمانية!

■ **صوفيا، ٤ آذار (مارس) ١٩٤٢**

في الموعد المعين، كنت جالساً امام الملحق الصحافي في المفوضية الالمانية، الدكتور برغه. رجل مربوع القامة، باسم الوجه يتحلى بالآداب الرفيعة الرقيقة التي يمتاز بها ابناء فيينا - وهو منهم - عن سائر الالمان. وانني اذ اكتب هذه السطور، اتصور المصير المشؤوم الذي انتهى اليه هذا الرجل بعد سنتين. ففي آذار (مارس) من العام ١٩٤٤ سافر الى فيينا في زيارة خاصة، وبينما كان عائداً بالطائرة المدنية الى صوفيا، اخذت طائرة تحوم فوق مطار بلغراد لتحط عليه، واذا بمطاردة اميركية تنقض عليها وتصليها وابلا من رشاشاتها، فاشتعلت فيها النار، وسقطت الى الارض

مع ركابها كومة واحدة.

بدأ الرجل الحديث قائلا: لقد ابلغك الهر فون زاس امس رسالتي. ويؤسفني الا استطيع ان اضيف عليها شيئا. كل ما في الامر انه وردت على المفوضية برقية من برلين، تطلب الينا ان ندعوك الى السفر الى فيينا في الحال. ولما كنت صحافيا، فقد رأت المفوضية من قبيل اللياقة ان تعهد الي، كملحق صحافي، بنقل النبأ اليك!

قلت: اهي دعوة ام امر؟

فارتبك الرجل لحظة، ثم ابتسم واجاب:

– لك ان تفسرها كما تشاء. المهم ان تسافر فوراً، وان تعتبرها دعوة!

وادركت عقم النقاش مع الرجل، فودعته وخرجت. وقبل ان اترك الحجرة قال لي:

– ارجوك ان ترسل اليّ اليوم جوازك لكي اجهز لك التأشيرات اللازمة للسفر!

غادرت دار المفوضية وانا اضرب اخماساً بأسداس. من استشير في امري؟ ليس في صوفيا احد من العرب غير الاخ محيي الدين الطويل الذي كان يرافقني في زيارتي هذه. وكان حائراً مثلي في تعليل الامر. فكرت في الابراق الى سماحة المفتي الاكبر في روما، والى اصدقائي فيها وفي برلين. ولكن ما الفائدة من ذلك ما دامت الرقابة العسكرية ستصادر كل شيء؟

كان جوازي فرنسيا، لأن بلادنا كانت يومئذ لا تزال في العرف الدولي خاضعة للانتداب الفرنسي، فذهبت الى القنصل الفرنسي المسيو كولونا – ولا يزال الى اليوم في منصبه – استشيره في الامر، فأجاب:

– لا استطيع ان افسر لك هذه الاحجية. نحن الآن في اوروبا، وفي حالة حرب، والالمان هم اسياد القارة، يفعلون فيها ما يشاؤون، فلا مفر لك من السفر الى فيينا. وما دام البلغار قد رفضوا تجديد تذكرة الاقامة، فذلك يعني انهم تلقوا الامر من الالمان بذلك.

قلت: الا تستطيعون انتم التدخل لدى البلغار لكي يجددوا البطاقة رغم

الامر الالماني؟

فضحك واجاب: انسيت يا صديقي اننا نمثل دولة مهزومة، وان فيشي لا تستطيع معارضة برلين في فرنسا نفسها، فكيف بها في صوفيا؟ لو كنت مكانك لما ازعجت دماغي في التفكير. ان الطريقة التي ابلغك بها الالمان امر السفر لتدل على انهم لا يريدون بك شرا، والا لاعتقلوك ونقلوك. ربما كانت هناك وشاية ما. من يدري؟

وخرجت من القنصلية وانا لا ازال مترددا. ثم ادركت ان التردد عقيم الفائدة، فسلمت امري الى الله والى ثقتي بنفسي، وذهبت توا الى البيت حيث ارسلت جوازي الى الدكتور برغه.

هكذا شاء القدر ان تمشي خطاي نحو فيينا بدلا من دكار، ولا مرد لمشيئته اذا ما نزلت!

■ صوفيا، ٤ اذار (مارس) ١٩٤٢

أشعرت بنفسك يوما، ايها القارىء كريشة في مهب الريح؟

تلك كانت حالي في ذلك اليوم، بل ابتداء منه الى نهاية غربتي. لقد كنت حتى ذلك اليوم اوجه خطاي في الاتجاه الذي اريد، ضمن مشيئة القدر طبعا. اما اليوم فقد اصبحت رهن ارادة غيري دون ان املك من امري شيئا.

في صباح اليوم التالي اعاد لي الدكتور برغه الجواز، فإذا به يحمل تصديقا للفيزا الالمانية المعطاة لي في استانبول، مع سمات للمرور عبر صوفيا وكرواتيا. وقد ارفق برغه الجواز بكتاب يرجوني فيه ان اغادر صوفيا الى فيينا في المهلة الواقعة بين ٥ و١٠ آذار (مارس) على اقصى حد. ولم ينس ان يختم كتابه على الطريقة الانكليزية، بعبارة «خادمكم المطيع»!

واذا كان هذا المصير المجهول قد ادخل بعض الانقباض الى نفسي، فإنه اثار فيها في الوقت نفسه حرارة الفضول ولذة المغامرة. وكيف لا تستهويني رحلة الى فيينا، لم تكن «لا على البال ولا على الخاطر» كما

يقولون؟

رحت اعد حقائبي، واحشوها بصورة خاصة بالمواد الغذائية المحفوظة، اذ وصف لي العائدون من المانيا حالة التغذية فيها وصفا لا يرضي البطون الشرقية.

وعقدت العزم على السفر في صباح اليوم الثامن من آذار (مارس)، فحجزت مقعدا في القطار الى بلغراد، ورحت اودع صوفيا مع الاخ محيي الدين بليلة ليلاء حمراء!

وفي الساعة السادسة صباحاً، كنت اركب القطار من محطة صوفيا في الطريق الى بلغراد، وقد وقف يودعني الاخوان محيي الدين الطويل ومحمد المغربي وجورج معلوف

■ **صربيا، ٨ آذار (مارس) ١٩٤٢**

قبل الحرب كان قطار الشرق السريع يسافر رأسا من استانبول الى فيينا وبرلين دون توقف. على ان احتلال يوغوسلافيا عرقل سيره المباشر، فأصبح يسير بين صوفيا وبلغراد اولاً، ومن ثم ينتقل المسافر الى قطار آخر يحمله الى المانيا.

وكانت القطر مجهزة قبل الحرب بجميع وسائل الرفاهية والتدفئة، فأتت الحرب عليها كلها، وتركتها هياكل خشبية حديدية تسير على السكة.

سار القطار بنا سيراً وئيداً بين الهضاب البلغارية الشرقية، وقبيل الظهر بلغنا نقطة الحدود بيروت، ثم دخلنا صربيا، وبدخولها اصبحنا في منطقة الحكم العسكري الالماني المباشر. وتبدل في الوقت نفسه منظر الوجوه، فاختفت ابتسامات الظفر التي ترتسم على وجوه البلغار، لتحل محلها مرارة الهزيمة التي نزلت بالصربيين، وما رافقها من ألم وذل.

وما كاد القطار يتوغل بضعة كيلومترات في الاراضي الصربية، حتى بدأنا نرى آثار الحرب يميناً ويساراً، فهنا دبابات محطمة، وهناك حطام طائرات، وهنا سهل انتشرت عليه اسلحة معدنية مختلفة وبدت من بين

الثلوج صلبان تشهد بالمعارك الدامية التي دارت عليه.

وكلما مر القطار في منعطف، او التف حول تلة، برزت امامنا المدافع والرشاشات المنصوبة، والقلاع المبنية حديثاً لحراسة الخطوط. ولا تسل عن التدابير الدفاعية المتخذة حول الجسور والانفاق، فإنها تشبه جزءاً من خط النار.

وتابع القطار، وسار يخترق السهول الصربية الجنوبية، وقد اكتست ببياض الثلج يشوبه سواد الوحل. ما اقسى الطبيعة على اوروبا الوسطى بالنسبة الى سخائها الحاتمي على شعوب البحر المتوسط!

القطار يسير كالسلحفاة، ويرسل دخاناً كثيفاً ينشر على الحقول البيضاء غلالة رقيقة، فيزيد الجو كآبة على كآبة.

المفروض في الحجرة ان تضم اربعة ركاب، واذا بنا قد اصبحنا عشرة، والمزيد متراكم على الابواب وفي الممرات. ذلك ان صربيا لم تنهض بعد من كبوة الهزيمة، ولم يمد الالمان يدهم اليها لانشائها، ولا يزال كل شيء على حاله كما تركته الحرب.

كان مفروضاً في القطار ان يبلغ بلغراد في الساعة الخامسة، ولكن الساعة الخامسة مرت وبيننا وبين بلغراد عشرات الكيلومترات.

وشعرت بالسآمة تدب الى نفسي. فأغمضت عيني بعد ان قلت للطالب الصربي الجالس امامي ان يوقظني قبيل بلغراد.

وحقق القطار الاعجوبة، ودخل محطة بلغراد في الساعة الثامنة الا خمس دقائق تماما، وهو يصفر صفيراً متواصلا مزعجاً، كأنه يتباهى بأنه اجترح المعجزة فراح يعلن على الملأ انه وصل في تلك الليلة متأخراً ثلاث ساعات فقط عن موعده المقرر بدلا من ست او سبع كعادته.

والقيت نظرة عجلى اخيرة على جدول الاوقات الذي زودني به مكتب السفريات في صوفيا، وتأكدت للمرة العشرين من ان قطار فيينا يغادر بلغراد في الساعة الثامنة والنصف، فلدي اذن مهلة ٣٥ دقيقة للانتقال اليه.

وما ان توقف القطار حتى فتحت النافذة لأنادي حمالا، فإذا بأحدهم

واقفا تجاهي تماماً كأنه على سابق موعد معي، فعرف من نظرتي انني اريده، وعرفت من زيه انه هو المنشود. وقبل ان اناديه تقدم نحوي وقال بالصربية ما ينبغي ان يكون معناه «ناولني حقائبك» فاخذت القي بها اليه. ثم خرجت الى ممر العربة لأنزل بدوري فوجدته لا يزال يعج بالركاب وهم يتدافعون نحو الباب ويتخاصمون ويتصايحون.

وادركت ان انتظار دوري سيستهلك دقائقي الثمينة المعدودة فعدت الى النافذة وقفزت منها الى الرصيف، فتلقاني الحمال بساعديه، وهكذا وطئت قدماي الارض الصربية لاول مرة.

جلت بنظري في المحطة فرأيت آثار القصف والنار لا تزال ظاهرة في كل مكان. وكل ما في فنائها من حواجز وابواب وممرات مرتجل وسط الانقاض ارتجالا. ولا عجب فقد اغارت الطائرات الايطالية على محطة بلغراد اكثر من عشرين مرة، ولم تتركها الا خرائب وحطاما. وكانت المحطة مضاءة بمصابيح زرقاء ضعيفة ترسل انوارا شاحبة تزيد مظهرها فقراً وكآبة.

١٥

■ بلغراد، ٨ آذار (مارس) ١٩٤٢

كان عليّ ان انتقل في محطة بلغراد الى القطار الذي ينقلني الى فيينا.

واذا بالحمال يسألني بالتركية:

– وايهما تريد؟

قلت: قطار فيينا طبعا!

فأفهمني الرجل ان هناك قطارين يسافران من بلغراد الى فيينا في آن واحد تقريبا، ولكن كلا منهما يدخل الحدود الالمانية من جهة مختلفة. ثم ان الاول قطار مدني فقط، والآخر قطار عسكري فيه عربة للمدنيين.

قلت له: وأيهما الاسرع؟

فأجاب: العسكري طبعا، لأنه لا يتوقف على جميع المحطات كالقطار المدني.

قلت: اذاً، هلم بنا اليه!

نقل الحمال حقائبي الى العربة المدنية من القطار العسكري وكان

حظي كبيراً، اذ وجدت فيها عربة اسرة (فاغون لي) فاستقبلني خادمها، وهو نمسوي تجاوز الستين من عمره، وعين لي حجرتي.

واطللت من النافذة لأحاسب الحمال، فإذا به يطلب الف دينار (٢٥ ليرة سورية حسب السعر الرسمي) بمعدل مئتي دينار للحقيبة، بينما الاجرة المقررة لها ١٠ دنانير فقط.

قلت له ان عدد حقائبي اربع، فمن اين جاء بالخامسة، فابتسم وقال:

– وانت... ألم تنزل من النافذة؟ لو لم اتلقاك لوقعت وتأذيت!

غاظني طمع الحمال في الطلب، بقدر ما اضحكتني لباقته في تعليل الحقيبة الخامسة، فدفعت اليه بثلاثمئة دينار، وهي كل ما كنت املك من العملة الصربية، فأبى قبولها واخذ يناقشني ويحتج شأن الحمالين في اكثر محطات الدنيا. ولكن قبل ان يثمر احتجاجه اقلع القطار، فأسرع الحمال الى اختطاف المبلغ من يدي، وراح يخاطب السماء بيديه مستأنفاً الاحتجاج.

وبعد هنيهة جاء خادم العربة، فأقفل النافذة اقفالا محكما واسدل عليها غطاء اسود ولفت نظري الى اعلان يهدد بعقوبات عسكرية صارمة كل من يفتح النافذة ليلا او يدع النور يتسلل منها. واستلم الخادم جواز سفري، وقال انه سيعود عندما يحين الوقت لابتياع تذكرة المرور في كرواتيا.

وكانت صربيا وكرواتيا تؤلفان قبل الحرب دولة يوغوسلافيا، فلما اكتسحها الالمان في سنة ١٩٤١، شطروها الى قسمين، فأصبحت صربيا دولة منفصلة تحت اشرافهم العسكري المباشر، وجعلوا من كرواتيا دولة مستقلة.

وقبل سنة ١٩٤١ كان الراكب في القطار يشتري تذكرة السفر من صوفيا الى المانيا مباشرة. فلما مزقت الحرب اوروبا الوسطى تقطعت الصلات المالية فأصبح الراكب يشتري تذكرة كل بلاد عند مروره فيها، وعليه ان يحمل معه عملة تلك البلاد ليدفع بها الثمن.

وكانت كرواتيا يومئذ دولة جديدة ولم تؤسس صلات مالية مع الدول

المجاورة فلم اجد في صوفيا شيئاً من عملتها استصحبه معي ثمناً للتذكرة فقيل لي ان اللير الايطالي مقبول في كرواتيا، فاشتريت كمية منه.

* * *

تقع بلغراد على نهر السافي، وهو الحد الذي عينه الالمان فاصلا بين صربيا وكرواتيا، فلا يكاد القطار يجتاز الجسر القائم عليه حتى يدخل محطة زميلين الكرواتية. وما ان توقف في زميلين، حتى فتحت باب حجرتي ورحت ارتقب بفارغ الصبر وصول الموظفين الكرواتيين، لأرى كنه هذه الدولة التي تمخض عنها «النظام الجديد» بالأمس القريب، واقامها بين عشية وضحاها دولة ذات سيادة وديكتاتور وألقاب.

ولم يطل انتظاري، اذ صعد الى العربة ثلاثة موظفين، يرتدون بزة رمادية اللون وهي آية في الاناقة والزخرفة. وكانوا يلقون نظرات عارضة على حجر النوم ويسيرون دون ان يسألوا شيئاً ودون ان يفتحوا الحقائب. وسألت الخادم عن معنى هذا الاستعراض فأجاب ضاحكاً:

- هؤلاء مفتشو الجمرك والمالية. انهم حديثو العهد بالاستقلال، ويحبون ان يظهروا بمظهر الكرم والتسامح مع الغرباء، لذلك لا يتعرضون لاحد من الركاب الاجانب ولو بسؤال. ولكن عندما يروق لهم ان يسألوا...

واكمل الجملة بهزة رأس، كأنه يود ان يقول: والعياذ بالله عندئذ!

* * *

ما كاد القطار يتحرك من محطة زميلين ضاربا عرض كرواتيا نحو زغرب والحدود الالمانية حتى قرع باب حجرتي، فإذا بخادم العربة وبموظف كرواتي ادركت من المقراض الذي يحمله انه بائع التذاكر. وابتدرني الخادم قائلا:

- ثمن التذكرة ٦٩٠ كونا (الكونا هي وحدة العملة الكرواتية الجديدة، وكل ٤٠ منها تعادل ليرة سورية حسب السعر الرسمي).

اجبت: معي مئة كونا فقط، ولكنني ادفع الباقي بالليرات الايطالية!

فرد الخادم: هنا لا يقبلون الا كونا او فرنكات سويسرية، ولكنهم قد

يقبلون «بنغوات» مجرية.

قلت: ليس معي سوى قليل من الليرات الايطالية واللفات البلغارية والماركات الالمانية...

فقاطعني قاطع التذاكر قائلا: لا اقبل الا كونا، ونحن لا نرغب انواع العملة التي تحملها فلدينا منها اكثر من حاجتنا. اريد كونا...

رأيت في هذا الجواب وفي اهتزاز البندقية عقم المسعى، فقفلت عائداً الى عربتي. وقبل ان اخطو بضع خطوات صفر القطار واستأنف مسيره، فعدوت مسرعاً، ولكنني ادركت انني لن استطيع ادراك عربتي، فصعدت الى العربة الاولى المحاذية لي وقرعت بابها، فإذا بها موصدة. ولم يكن بوسعي ان انزل بعد ان انطلق القطار بسرعة.

ادركت انه حكم عليّ بالبقاء معلقاً هكذا حتى المحطة التالية، فراحت الخواطر السوداء تتدفق عليّ وتجسم المخاطر المحدقة بي وانا واقف في ذلك الوضع: قد يهتز القطار بعنف فأفقد توازني واهوي الى الارض... قد يصدمني قطار آخر شحنت عرباته بعوارض خشبية ناتئة... قد يمر القطار في نفق ويخنقني بدخانه السام... قد اجمد من شدة البرد... قد تلمحني دورية عسكرية فتحسبني من الانصار وتطلق عليّ النار فاذهب ضحية... الكونا. قد وقد وقد...

وسرعان ما اخذ البرد ينفذ الى عظامي، فطرد كل هم من دماغي غير هم مداواته حيث لا دواء له. فأسلمت الرأي لله، وتكمشت بمقبض الباب واغمضت عيني...

... ولكن الله سلم، فلما توقف القطار في المحطة التالية بعد ربع ساعة خلتها دهراً سارعت الى عربتي وانا كلوح الجليد عندما يخرج من البراد، واسناني لا تصطك لأن فكي تجمد كما جمدت يداي وقدماي.

استقبلني الخادم بابتسامة عريضة وقد خيل اليه انني وفقت الى البقاء في عربة الجند فدفعته جانبا واسرعت الى جوار انابيب التدفئة، وانا مصمم على النزول في المحطة التي تنتهي عندها تذكرتي، وامري لله. ولعل

دبيب الحرارة الى جسمي هو الذي جعلني افكر في حل آخر للحصول على الكونا.

اذا كان قاطع التذاكر لا يشتري العملة الاجنبية التي احملها، فلماذا لا ابيعها الى غيره؟ ولما توقف القطار في المحطة التالية واطمأننت الى انه سيمكث خمس دقائق على الاقل، نزلت الى مطعم المحطة فوجدته غاصا بالجنود الالمان والطليان والكروات وقد استحالت اشكالهم الى اشباح وسط دخان السكاير المتكاثف الذي يسود القاعة، واختلطت رائحة السكاير ورائحة الكحول وغيرها فزادت الهواء فسادا على فساده.

ناديت الخادم وعرضت عليه ما معي من الماركات واللفات والليرات، فأخذها مني، ودفع اليّ بقبضة من الاوراق المزوقة، وقبل ان اتمكن من عدها صفر القطار منذراً بالمسير، فاسرعت اليه. ولما استويت في حجرتي رحت اعيد النظر في تلك الصفقة، فإذا بالخادم اللعين قد اعطاني ٢٠٠ كونا فقط، اي عشر الثمن الرسمي للعملة التي قبضها مني وربح تسعة اعشار. ولم اكن لأندم على ذلك لو كان عدد الكونات المقبوضة يكفي لسد ثمن التذكرة، فما العمل وانا لا ازال بحاجة الى ٢٤٠ كونا اخرى، ولم يبق في جيبي سوى نقود معدنية لا قيمة لها تقريباً؟

ولكن شبح النزول في المحطات الكرواتية، بعد ان تذوقت مرارته، جعلني ابحث عن حلول اخرى. فناديت خادم العربة وسألته اذا كان يستطيع ان يقرضني مبلغاً من الماركات (وكان قد قال لي انه لا يحمل غير ماركات) لاصرفه في المحطة التالية بأي ثمن كان فأحصل على الكونات الباقية، وعرضت عليه احدى حقائبي رهينة ريثما اصل الى فيينا. وأشفق الرجل عليّ وقدم لي ما اريد.

وفي المحطة التالية صرفت من خادم مطعمها المبلغ اللازم للحصول على ٢٤٠ كونا. وكان هذا الخادم اقل لصوصية من زميله السابق، اذ اشترى مني الماركات بربع ثمنها. وبذلك توفر لدي ثمن التذكرة الكاملة بعد جهاد وجهود بل واخطار استمرت ساعتين تقريباً!

وعدت الى حجرتي وانا على آخر رمق بعد ان دفعت ببقية الكونات الى خادم العربة ليسلمها الى قاطع التذاكر عندما يعود، وخلعت ملابسي وارتميت على السرير منهوك القوى، ومع ذلك لم يدب النوم الى جفني قبل ساعة على الاقل، قضيتها افكر في الكونا واللفا والدينار، في هذه الدويلات واشباه الدويلات، واردد مع الخادم:

– هذا البلقان... هذا البلقان اللعين!

■ **الحدود النمسوية، ٩ آذار (مارس) ١٩٤٢**

استمر القطار يجتاز الاراضي الكرواتية طيلة الليل، ومر بعاصمة كرواتيا زغرب في الساعة الرابعة صباحاً. وكنت في تلك الاثناء غارقاً في النوم، فلم أر شيئا. وحتى لو كنت مستيقظاً لما استطعت ان ارى شيئاً، اذ كان نظام التعتيم سائداً في كل مكان، فلم نكن لنرى على جانبي الطريق سوى بياض الثلج.

بلغ القطار الحدود الالمانية في الساعة السادسة صباحاً، عند نقطة بروكل الواقعة عند مدخل النمسا الجنوبي. وكنت لا ازال غارقاً في نوم عميق، عندما ايقظتني نقرات عنيفة على الباب، فنهضت متثاقلا وفتحته، واذا بخادم العربة، ومعه شرطي الماني يحمل جوازي. والقيت على الشرطي نظرة استفهام، فرد عليّ بتأدية التحية العسكرية وقال: تفضل ارتد ملابسك واتبعني!

قلت: خير ان شاء الله؟

قال: لا ادري، ولكن رئيس نقطة الحدود يريد ان يراك!

تعوذت بالله من الشيطان، ورحت ارتدي ملابسي على عجل وانا اضرب اخماساً بأسداس، وذكرى الكونا لا تزال طرية في دماغي. ولما انتهيت قادني الشرطي نحو بناء صغير مجاور للمحطة.

وكان الظلام لا يزال شديداً والبرد قارساً، وقد أنستني العجلة ان ارتدي معطفي، فسرت الى جانبه وانا ارتعش، حتى دخلنا غرفة يحرس

مدخلها جندي شاكي السلاح، وفيها ضابط طاعن في السن، جالس وراء مكتب واسع اختلطت عليه الاوراق بالدفاتر والاختام بفوضى ذكرتني بمكتبي الصحافي. وابتدرني الضابط بفرنسية مشوبة بالرطانة الالمانية قائلا:

– ان التأشيرة الالمانية على جوازك تعين لك دخول الحدود من نقطة ايزن شتات، وهنا نقطة بروكل فلماذا لم تتقيد بها؟

صعقت لهذه المفاجأة، اذ كنت اجهل فعلا ان التأشيرة تعين نقطة الدخول، فقلت: لم افعل ذلك عمداً، بل ركبت في بلغراد القطار الذي قيل لي انه يحملني الى فيينا في اسرع ما يكون!

فأجاب: هناك قطاران يسيران بين بلغراد وفيينا، احدهما مدني والآخر عسكري. فالمدني يذهب اليها من نقطة ايزن شتات والعسكري من هنا. لقد اخطأت الاختيار، فعليك ان تنزل في هذه المحطة، وتنتظر القطار العائد من فيينا ليحملك الى بلغراد، فتركب من هناك القطار المناسب للدخول من ايزن شتات!

واقسم انه لو حكم عليّ بالنفي او بالسجن لما كان وقع الحكم اشد من وقع هذا القرار في ذلك الوقت، فاظلمت الدنيا في عيني، وتصورت نفسي عائداً الى كرواتيا وصربيا بلا كونات ولا دنانير ولا ماركات، وسط تلك العواصف الثلجية، فعدت ادافع عن نفسي واذكر الضابط بأنني شريد طريد، ورويت له حكاية الكونا، وما تجشمت من مشاق. وكانت عباراتي تتدفق كالسيل، والحجة تتلو الحجة. فتأثر الضابط واجابني:

– حسناً، سأسمح لك بمتابعة السفر الى فيينا، ولكن حذار ان تقع مرة اخرى في مثل هذه الغلطة.

ولما اردت ان اشكره، هز رأسه وقال:

– لا تشكرني، بل اشكر الظروف الحاضرة. انني افعل ذلك احتراما للمجهود الحربي وليس اكراماً لك. فنزولك هنا وذهابك الى بلغراد وايابك مرة اخرى سيكلف المجهود الحربي عدة مقاعد في القطار قد يحتاج اليها

من تدعوه الضرورة الى السفر اكثر منك... ولولا هذا الاعتبار لما استطعت ان اتجاوز القانون ولأرغمتك على العودة!

عدت الى القطار وانا لا اصدق ان الازمة بدأت وانتهت بمثل هذه السرعة، وحمدت الله على... الحرب التي انقذتني من مأزق جديد. ولما تحرك القطار مستأنفاً سيره شطر فيينا، ادركت ان متاعبي الجمركية والنقدية والجوازية قد انتهت، وان كانت نهايتها هذه نقطة بداية في مغامرة استطالت ثلاثة اعوام ونيفاً!

* * *

فيينا! حلم من احلام الصبا، واسطورة دهر غالبتها القرون فغلبتها، وبقيت صورة حية يعيش فيها جمود الحاضر على امجاد الماضي. لا ازال اذكر يوماً من ايام الدراسة في كلية «دار الفنون» في صيدا سألنا فيه معلمنا الاميركي واسمه ويكس عن المدينة التي نشتهي ان نزورها يوماً، فراح كل منا يضرب في طول الارض وعرضها بين باريس وبكين. وعنّ لي ان استطلع رأي المعلم فقلت له:

- وانت، ما هي امنيتك؟

فقال: فيينا!

وفي عطلة الصيف من تلك السنة، لعلها سنة ١٩٣٠ - حقق معلمي امنيته، فسافر الى فيينا وقضى فيها بضعة اسابيع ولما عاد خصني من دون رفاقي بمجموعة رسوم تمثل اجمل مباني العاصمة النمسوية وآثارها، وقال لي:

- انني اقرأ في عينك اسفاراً ورحلات فإذا ما زرت فيينا ذات يوم، فاذكر صديقك ومعلمك ويكس، واذكر انه ذكرك عندما زار تلك المدينة...

ولكم قلبت صفحات تلك المجموعة خلال السنوات التي عقبت دخولي معترك الحياة، ولكم ساءلت نفسي عن اليوم الذي سيتاح لي فيه ان أفي معلمي دينه، واحقق بدوري امانيّ في السفر والتجول. ولكنني لم اكن احلم ان القدر سيحملني الى فيينا في مثل هذا الوقت وعلى هذا الشكل...

١٦

■ النمسا، ٩ آذار (مارس) ١٩٤٢

واخيراً اجتاز القطار الحدود، ودخلنا المانيا عن طريق النمسا الجنوبية.

ها أنذا في المانيا في قلب عالم محارب، لم اكن احلم لاشهر قليلة خلت ان اجد نفسي فيه.

ومنذ اجتزنا الكيلومترات المعدودة الاولى تميزت الفرق الهائل بين الاقطار التي خلفتها ورائي وبين هذا القطر الجديد. فكل ما تقع العين عليه هنا مرت عليه يد الانسان، فهذبته وصقلته ونسقته، ولم تترك الطبيعة تتصرف على هواها في اية زاوية من زوايا السهل والجبل.

تلك هي الظاهرة الاولى التي يلاحظها الداخل الى المانيا منذ اللحظة الاولى، فلا يرى بقعة واحدة لم تمتد اليها يد العمل والعناية، فتستثمرها لمصلحة الانسان في خدمة غذائه او ذوقه.

كان الساسة في القرن الماضي يقولون ان الشرق ينتهي عند حدود

النمسا. واعتقد ان هذا الرأي لا يزال صادقاً اليوم. فإذا كانت المظاهر الاجتماعية والشعبية لا تتبدل من بلاد العرب الى تركيا الى بلغاريا واليونان ورومانيا ويوغوسلافيا، فإنها تتبدل فجأة حالما يجتاز المسافر الامتار القليلة التي تفصل بين حدود كرواتيا والنمسا، فيجد نفسه اخيراً في الغرب، الغرب الصناعي الآلي المتحضر.

* * *

ما لي استبق الحوادث، ها ان القطار يغادر بروكل وينساب بين جبال الالب البافارية وها هو يتسلقها رويداً رويداً. والى يميننا والى يسارنا قرى صغيرة مبعثرة بين الاكام والسفوح. اشجار السنديان تعطر الجو بعبير فواح يستثير الخيال، والقطار يزحف ببطء وقد خفت صوته وغمرته الاشجار بظلالها، فذاب شكله في دنيا الغابة.

اتكأت على النافذة، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة صباحاً ورحت اجوب بخيالي هذه الجبال العامرة وكأني احلق فوق ذرواتها ووديانها على محاذاة القطار.

وللمرة الاولى شعرت بشيء اسمه سحر الثلج وفتنته.

لقد ابغضت الثلج منذ تعرفت اليه لاول مرة - على كره - في استانبول وعافته نفسي منذ التقيت به في بلغاريا وصربيا ولم يفارق طريقي حتى الآن ولكن شتان بين ذاك الثلج المفروش المبعثر، وهذا الذي يكسو قمم هذه الجبال. لقد ظل الثلج عدوي اللدود في اوروبا، ولم يخفف من نقمتي عليه سوى هذا الرسم البديع الذي انطبع في ذاكرتي عنه وانا اجتاز هذه الجبال.

ومر القطار وسط هضبة عريضة، قامت الى يمينها قرية كبيرة، فرأيت من بعيد جمعاً من الاطفال ذاهباً الى المدرسة، وكأنهم صورة من صور البراءة الطاهرة التي تعرض للبيع في مواسم عيد الميلاد ولكن المحطات القليلة التي كان القطار يتوقف فيها تقريباً خالية، لا ارى فيها سوى جند وموظفين.

■ غراتز، ٩ شباط (فبراير) ١٩٤٢

قبيل الظهيرة بلغ القطار محطة غراتز وهي مدينة لعبت دوراً هاما في تاريخ الحركة النازية. ولكنني لم اجد في محطتها ما يشهد بذلك الدور، بل كان يخيم عليها صمت كئيب. واذا كان الصمت الذي غمرنا في الجبال يبعث في النفس الخيال والالهام، فإن صمت غراتز يذكر بحقائق الحياة ويهبط بنا من سمو الطبيعة الى حضيض الواقع: الى الحرب

لقد مررت قبلاً في قطرين متصلين بالحرب. فبلغاريا دخلت الحرب مع المانيا دون ان تحارب. ويوغوسلافيا مرت عليها الحرب وتركتها في بؤسها تنتظر النهاية. اما المانيا فإنها لا تزال في صميم الحرب، لذلك يلاحظ الزائر فوراً ان كل ما فيها مسخر في سبيل الحرب، والحرب وحدها.

ولم يسهل عليّ في البداية ان ادرك الكثير من مظاهر المجهود الحربي، وانا القادم من اقطار تنعم ببحبوحة السلم. ولما توقف القطار في غراتز نزلت الى المحطة اتجول فيها، وهي اول محطة نمسوية تطأها قدماي، فادهشني غياب الرجال منها. وسألت احدهم عن السبب، فالتفت اليّ مندهشاً وقال:

– انهم طبعاً في الجيش!

قلت: ومن يحل محلهم في الاعمال المدنية؟

فقال: النساء، والمحالون على التقاعد!

الواجهات كلها فارغة، لم يبق فيها سوى الاعلانات القديمة التي تشير الى اطايب الحلوى. حتى بطاقات السفر تقلصت في الحجم، وحل فيها الكرتون الخشن محل الورق اللماع المصقول.

واستلفت نظري في محطة غراتز مشهد اعتدت عليه فيما بعد لكثرة ما رأيته يتكرر. وهو مشهد الازياء العسكرية، فلا ترى رجلا قادراً على العمل الا ويرتدي زياً ما، من الجيش الى الطيران الى الاسطول الى جيش العمل الى البوليس. والواقع انه كان في المانيا في اثناء هذه الحرب ٢٢٢٠ زيا عسكريا، يختلف كل منها عن الآخر باختلاف المهمة والمكان ويجب عليّ ان

اعترف بأن كلا منها كان يباري الآخر في اناقته وحسن تفصيله.

والى جانب الرجال، لاحظت منذ الوهلة الاولى كثرة الفتيات المجندات العاملات. ففي القطار مثلا تتولى الفتيات مهمة قطع التذاكر والعناية بالحقائب والفحم، وفي جميع المحطات كان الخفراء من النساء.

وفي ايام السلم كان كل قطار الماني يتضمن عربة للطعام. ولكنهم الغوا هذه العربة منذ بداية الحرب لكي يوفروا خدامها للمجهود الحربي. فلما دخل القطار الحدود الالمانية في ذلك الصباح شعرت بالجوع، ولكنني لم اجد ثمة شيئاً يؤكل.

ورأيت في محطة غراتز فتاة مجندة، يقال لها ولا ريب حسناء في ايام السلم، تحمل «بسطة» عليها ارغفة محشوة باللحم، فتذكرت انني لم اتناول طعام الفطور، وتقدمت منها طالباً رغيفاً، فأجابت:

– ارجوك البطاقات اولاً...

البطاقات؟ اجل، نحن الآن ضمن المانيا حيث يسود نظام التقنين الدقيق كل شيء، فلا ينال السائل شيئاً الا بالبطاقات، ولا يستطيع ان يشتري ولو ورقة خس الا بالبطاقات.

ولكن من اين لي البطاقات وانا لم ادخل المانيا الا منذ ساعات، ولم احصل بعد على بطاقاتي؟

قلت لها ذلك، فأجابت ان خادم القطار هو مسؤول عن ذلك، وعليّ ان ارجع اليه في امرها. ويظهر انها ادركت من لهجتي انني غريب، فقالت:

– أأنت ايطالي ام فرنسي؟

قلت: كلا، انا عربي!

وانطلقت من حنجرتها شهقة، وارفقتها بعبارة المانية، تشبه في لغتنا «بسم الله الرحمن الرحيم»، وقالت:

– انت عربي؟ ابيض اللون؟ وترتدي هذه الملابس؟ اين العمامة والجبة؟ اين الجمل والصحراء؟

وقبل ان اجيب راحت تنادي رفيقاتها وتصيح: هذا عربي! هذا عربي!

وتجمعت فتيات المحطة حولي، وكلهن مجندات، ينظرن اليّ نظرات الدهشة والاستقصاء، كأنني اعجوبة القرن العشرين، ورحن يلقين عليّ اسئلة اذكر بعضها على سبيل المثال: كم زوجة لك؟ هل انت امير؟ الا تزالون تقبلون ايدي بعضكم بعضاً؟

لا حاجة لأن اصف للقارئ الشعور الذي استولى عليّ في تلك الدقيقة. وقد تكرر هذا المشهد بعد في اكثر رحلاتي، فنحن العرب مجهولون في اوروبا، تستقي الجماهير صورتنا فيها من روايات السينما الاميركية وخرافات الف ليلة وليلة. وبين الهزل والجد رحت احدث الفتيات عن العرب وبلادهم، وارسم لهن صورة صادقة عنا. ولا ادري ماذا ترك حديثي من الاثر في نفوسهن، وكل ما اذكره ان عروبتي حلت مشكلة البطاقات، اذ قدمت لي الفتاة البائعة الطعام بلا بطاقات، وذهبت في السخاء الى ابعد من ذلك، فرفضت ان تتقاضى الثمن!

* * *

كان المفروض في القطار ان يغادر محطة غراتز في الساعة الحادية عشرة، ولكن الموعد المعين انقضى وهو لما يزل واقفا في مكانه، بينما كانت قطر الشحن تمر الواحد منها تلو الآخر بلا انقطاع في اتجاه كرواتيا. وقد رأيت منها في تلك الساعة وحدها اكثر مما رأيت من القطر في حياتي كلها.

جلست على احد المقاعد انتظر، واحصي عدد العربات الملحقة بكل قاطرة، فلا يقل عن الستين والسبعين، واذا بالفتاة البائعة - واسمها ايلزا - تقترب مني وتقول:

- لقد انتهيت الآن من العمل، والقطار لا يزال مكانه!

قلت: اذن انت مستخدمة ولا تعملين لحسابك؟

فأجابت: كلا، انا معبأة تعبئة عسكرية، ولما كان بائع الطعام في المحطة قد سيق الى الجبهة، فقد عينوني محله تأمينا لحاجة الركاب.

وصمتت لحظة، ثم ابتسمت واستطردت قائلة:

- انت لست اول عربي اراه في حياتي فحسب، بل اول شاب اراه منذ

عدة اشهر ايضاً!

والقت ايلزا «البسطة» جانبا، وجلست الى جانبي، وهي تقول مشيرة الى القطر التي كانت تمر بلا انقطاع:

– السير اليوم اثقل من العادة!

قلت: وماذا تحمل هذه القطر؟

فأجابت: انها تحمل المؤن والعتاد للجبهات الجنوبية، خاصة الى يوغوسلافيا وبلغاريا واليونان وكريت.

قلت: ولم تمر بالتتالي هكذا في وضح النهار؟

فأجابت: لكي تجتاز كرواتيا اثناء النهار وتبلغ بلغراد قبل حلول الليل.

– وما الحكمة في ذلك؟

– في الليل يلغم رجال العصابات الخط او يهاجمون القطر، لذلك نحرص على سير القطر اثناء النهار لتكون بمأمن منهم.

واعتدلت ايلزا فجأة في جلستها وقالت:

– ماين هر.. لقد نسيت ان اقدم نفسي اليك. انا ادعى ايلزا ماير، عمري ٢١ سنة، كنت قبل الحرب «بنت ذوات» وانا اليوم خادمة في محطة غراتز، اشتغل ١٤ ساعة في اليوم، فضلا عن ساعات التطوع الاضافية. هكذا اقضي زهرة صباي في هذا «الربع الخالي»!

وتنهدت ايلزا وضحكت ضحكة مصطنعة، ثم صمتت. وكنت اصغي اليها بين الهزل والجد، فلما سمعت ما قالت في العبارة الاخيرة، ادركت ان الفرصة سنحت لتحقيق ما اريد. لقد كنت – منذ دخولي اوروبا – اتحرق الى التحدث الى الماني عادي عن رأيه في الحرب، وعن شعوره نحوها، وعن تكهناته عن نتيجتها ولكن الصدف التي لم تسمح لي قبل ذلك بتحقيق رغبتي، اتاحت لي الفرصة المنشودة في شخص ايلزا، فقلت لها تعليقا على عبارتها:

– اذن انت مكرهة على العمل؟

فانتفضت الفتاة واجابت: ارجو الا تسيء فهم ما اقول. اجل، انا آسفة

على زهرة شبابي تذبل في الخدمة العسكرية بين قرقعة القطر وهباء الدخان وغبار الفحم الحجري وارغفة الخبز المحشوة باللحم والبطاطا، ولكن الواجب هو الواجب. وانني اؤديه عن رضى وطيب خاطر وما نسبة ما نتحمل هنا في المؤخرة بالنسبة الى ما يقاسيه جنودنا في ثلوج الشرق المتجلدة (على الجبهة الروسية)؟

قلت: انت نمسوية أم المانية؟

فبدا على وجهها الغضب وقالت:

– يبدو من سؤالك انك قادم فعلا من بلاد العدو... اجل، ربما كان ثمة شيء اسمه النمسا، ولكن ليس هناك نمسويون، فكلنا المان!

وبالرغم من ان الموقف كان يفرض عليّ الحذر والتروي، فإن شيطان الفضول الصحافي كان يغويني على اغتنام الفرصة، فعبأت جرأتي الادبية، وسألتها:

– هل افهم من كلامك انكم قبلتم الـ «انشلوس» (اي الوحدة القومية الجرمانية) مع المانيا بغبطة وابتهاج؟

فأجابت: طبعاً... اسمع يا هذا. انت اجنبي، وصحافي، ولا اعرفك قبلا، ولا يجوز لي كمجندة ان اخوض حديث السياسة مع احد، فكيف معك وانت الغريب؟

قلت: اتخشين الـ «غستابو»؟

فأجابت: بربك دعنا من السياسة وحدثني عن الشرق. حدثني عن آخر فيلم اميركي عن روبرت تايلور... انه الممثل المفضل عندي من بين نجوم هوليوود...

قلت: الا تحبين السياسة؟

فأجابت: الوقت ليس وقت سياسة، انه وقت حرب. وكل ما اعرفه او اريد ان اعرفه هو ان بلادي في حالة حرب، وانني مجندة اليوم هنا في هذه المحطة، وانني اقوم بنصيبي من الخدمة في المجهود الحربي من اجل النصر!

انني اتخيل ايلزا امامي وانا اكتب هذه السطور. اتخيلها بعينيها الزرقاوين وشعرها الاشقر - وكلاهما ليسا من صفات الجمال في اوروبا الوسطى كما هما في بلادنا عادة - وقد ارتسمت تحت عينيها دائرتان زرقاوان من كثرة الاجهاد والسهر، واحتفظ وجهها رغم ذلك بنضارة الصبا، وقد تجرد من المساحيق على اختلافها، اذ ان ٩٥ في المئة من نساء المانيا لا يستعملن البودرة والحمرة حتى في ايام السلم. اما في الحرب فقد ارتفعت النسبة الى مئة بالمئة تقريباً.

انني اتخيلها الآن عندما لفظت كلمة النصر بايمان وحرارة، واتساءل اين طوح بها القدر منذ ذلك الحين؟ هل عفت عنها الحرب فأبقت عليها حية على الاقل بعد ان هدرت لها زهرة شبابها، شأن الملايين من مثيلاتها؟ وهل تصل يوماً هذه السطور اليها، فتعرف ان العربي الذي جعلته اعجوبة عند رفيقاتها في محطة غراتز، قد جعل منها رواية في بلاده؟

ليتني استطيع اليوم، والبرقيات تحمل الينا ما تحمل من انباء المجاعة في النمسا، ان افيها ذلك الرغيف الذي اضافتني به فتزداد الاسباب التي تحدوني على الابتسام كلما وقعت عيني على «ساندويش»، اذ اتذكر رغيف ايلزا، ونبوغ المجمع اللغوي في اختراع «الشاطر والمشطور وبينهما الكامخ»!

* * *

واخيراً غادر القطار محطة غراتز في الساعة الواحدة، بعد ان صعد اليه عشرات من الضباط الفتيان، وانتشروا في مختلف العربات يبحثون عن المقاعد الفارغة. وبالرغم من ان حجرتي خاصة بي، فقد شاطرني اياها اربعة منهم، اذ ان ضرورات الحرب تتقدم على الرفاهية الفردية.

سألت احدهم من اين جاؤوا فأجاب انهم جاؤوا جميعا من جزيرة كريت في اجازة اسبوعين. ورحنا على الاثر نتحدث عن الحرب وسير الحرب، فاغتنمت الفرصة وسألته.

- لقد خيل الينا عندما نزلتم في جزيرة كريت في ايار (مايو) من العام

الماضي (١٩٤١) انكم ستقفزون منها الى قبرص فسورية، فلماذا لم تقفزوا؟

فأجاب: نحن ننفذ الاوامر دون ان نسأل السبب او نعرف الدافع. على انني اعتقد شخصياً ان كريت ليست القاعدة الصالحة لغزو سورية، ولا يمكن بلوغ الشرق الا بغزو مصر او بغزو تركيا. اما كريت فإن قيمتها العسكرية الرئيسية هي في سد المداخل الى المضايق التركية. وقد اتضح بعد شروعنا في غزو الشرق (روسيا) ان القيادة العليا استهدفت من غزو كريت منع الحلفاء الغربيين من مساعدة روسيا عن طريق الدردنيل والبحر الاسود، وبصورة عامة منع الاتصال بينهما.

– وهل حققت كريت هذه الآمال؟

– اجل، لقد حققتها على الوجه الاكمل!

وسألته عن موقف اليونانيين منهم، فأجاب:

– ان سكان كريت نفسها يكرهوننا وقد ارتكبوا فظائع لا تحصى بجنودنا عندما هبطوا بالمظلات في البداية. ولكنهم اخلدوا الى السكينة مذ توطد قدم الاحتلال. اما اليونانيون فإنهم لا يضمرون لنا الكره، الا لأننا ساعدنا الطليان عليهم!

وكانت اخبار المجاعة في اليونان يومئذ تملأ اعمدة الصحف، فسألته عنها فأجاب:

– صحيح، المجاعة شديدة في اليونان ولا يقل عدد الموتى في اثينا وحدها عن الخمسمئة في اليوم الواحد. وقد رأيت ذلك بعيني عند مروري بها منذ ثلاثة ايام.

ادهشني هذا الاعتراف، فسألته: وكيف ترضون بذلك؟

فأجاب: نحن لا نستطيع ان نساعد شعباً لا يريد ان يساعد نفسه. لقد اعتاد اليوناني على التجارة والملاحة. ومع ان الحرب قضت عليهما فإنه يرفض ان يعود الى الارض. هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإن الارادة العليا في اليونان في ايدي الطليان، واعتقد انهم يتعمدون تجويع اليونانيين

لشل حركة المقاومة فيهم واشغالهم بالخبز عن الثورة.

وعدت الى حديث الشرق الاوسط فسألته: عندما وقعت الحرب في العراق في ايار (مايو) ١٩٤١ قيل ان الطائرات الالمانية التي جاءت اليه جاءت من كريت، فهل هذا صحيح؟

فأجاب: لقد انتشرت بيننا يومئذ اشاعات كثيرة عن امكان سفر فرقة كاملة من المظلاتيين الى العراق، ولكن لم يسافر احد منها مطلقاً. واعتقد ان الطائرات القليلة التي ذهبت الى العراق كانت آتية من اليونان نفسها، وان رودوس - وليس كريت - كانت قاعدة خروجها.

ثم هز الضابط الفتى كتفيه واجاب: نحن لا نعرف شيئاً، ولا نحاول ان نعرف. نحن ننفذ الاوامر. هذه هي مهمتنا وهذا هو واجبنا!



■ فيينا، ٩ آذار (مارس) ١٩٤٢

بعد غراتز اخذ القطار ينحدر رويداً رويداً بين الجبال، واخذت معالم العمران تتزايد على الجانبين. كل ما نراه يميناً ويساراً امتدت اليه يد العناية، فلا ترى حقلا مهملا، ولا شجرة تنبت على هواها ولا قناة عبثت بها السيول. وعلى موازاة القطار تنساب طريق من الاسفلت، هي اعلى طريق للسيارات في اوروبا.

مداخن المصانع بدأت تبرز رويداً رويداً. وهي تقوم على ضفاف السواقي والاقنية. هو ذا فرع كبير من مصانع حبر «بليكان»، وقد نشر اسمه فوقه في لافتة طولها خمسين متراً على الاقل. هذه مصانع الآلات الموسيقية تتعاقب، ومن بينها مصنع هندسوا بناءه على شكل بيانو ضخم.

بعد قليل مر القطار على مقربة من بلدة كبيرة جاثمة على كتف رابية تكسوها الغابات، فسألت رفاقي عنها فقال احدهم:

– هذه زامارانغ، مصيف اباطرة آل هابسبورغ. انها قطعة من

الفردوس في ايام الخير!

قلت: وفي هذه الايام؟

قال: مصانع وثكنات ومستشفيات ومصحات للجند، ونحن ذاهبون اليها في الاسبوع المقبل لقضاء ما تبقى من اجازتنا.

ورأيت جسراً عالياً، فسألته عنه فأجاب:

– هذا هو الجسر الذي تمر عليه قناة الماء من جبل زامارانغ الى فيينا. اتعرف ان مياه فيينا هي احسن مياه في العالم؟ عفواً انني تعلمت ان مياه ثلاث مدن هي احسن مياه العالم، وهي فيينا وصوفيا و(بلدة) بيروت (الواقعة على الحدود البلغارية – الصربية)!

وضحكت وقلت للرجل: انا قادم الآن من صوفيا وبيروت!

فربت على كتفي بلطف «عسكري» وقال:

– من يشرب من ماء فيينا وصوفيا وبيروت لن يموت!

القطار يجتاز الآن الهضبة السهلية المؤدية الى فيينا. الثلج يكسو كل شيء. الى اليمين مطار هائل ينبسط مسافة عدة كيلومترات، وقد اصطفت عليه بلا مبالغة مئات الطائرات، بل ربما الالوف، والحركة فوقه لا تنقطع، بين طائرات عائدة وطائرات صاعدة. وسألت عنه فقيل لي انه مطار فيينا العسكري الجديد، وهو اكبر مطار بين المانيا واليابان، ويستخدمه الالمان لتجربة الطائرات الجديدة وتموين الطائرات العابرة الى الجهات الجنوبية نحو رومانيا ونحو المجر في اتجاه روسيا.

قلت للطيار: الا تخشون ان تقصف طائرات العدو هذا المطار وعليه هذه المئات من الطائرات؟

فأجاب: انهم لا يستطيعون الوصول الى هنا!

ولما استطاعت الطائرات الحليفة سنة ١٩٤٣ الوصول الى فيينا، اختفت تلك الطائرات عن ذلك المطار، كما رأيت بنفسي في رحلة اخرى.

لم يبق بيننا وبين فيينا سوى ساعة تقريباً. لقد تركنا السهل ودخلنا منطقة الغابات المنبسطة التي تكون حول فيينا اطاراً كل شبر فيه يعيد الى

الاذهان صورة غابة بولونيا الباريسية مكبرة معطرة، وتبدو آثار العناية بهذه الغابات ظاهرة للعيان، فكأن اشجارها وممراتها شاهدة على ما عرفت به قبل اليوم من مجد تليد وعز عريق.

لقد شغلتني هذه المناظر الخلابة عما انا فيه، وانستني انني قادم الى فيينا على غير ميعاد، وانما اساق اليها نحو مصير مجهول!

* * *

اخذ القطار ينساب بين ضواحي فيينا الصناعية على مهل. كل ما تقع العين عليه يدل على نشاط متواصل، ذلك النشاط الذي استطاع الالمان بفضله ان يصمدوا ست سنوات في الحرب.

ودخل القطار في الساعة الخامسة مساء محطة فيينا الشرقية، فشعرت منذ القيت النظرة الاولى عليها انني في بلاد الاباطرة.

رحت انادي بأعلى صوتي احد الحمالين، كالعادة في بلادنا وفي الاقطار البلقانية، فإذا بالخادم يقول:

– لا تزعج نفسك، فسيأتيك الحمال من تلقاء نفسه. انتظر دورك قليلا!

وانتظرت، وبعد دقائق مر من تحت نافذتي رجل يدفع امامه قاطرة صغيرة تكدست عليها الحقائب، فتناول حقائبي واعطاني تذكرة، قائلا:

– موعدنا امام باب المحطة!

جرى هذا كله بلا ضجة ولا جدل ولا تجاذب ولا تدافع، فتذكرت مشاهد الهرج والمرج في محطاتنا ومرافئنا، وتنهدت!

واذا كان ما في هذه المحطة يشهد بأنها افخم محطة في اوروبا، فإن مظاهرها لا تدل على البهجة، فالمرابع والملاحق والمعارض مقفلة كلها بسبب الحرب، وليس فيها من يستقبل ولا من يودع. كل شيء مسخر في سبيل الحرب!

عند مخرج المحطة، جلس ضابط الماني يسجل الجوازات ويبصمها بالختم العسكري فلما جاء دوري، ختمه وقال لي ضاحكاً:

– عربي؟ وابيض الى هذا الحد؟ مستحيل!

وتناولت جوازي وخرجت وانا ابتسم من جهل الاوروبيين الحقيقة عنا وما ان وقفت على السلم العريض والقيت النظرة الاولى على فيينا حتى شعرت بقلبي يذوب في غصة عنيفة اذ انكشف امام عيني من المباني الجبارة، والقبب العالية، والابراج الشاهقة، ما جعلني اشعر بأن بلادي لا تزال بحاجة الى مجهود جبار تبذله اجيال جديدة، لكي تبلغ ما بلغته هذه المدينة!

ومع ذلك فإنني لم اشعر باليأس، اذ ان الايدي التي بنت سد سبأ وهياكل تدمر وبعلبك وجبيل، ومساجد الاموي والازهر والقيروان وقصور هشام والحمراء والزهراء، لن تعجز يوماً عن تجديد الماضي في صورة أروع وأوقع!

سلمني الحمال حقائبي قائلا:

– لن يسهل عليك ان تجد سيارة تاكسي...

فقلت: فيينا بلا تكسيات، ونحن لدينا المئات منها في بيروت؟

فأجاب مبتسما: كان عندنا الآلاف منها قبل الحرب، اما الآن فهي في الجبهة والسواقون في الجبهة، والبنزين في الجبهة، والمطاط في الجبهة...

حقا، يكاد يكون كل شيء في المانيا في الجبهة وللجبهة. انها الحرب عند شعب يعرف معنى الحرب، ويدرك ما يترتب على نتائجها!

بقيت انتظر امام باب المحطة اكثر من نصف ساعة، كانت اثناءها سيارتان او ثلاث تذهب وتعود، حتى جاء دوري وقبل ان اركب طلب السائق جواز سفري ليتأكد من انني غريب مسافر، اذ لا يجوز استعمال التاكسيات الا للمسافرين، انها الحرب ايضاً!

وقال السائق: الى اين؟

قلت: الى احد الفنادق!

فضحك وقال: يظهر انك غريب يا سيدي. وهل تعتقد ان في الفنادق زاوية واحدة فارغة في هذه الايام؟ مع ذلك جرب حظك!

وراحت السيارة تدرج وسط شوارع فسيحة، ذات ارصفة عريضة،

بنيت لكي يسير عليها الالوف في آن واحد، ومع ذلك فإنها خالية من الناس تقريبا، والمحلات التجارية مقفل اكثرها. وسألت السائق عن السبب فأجاب:

– انها الحرب... والناس اما في المصانع او في الجبهة...

وطاف بي السائق اكثر من ستة فنادق، فلم يجد لي فيها مكانا فارغا. واخيرا استوقفني امام بناء جبار، فغاب لحظة وعاد يقول:

– لقد وجدت لك في الـ «امبريال» هنا حجرة...

«امبريال»؟ اين سمعت هذا الاسم قبل اليوم؟ أليس هو الفندق الذي حل فيه هتلر عندما ضم النمسا الى المانيا في ١٢ آذار (مارس) ١٩٣٨، فخطب عن شرفته كما روت البرقيات في حينه؟ (*)

اجل، انه هو عينه!

* * *

مذ وطأت قدماي عتبة فندق «امبريال» شعرت بجلال اربعة قرون من الحكم الامبراطوري يسود الجو ويهبط عليّ، فأشعر برهبة الامجاد التليدة في نفس ظامئة الى امجاد جديدة، في وطن لم ينفض عنه بعد غبار الهجوع الطويل.

ذهبت تواً الى الغرفة التي ظفرت بها في هذا الفندق، رقمها ٢٢٦ على ما اذكر وانطرحت على السرير منهوكاً من التعب احاول ان انسى في فراشه الوثير عناء السفر. ودب النعاس فوراً الى جفني، فنمت بملابسي،

(*) جاء عن فندق «امبريال» في كتاب «ادولف هتلر» للمؤرخ الاميركي جون تولاند انه «في صباح ١٤ اذار (مارس) ١٩٣٨ توجه هتلر من الحدود الالمانية نحو فيينا، الا ان سرعة موكبه لم تتجاوز عشرين ميلا في الساعة بسبب تدافع الجماهير وازدحام العربات والدبابات على الطريق. ولم يصل الموكب الى ضواحي العاصمة الا في الخامسة بعد الظهر، حيث رفعت كل الابنية وبينها الكنائس العلمين الالماني والنمسوي. واحتشدت الجموع على جوانب الطرق هاتفة عاليا لدى رؤية هتلر واقفاً رافعاً يديه بالتحية في السيارة المكشوفة. وعندما توقفت السيارة امام فندق «امبريال» وترجل هتلر ليدخل باحته كان يحقق حلما اخر من احلامه، اذ طالما تمنى في شبابه دخول الفندق الفخم. وها هو الفندق الان مزين بالرايات الحمر التي تحمل الصليب المعقوف، شارته الخاصة. في الخارج استمر الجمهور يردد هتافات حورها لتناسب لحن اغنية المانية قديمة «لن نعود الى البيت، لن نعود حتى يكلمنا القائد!»، الى ان اطل عليه هتلر من شرفة المقصورة الملكية في الفندق رادا على الهتاف الهستيري بالتحية والتلويح قبل ان ينسحب. الا ان الجماهير استمرت في الهتاف من دون كلل ساعة بعد ساعة مجبرة اياه على الاطلال عليهم مرات متتالية. في الداخل بقي هتلر في البداية صامتا مع جلسائه وكان الترحيب المدوي المتواصل اصابه بالذهول، لكنه بدأ بعد حين يتذكر شبابه في تلك الليالي في فيينا عندما كان يتمشى قرب فندق «امبريال» قائلاً: كنت ارى ===

ولم استيقظ الا بعد ساعات، فإذا بالساعة تتجاوز الثانية بعد منتصف الليل.

نهضت واضأت الغرفة بالمصباح الكهربائي، ثم رفعت الستار عن احدى النوافذ، فإذا بالمدينة كلها تسبح في ظلام دامس، الظلام الذي فرضته احوال الحرب.

وقفت اتأمل بهذا السواد الحالك، وما كادت تمر لحظات معدودة حتى سمعت جرس الهاتف يقرع، فأدهشني ان يطلبني احد في تلك الساعة المتأخرة. وما كدت امسك بالسماعة حتى سمعت صوتاً اجش يصيح:

– ماين هر... ماين هر... بربك اطفيء النور او انزل الستائر على النافذة أنسيت قوانين التعتيم؟

وسارعت الى انزال الستائر، وقبل ان انتهي منها قرع الباب، وبدا منه شرطي يحمل دفتراً، يرافقه احد الخدم. وبلا «بروتوكول» او تمهيد، شرع الرجل يسجل هويتي ويضع بي ضبطاً بمخالفة قانون التعتيم.

وتذكرت في تلك اللحظة الوسائل المتبعة في بلادنا في مثل هذه الحال، ورجوته ان يعفو هذه المرة لأنني غريب اجهل القانون، فأجاب:

– المخالفة قد وقعت، سيان أكنت غريباً ام لم تكن، ولا تنس ان الحرب هي الحرب!

قلت: وماذا يترتب عليّ من العقاب؟

== الاضواء المتالقة والثريات في الردهة، لكنني كنت اعرف ان الدخول كان محظوراً علي. وفي ليلة بعد عاصفة ثلجية كبيرة سنحت لي فرصة كسب بعض المال بالعمل على كنس الثلج من الشوارع. والطريف انني ارسلت مع مجموعتي المؤلفة من خمسة او ستة اشخاص لكنس الثلج من الشارع المحاذي لفندق «امبريال». وصادف ذلك ليلة كانت فيها عائلة هابسبورغ المالكة تقيم حفلة ساهرة في الفندق ورايت الامبراطور كارل وزوجته زيتا يترجلان من عربتهما الامبراطورية ويمشيان على البساط الاحمر الى الداخل. وكان علينا نحن المساكين ان نواصل كنس الثلج من كل مكان والتوقف ورفع القبعات كلما وصلت دفعة من الاريستوقراطيين الى الفندق. لم يتكرموا بالقاء نظرة علينا، الا انني ما زلت اشم العطر الذي فاح منهم الى انوفنا! اهميتنا بالنسبة اليهم ولعيينا عموما لم تزد على اهمية الثلج الذي استمر في التساقط طوال الليل. ولم يكن لهذا الفندق ما يكفي من التهذيب ليرسل الينا كوبا من القهوة الساخنة. ثم اضاف هتلر: صممت تلك الليلة على ان اعود يوما الى فندق «امبريال» وامشي على البساط الاحمر الى ذلك الداخل المتلألىء حيث رقص آل هابسبورغ. لم اعرف كيف او متى، لكنني انتظرت ذلك اليوم وها انا هنا الليلة».

Toland, John, ADOLF HITLER. New York: Ballantine Books, 1976.

(بقي الكتاب على قائمة صحيفة «نيويورك تايمز» للكتب الاكثر مبيعاً طوال ستة اشهر عام ١٩٧٦.)

فأجاب: نترك هذا للمحكمة العسكرية.

المحكمة العسكرية؟ وهل جئت الى فيينا من اجل المحكمة العسكرية؟ ابهذا تستقبل مدينة الاباطرة ضيفها الغريب؟ وأدرك الشرطي ما يجول في دماغي فقال:

- لا تخش، سيكون جزاؤك مادياً في المرة الاولى. اما اذا تكررت المخالفة، فلن ينقذك من الاعدام شيء... نحن في ايام الحرب، ولا يسمح لنا الوقت بالتمييز بين النية الحسنة والنية السيئة!

وشعرت برعشة تسري في عروقي، ولم اشعر بالرجل عندما اغلق الباب وتركني، وعلى كل فقد تحققت نبوءة الرجل، اذ حكمت عليّ المحكمة فيما بعد بغرامة قدرها مئة مارك لأن الواجب كان يفرض عليّ ان اطلع على قوانين البلاد الحربية فور دخولي اليها!

■ **فيينا، ١٠ آذار (مارس) ١٩٤٢**

طلع الفجر وانا غارق في كرسي ضخم وثير افكر، واتساءل: لم جيء بي الى فيينا؟

لقد قيل لي في صوفيا ان هناك من ينتظرني عند وصولي الى النمسا ويعنى بأمري. ولكنني اجتزت الحدود ووصلت فيينا دون ان أرى احداً يشعر بوجودي فما السبب؟

شعرت بالجوع يدب في احشائي، فدعوت الخادم ليجلب لي الفطور. وكانت ادارة الفندق قد سلمتني فور وصولي حصتي من البطاقات لمدة ثلاثة اشهر، فأعطيت الخادم منها ما يكفي للوقعة: ١٠ غرامات زبدة، ٥٠ غراماً من الخبز، ٣٠ غراماً من الجبنة.

وجاء الرجل بالفطور، فما كدت اتذوقه حتى شعرت بطعم كريه في كل مادة من تلك المواد، ما عدا الخبز الابيض المكوز. الجبنة ذات طعم كيماوي، والزبدة مجبولة بمادة كيماوية، والشاي عبارة عن ماء ملون بالكيمياء، وقس على ذلك.

وأدهشني هذا الطعـام الكريه، وانا القـادم من اقطار تنعم بشـتى الخيرات، فدعوت الخادم على عجل وعرضت له الامر فضحك واجاب:

– انها الحرب يا سيدي… ومن الطبيعي ان نرسل جميع المواد الطيبة الى الجبهة، وان نكتفي هنا بالقليل القليل. ثم ان بلادنا فقيرة بكثير من المواد، ولا مفر لنا من الاستعانة على تعزيزها بالكيمياء!

والقى الرجل نظرة على الطاولة واستطرد قائلاً:

– انك سعيد لأنك تحظى بما تراه امامك، فليس في المانيا من ينعم حتى بمثل هذا غير الغرباء!

وحمدت الله الذي لا يحمد على كل مكروه سواه، وقلت:

– وهل تستطيعون ان تصبروا على هذا الطعام الرديء؟

فهز رأسه وأجاب:

– نحن لا نعيش لنأكل، بل نعيش الآن لننتصر… وسنأكل بعد النصر ما نشتهي!

وانحنى الرجل بأدب وغادر الغرفة، بينما ذهبت الى حقائبي استخرج منها بعض المواد الغذائية التي جلبتها معي من صوفيا.

نزلت الى بهو الفندق، ورحت اطوف بين قاعاته الفخمة ذات الاعمدة الغليظة والزخارف الجميلة والمقاعد الوثيرة. وكل زاوية منها تشهد بأن اباطرة آل هابسبورغ لم يسمحوا باطلاق لقبهم الامبراطوري على هذا الفندق بلا سبب!

وسألت احدى الخدم عن الشرفة التي وقف عليها هتلر يوم الـ «انشلوس» سنة ١٩٣٨، فارشدتني اليها، وسرت نحوها بخطوات وئيدة، وانا اشعر بأنني امشي على خطوط التاريخ.

وقفت على الشرفة، والقيت منها النظرة الاولى على فيينا في وضح النهار، فانكشفت امامي شوارع رنغ الفسيحة، التي تظللها الاشجار الوارفة. وبالأمس، اي قبل اربع سنوات، اجتمع في هذه الشوارع اكثر من مليون نسمة للاحتفاء بـ الـ «انشلوس»، واليوم ارى هذه الشوارع خالية

خاوية، لا ترى فيها من المارة الا العدد القليل واكثرهم من العسكريين او من العمال الاجانب واسرى الحرب.

وبالرغم من هذا الفراغ فإن فيينا تخفي في مكاتبها ومصانعها وثكناتها اكثر من مليون نسمة. ولكن الحرب شغلتهم عن كل عمل لا يمت الى المجهود الحربي بصلة.

* * *

خرجت من الفندق قبيل الساعة العاشرة. وكان البرد شديداً، والميزان يشير الى الثلاثين درجة تحت الصفر. ولا عجب فإن شتاء ٤١ – ١٩٤٢ كان اقسى فصل عرفته اوروبا منذ مئة سنة.

خرجت اتجول قليلا في شوارع فيينا المجاورة للفندق واتعرف اليها.

هي ذي دار الاوبرا الفخمة، وعلى مقربة منها القصر الامبراطوري العظيم درهوف. ورحت اسير في شارع كيرتز وهو بلا ريب اعظم شارع للاناقة والذوق في العالم كله. على ان الحرب تركت طابعها عليه، فأصبحت المتاجر التي كانت تزخر قبلا بأجمل بضائع الدنيا خالية خاوية، لم تحتفظ من ماضيها الا بسلع قليلة معدودة عرضتها في الواجهات تحت لوحات كتب عليها: «هذه السلع ليست للبيع».

لقد ادهشني وانا ارى هذه البضائع الجميلة للمرة الاولى في حياتي ان يكون تجار بلادنا قد تعاموا عن رؤيتها قبل الحرب فحرمونا منها وفرضوا علينا سلعاً دونها فناً وذوقاً.

اين اختفت البضائع والسلع؟ في الجواب على هذا السؤال سر المانيا المالي في هذه الحرب. لقد ادرك الالمان ان ترك الانتاج المدني حراً في ايام الحرب معناه تزايد الاستهلاك في وقت تكثر فيه الاموال في ايدي الناس، مما يؤدي الى التضخم. فما كان من الحكومة الا ان سحبت من الاستهلاك منذ اليوم الاول من الحرب جميع البضائع، وخصت لكل فرد كمية معينة من الملابس والادوات، لا تزيد عن حاجته ذرة واحدة، على ان يشتريها بنقط خاصة توزع على كل انسان ومن دونها لا يستطيع ان يشتري شيئاً او يجد

شيئاً يشتريه. وبموجب هذا التقنين كان ينال الانسان ثوبا واحداً في السنة، وستة ازواج كلسات، وثلاثة قمصان داخلية، وبعض نثريات اخرى. وما عدا ذلك كان يستحيل على الانسان ان يحصل على اية حاجة.

وهكذا كان العامل يتقاضى راتبه الكبير في آخر الشهر، فلا يستطيع ان يشتري بالفائض عن حاجته منه شيئاً، فيعيده الى صندوق التوفير الحكومي. وهكذا كانت الاموال تمر من يد الحكومة الى الشعب، ثم ترتد الى الحكومة في آخر الشهر بصورة غير مباشرة، لتعود فتدفعها في الشهر القادم الى المستحقين. وهكذا دواليك.

بفضل هذا النظام الدقيق، استطاعت الحكومة الالمانية ان تمول الحرب. فكانت ترسل منتوجاتها الصناعية المدنية للبيع في خارج المانيا، فتستحصل بواسطتها على المواد الاولية، اللازمة لصناعاتها الحربية اما في الداخل فكان التمويل يجري بالواسطة المشار اليها اعلاه وبذلك مرت سنوات الحرب الست والاسعار ثابتة على حالها كما كانت قبل الحرب، والتضخم في الاوراق النقدية اسمي فقط.

١٨

■ **فيينا، ١٠ آذار (مارس) ١٩٤٢**

قادتني خطاي الى زقاق ضيق، على مقربة من القناة (الـ «كاي»)، فرأيت في اعلاه رجلين متقدمين في السن، يقتربان نحوي، ولمحت على صدرهما للمرة الاولى النجمة الصفراء، وهي العلامة التي فرض الالمان على اوروبا حملها.

وقفت في مكاني انتظر مرورهما لأدقق النظر في النجمة. ويظهر انهما اساءا تأويل وقوفي ونظرتي، فما كادا يقتربان مني حتى خلع كل منهما قبعته، وانحنى امامي، وتابعا طريقهما وهما يتطلعان نحو الارض بخشوع وخوف. لقد توهما على ما يظهر انني نازي يريد ان يتحداهما، فاستدركا الشر بالانحناء سلفاً.

هكذا كان لقائي الاول باليهود في المانيا، بعد ان سمعت الشيء الكثير قبلاً عن اضطهادهم فيها.

لقد كانت القوانين النازية بحق اليهود صارمة للغاية، خاصة في اثناء

الحرب، اذ اعتبر النازيون اليهود اعداء لهم، وعاملوهم على هذا الاساس. وكانوا يخشون في الوقت نفسه ان تهزم المانيا في الحرب، فيعمد اليهود الى الانتقام من الالمان، لذلك استدركوا هذا الاحتمال بافناء اليهود في اوروبا، وافلحوا في تطبيق هذا المشروع الى حد كبير في المانيا والنمسا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وهولندا والدانمارك ونروج، وفي الاراضي الروسية المحتلة. اما في الدول الحليفة لهم فقد اكتفوا بمصادرة املاك اليهود وارسالهم الى معسكرات الاعتقال.

ويقدر عدد اليهود الذين افناهم النازيون في هذه الحرب بأربعة ملايين نسمة. وكانت هنالك دائرة خاصة تقوم بهذه المهمة، فلا ينتهي رجالها من بلدة حتى ينتقلون الى بلدة اخرى. وكانت عمليات الافناء تبدأ بجميع اليهود القادرين على العمل، اي الذين تتراوح اعمارهم بين ١٥ و٥٥ سنة، وارسالهم الى بولونيا حيث يحصرون في حي معين خاص باليهود (الـ «غيتو»).

ولقد بدأ اضطهاد اليهود في المانيا يشتد منذ بداية سنة ١٩٤١، وكانت ظاهرته الاولى ارغام اليهود على حمل نجمة داوود الصفراء على صدورهم. ويبرر النازيون هذا التدبير بقولهم ان يهود نيويورك كانوا البادئين، اذ انهم ارغموا المان تلك المدينة على حمل الصليب المعقوف لتمييزهم عن غيرهم، فردت حكومة برلين على ذلك بارغام يهود برلين على حمل النجمة الصفراء، ثم اتسع هذا التدبير وشمل اوروبا كلها.

هناك سؤال كان يتردد في خاطري قبل سفري الى المانيا. ولما رأيت ذينك اليهوديين في شوارع فيينا يحملان النجمة الصفراء، عاد السؤال يتردد كالهاجس، فعزمت ان استقصي الجواب فوراً.

ان اضطهاد اليهود في المانيا معضلة لا ينكشف سرها بمجرد القول بأن النازيين يكرهون اليهود. فهم كانوا يكرهون البولونيين ايضاً، ومع ذلك لم يستأصلوهم مثلا. والواقع انه كان يدهشني كيف يستطيع ذلك الشعب الالماني العريق في خدمة المدنية والعلم، العريق في الفلسفة والمعرفة، ان

يكره اليهود الى ذلك الحد، وان يذهب في كرهه الى الحد الذي يذهب اليه رجل الغاب، فلا يجد مخرجا له غير التعذيب والتقتيل!

هذا هو السؤال. اما الجواب فإننا نجد اساسه في التشابه بين الالماني واليهودي في النظريات العنصرية، اذ ان اليهودي «نازي» في عنصريته الى اقصى حدود النازية!

لقد جاءت النازية تعلم الالماني انه مخلوق فريد في العالم بمجرد كونه المانياً، وانه لا يجوز ان يختلط بأحد، او ان يفقد قوميته بأي شكل من الاشكال ومن يتمعن في وضع اليهود الاجتماعي يدرك انهم يطبقون على انفسهم هذه النظرية العنصرية منذ موسى، فهم لا يمتزجون بأحد، ويساكنون آلاف السنين الشعوب الاخرى دون ان يذوبوا فيها، بل يظلون محتفظين بيهوديتهم سالمة رغم وسائل الاغراء او الاكراه لادماجهم في صلب محيطهم

لهذا السبب اصطدمت النازية باليهودية منذ اللحظة الاولى، لأنها توازيها في التعصب القومي، وكان اليهود اول عنصر داخل المانيا وقف في طريق النظريات العنصرية النازية، فوقع الخصام، وكانت بداية الاضطهاد.

ومن يعود الى التاريخ، من قديم وحديث، يجد ان اضطهاد اليهود كان على اشده في العهود التي سادت فيها النظريات القومية، خاصة في القرن الماضي في اوروبا. ولا يجهل اليهود هذه الحقيقة، لذلك تراهم اول من شجع الحركات الاجتماعية الدولية، من راديكالية واشتراكية وشيوعية، لأنها تحارب العنصرية، وبالتالي تدفع عن اليهود الخطر الاكبر الذي يهددهم.

لقد كان طبيعياً ان تصطدم الفكرة النازية، التي دفعت بالعنصرية الالمانية الى عنفوانها، باليهود منذ اللحظة الاولى، لأنهم كانوا يشكلون العنصر الوحيد في داخل المانيا المتمسك بقومية خاصة به يتباهى بها بمجرد تمسكه بها آلاف السنين على اية قومية اخرى. وكلما كانت النازية تعزز الشعور القومي الالماني، كانت درجة عدائه لليهود تزداد بصورة طبيعية، وتمهد السبيل في نفسه المتحضرة ان لم يكن للاشتراك في

اضطهاد اليهود، ففي السكوت عنه على الاقل.

لم يكن اليهود في المانيا يؤلفون مجتمعاً منحطاً بالنسبة الى المجموع، كما هي الحال في اكثر الاقطار الاوروبية الشرقية، بل كانوا يتمتعون بمقام اجتماعي فريد، لا يجاريهم فيه حتى الالمان انفسهم. والواقع انهم كانوا ارقى يهود العالم طراً.

لقد خصص النازيون في متحف فيينا جناحاً خاصاً للقضية اليهودية، عرضوا فيه كل ما يبرر نظرياتهم في هذا الصدد ودعموها بارقام تشهد بالمقام الرفيع الذي كان يحتله اليهود في المانيا قبل العهد النازي. ولا ازال اذكر من الارقام التي شاهدتها ان ٧٥ بالمئة من عيادات الاطباء في فيينا مثلا كانت يهودية، وان نسبة اليهود في المهن الحرة الاخرى كانت لا تقل عن الخمسين بالمئة، مع العلم بأن عدد اليهود في المانيا لا يتجاوز واحداً بالمئة.

وكان في برلين ٣٥٠٠ محام، بينهم ١١٥٨ يهودياً، و٦٢٠٣ أطباء بينهم ١١٠٨ يهود.

ووجد النازيون في هذا الوضع سلاحاً قوياً لاستثارة الحسد والنقمة في قلوب الالمان، مستخدمين في هذا السبيل حجة قريبة الى العقلية الالمانية. فقد قالوا ان يهود المانيا، وعددهم زهاء ٧٠٠ الف نسمة (منهم ٤٠٠ الف يهودي، و٢٠٠ ألف نصف يهودي و١٠٠ ألف ربع يهودي) يؤلفون العنصر الاجنبي الوحيد في داخل المجتمع الالماني، فهم المان من حيث الجنسية، ولكنهم اجانب من حيث العقلية والدين. وعلى هذا فلا يجوز معاملة الاجانب على قدم المساواة مع الالمان، ولا يجوز ان يحتل الاجانب ارفع مناصب العمل الحر وغير الحر في البلاد.

باسم المصلحة الوطنية اولاً بدأ النازيون حملتهم على اليهود، فلاقت الفكرة تأييداً شاملاً من المجموع الالماني. وكان اضطهاد اليهود حتى سنة ١٩٣٦ يقف عند حد اخراجهم من وظائفهم مع السماح لهم بمغادرة البلاد اذا شاءوا.

وبعد احتلال منطقة الراين في سنة ١٩٣٦ وابتداء النزاع الدولي العلني بين المانيا النازية من جهة، والدول الديموقراطية الغربية من جهة اخرى، وقف اليهود الى جانب هذه الدول ضد النازية، فوضعوا بذلك ذريعة جديدة في يد النازيين للانتقام منهم، فكفوا عن التحدث عنهم كرعايا المان، واتهموهم بأنهم انصار الديموقراطية فهم اذن خصوم المانيا. وكان ذلك بداية سلسلة جديدة من الاضطهادات ادت الى مصادرة المحلات التجارية وفرض الغرامات المالية وارسال الآلاف الى معسكرات الاعتقال وتعقيم الرجال منهم.

ثم جاءت الحرب في سنة ١٩٣٩، فاعتبر النازي اليهود اعداء المانيا، واكتسى الاضطهاد صورة اخرى، اذ صادرت الدولة جميع اموال اليهود بلا استثناء، وعبأت كل من يصلح للعمل منهم في كتائب خاصة، ارسلتها الى الجبهة للعمل في مختلف الاعمال العسكرية الشاقة.

واتهم النازيون اليهود بأنهم هم الذين دفعوا اميركا الى الاشتراك في الحرب، وعلى الاثر عقدوا العزم على ابادة اليهود حيث يستطيعون، وبدأوا عملية التطهير - كما كانوا يسمونها - في المدن الالمانية اولاً. فكانوا يعتقلون جميع اليهود ويرسلونهم الى بولونيا، ولا يتركون الا اليهود الطاعنين في السن، الذين ينتظرون الموت القريب.

هذه هي المرحلة التي بلغها اضطهاد اليهود في المانيا عند وصولي الى فيينا في شتاء ١٩٤٢.

* * *

ما كادت سنة ١٩٤٢ تنتهي حتى كان النازيون قد نقلوا جميع يهود المانيا الى بولونيا. وكان يجري نقلهم في اسوأ الاحوال والاساليب، اذ كان رجال الـ «غستابو» يقرعون الابواب المعينة في الساعة الخامسة صباحاً، فيعطون سكان الدار من اليهود مهلة عشر دقائق لجمع خمسة كيلوغرامات من الامتعة فقط، ثم يجري نقلهم في سيارات الشحن الى محطة سكة الحديد، حيث يحشدون في عربات الشحن الضخمة، بمعدل مئة شخص

على الاقل في العربة الواحدة، فلا يبقى فيها مواطىء قدم، ولا يستطيع احدهم الجلوس.

وقد رأيت مرة في سنة ١٩٤٣ قطاراً يحمل يهوداً من سالونيك (شمال اليونان)، واقفاً في احدى محطات سلوفاكيا، وكان ركاب احدى العربات يتدافعون امام حوض الماء ليشربوا، ثم يعودون سراعاً الى العربة تحت الرقابة، فيضغطون بعضهم بعضاً لكي يتوفر لهم جميعاً مكان فيها. وكان ذلك المشهد مؤلماً للغاية

كانت القطر الصفراء تحمل اليهود من مختلف الاقطار المحتلة الى بولونيا، حيث يجري تكديسهم في الحي اليهودي فيها. وفي سنة ١٩٤٤ قام سكان هذا الحي بثورة دامية، مستخدمين اسلحة حملتها اليهم الطائرات، فوقعت معارك استمرت ثلاثة ايام، وكانت نهايتها ابادة آخر يهودي في قبضة الالمان. ولقد قيل بعد هذه الحرب الشيء الكثير عن ابادة الالوف بالغاز السام وحرق الجثث بالافران وما اشبه ذلك. على انني لم اسمع شيئاً من هذا في المانيا نفسها، وان كان شائعاً ان اليهودي الذي يذهب الى بولونيا لا يعود حيا. وقد ثبت ان كل ما قيل عن فظائع معسكرات الاعتقال في المانيا او في الاقطار المحتلة كان يتناول اليهود من مختلف الجنسيات في الدرجة الاولى.

وكانت عملية ابادة اليهود موكولة الى فرق معينة من رجال الـ «غستابو»، فكل فرقة تعمل في منطقة معينة، فعندما تنتهي من بلدة، تنتقل الى اخرى. وعلى هذا يمكن القول بأن المسؤولية في ابادة اليهود تقع على افراد تلك الفرق وحدهم وان الامر بذلك صدر من هتلر مباشرة.

ولم يكن الالمان يرون من هذه العملية الدموية شيئاً، ومن يعرف بشيء منها بحكم منصبه لا يبوح به، اما احتراماً لسر الوظيفة او خشية الانتقام، وعلى كل فإن اكثرية الشعب الالماني كانت تؤيد فكرة اقصاء اليهود من المانيا، ولكن الاكثرية ايضاً كانت تستنكر معاملتهم بهذه الاساليب. وكان الكثير من الالمان يسكت عن هذه المعاملة، مفضلاً ابادة اليهود قبل نهاية

الحرب خشية ان يعودوا الى الانتقام من الالمان في ساعة الهزيمة. وقد تحققت هذه الرغبة الى حد كبير، فلم يبق الآن من يهود المانيا (وكان عددهم ٧٠٠ ألف) سوى ٣٠ ألفاً نجوا بأعجوبة.

١٩

لم يبق من يهود المانيا وبولونيا الا الذين ابقى عليهم الالمان، اعني المتقدمين في السن الى حافة القبر.

على ان المانيا لم تستطع رغم نفوذها القوي في اوروبا، ارغام حلفائها على افناء يهودهم. ففي ايطاليا مثلاً ظل اليهود يتمتعون بالمساواة حتى سنة ١٩٤٢ وعندئذ فرض عليهم موسوليني تحت الحاح هتلر بعض القيود المالية.

وحذت سلوفاكيا حذو المانيا، فاستأصلت اليهود وارسلتهم الى بولونيا. وكذلك فعلت كرواتيا. اما في رومانيا فقد اكتفت الحكومة بمنع اليهود من ممارسة التجارة وبمصادرة اموالهم، فما كان منهم الا ان تابعوا اعمالهم تحت اسماء اخرى، ولم يتبدل شيء جوهري في وضعهم.

ومما يذكر عن يهود رومانيا ان اكثرهم يعيش في الشمال، خاصة في منطقة بسارابيا. فلما احتل الروس بسارابيا سنة ١٩٤٠، سارع اليها اليهود من كل حدب وصوب، واستولوا على المناصب الرئيسية بسرعة. فلما

عاد الالمان والرومانيون الى بسارابيا في اواخر ١٩٤١، انتقموا من يهودها انتقاماً رهيباً كلفهم بضعة آلاف قتيل وقد ساقتني احدى رحلاتي في سنة ١٩٤٣ الى شمال رومانيا، واضطررت الى قضاء ثلاثة ايام في نقطة الحدود الرومانية اوراشيني الواقعة بين رومانيا وبولونيا على نهر البروت، وعلى مقربة من تشرنوفتش عاصمة بسارابيا. وفي اثناء اقامتي قادني احدهم الى حفرة وقال: «هنا دفنت جثث اليهود الذين قتلوا بعد الاحتلال. وهناك جثث اخرى حملها النهر الى حيث لا ندري!»

وما عدا ذلك فإن يهود رومانيا لم يقاسوا اضطهاداً قاسياً بالنسبة الى الموت الاسود الذي قاساه يهود المانيا وبولونيا.

وفي بلغاريا ايضاً وقف الملك بوريس حاجزاً ضد تطبيق القوانين الالمانية على يهود بلاده. وأخيراً اذعن لضغط هتلر الشخصي، فسمح بانتزاع اموالهم ومنعهم من ممارسة التجارة وغيرها. ولما احتدمت الحرب في سنة ١٩٤٣، طلب الالمان الى الحكومة البلغارية اقصاء جميع اليهود عن العاصمة صوفيا، حرصاً على سلامة الجيوش الالمانية المرابطة في البلاد.

وعلى الاثر نزلت الحكومة البلغارية عند هذا الطلب، وارسلت جميع اليهود الى قرى معينة في شمال بلغاريا وغربيها. واذا كان اليهود قد قاسوا في هذه القرى الكثير من الحاجة وسوء التغذية، فإن وجودهم خارج صوفيا انقذهم من الغارات العنيفة التي شنها الاميركيون فيما بعد على المدينة. ومن غريب ما يذكر ان الطائرات الاميركية كانت تستعين في الاهتداء الى اهدافها بشبان من اليهود البلغاريين الذين فروا عن طريق تركيا وقد شهدت مرة محاكمة احد هؤلاء اليهود فدافع عن نفسه بقوله انه يحبذ ضرب صوفيا انتقاماً لما فعله البلغار بأبناء بلدته.

ولا شك ان المجر كانت فردوس اليهود الموعود في اوروبا في اثناء الحرب. فهم يعدون في الاساس اكثر من نصف مليون ويقبضون على مقاليد الحكم والنفوذ والغنى فيها. وبالرغم من دخول المجر الحرب الى جانب المانيا، فإنها ظلت تتمتع بحرية داخلية تامة، وظل اليهود اسياد

الموقف. ثم زاد عددهم مئتي الف نسمة بما وفد على المجر خلسة من يهود الاقطار المجاورة الهاربين من الاضطهاد الالماني.

وظل اليهود مسيطرين على المجر علناً اكثر سني الحرب. وبلغ نفوذهم اوجه في سنة ١٩٤٣ . وانني لأذكر ان اصحاب الحوانيت التجارية في بودابست – ٩٠ بالمئة منهم يهود – كانوا يرفضون ان يستقبلوا الزبون اذا كان يتكلم الالمانية. وكانت اللغة الانكليزية هي اللغة الشائعة تحت انف الالمان، حتى ان الالمان اطلقوا على بودابست اسم «يودابست» اي «الوباء اليهودي» فاستاءت الحكومة المجرية من هذه التسمية واحتجت عليها رسمياً.

وفي اواخر سنة ١٩٤٣ حاولت الحكومة المجرية بوحي اليهود عقد الصلح خلسة مع الانكليز والاميركيين، على ان يهبطوا فيها بالمظلات، فما كان من الالمان الا ان احتلوا البلاد بجيوشهم ونصبوا فيها حكومة نازية، ثم شرعوا يفتكون باليهود وينتقمون منهم افظع انتقام، فلم يبق من نصف المليون اليهودي اكثر من مئة الف على قيد الحياة.

وفي اليونان ساق الالمان يهود القسم الشمالي من البلاد الى بولونيا، خاصة يهود سالونيك. وكذلك فعلوا بيهود هولندا وبلجيكا والدانمارك والمجر وبجزء من يهود فرنسا.

* * *

بالرغم من الاضطهاد الشديد، وبالرغم من عمليات الافناء، فقد استطاع عشرات الألوف من اليهود ان يخرجوا سالمين من الأزمة.

ولم يكن لليهود من مهرب في المانيا نفسها وفي الأقطار التي يحتلها الالمان. ولكنهم استطاعوا في الأقطار الحليفة لالمانيا ان يستخدموا مختلف الوسائل، للتهرب من الاضطهاد.

كانت الوسيلة الاولى هي اعتناق الدين المسيحي. وكانت الكنيسة الكاثوليكية تشجع هذه الحركة، وتحمي اليهود، على قدر استطاعتها، من الاضطهاد طمعاً باكتسابهم.

وقد وقع في يدي في سنة ١٩٤٢ عدد من جريدة مجرية يتضمن صفحة كاملة من اعلانات تبديل الاسماء، وكلها من طراز «الياهو ليفي أصبح ميشا شاندور» وقس على ذلك.

وهناك ايضاً وسيلة الجوازات المزورة فقد تألفت في البلقان «شركات» تبيع الجوازات بأسعار البورصة السوداء. وهكذا استفاقت السلطات المجرية ذات يوم فوجدت ان عدد سكانها قد زاد مئة ألف بقدوم مئة ألف مجري من سلوفاكيا وبوهيميا ومورافيا وكرواتيا، دون ان تجد لأسمائهم أي اثر في سجلات الولادة المجرية!

* * *

قلت انه كان في المانيا ٤٠٠ الف يهودي، و٢٠٠ الف نصف يهودي (أي من اب يهودي وام مسيحية او بالعكس) ومئة الف ربع يهودي (أي من جد يهودي او جدة يهودية).

وقد حكمت القوانين النازية في اثناء الحرب بافناء اليهود، وبتذويب ارباع اليهود في المجتمع الالماني. اما انصاف اليهود فقد كان نصيبهم شديد المرارة، اذ حظروا عليهم الزواج من غيرهم كما حظروا عليهم التزاوج فيما بينهم، رغبة منهم في القضاء نهائياً عليهم خلال جيل واحد. وكانت السلطة تفرض عقوبة صارمة جداً على كل من يعاشر انصاف اليهود معاشرة جنسية.

كان انصاف اليهود يكثرون بصورة خاصة في فيينا الحديثة العهد بالنازية.

وقد التقيت اثناء اقامتي فيها بعدد وافر منهم. ولا ازال اذكر فتاة منهم لقيتها ذات مساء في بيت الماني بيروتي الاصل، فراحت تحدثني عن بؤسها والدموع تنهمر من عينيها، فتقول:

- انا كالوردة التي تذبل. كلما وقفت امام المرآة ورأيت وجهي الجميل اتمنى لو استطيع ان امزقه ارباً ارباً، كي لا يكون عندي ما اندم على ذهابه عبثاً. ان صباي يذوي دون ان اتمتع به. فلست باليهودية ليجوز لي ان

اعاشر اليهود، ولست بالمسيحية ليجوز لي ان اعاشر المسيحيين. والويل لي ان خالفت النظام، فيكون نصيبي بولونيا!

قلت لها: الا تخالفين النظام حقاً؟

فأجابت: بلى، عندما استطيع. ولكن كيف استطيع ان اخالفه والرقابة شديدة وعلى كل شيء؟ وما اللذة في لذة ينعم بها الانسان لحظات تحت رحمة الاقدار؟

والقيت نظرة على تقاطيعها الجميلة، وشعرت بالشفقة على هذا الجمال يذوب كما تذوب الراهبة الفتية، ولكن بلا ثواب ولا حساب. ثم تذكرت المثل العربي: «الآباء يأكلون الحصرم، والابناء يضرسون» فترجمته لها، فأجابت:

– لا يا صديقي، انهم لم يأكلوا الحصرم. نحن الذين نأكله ونضرس!

ثم روت لي كيف انها اشتركت في الحركة النازية منذ نشأتها، وكيف كانت تهرب الرسائل بين الفروع النازية في فيينا ودرسدن (قبل الـ «انشلوس») عن طريق براغ. وقد عرضت حياتها للخطر في سبيل الفوهرر، فكان جزاؤها هذا الحرمان.

قلت: ألم يستثنوك من هذه القيود تقديراً لجهادك؟

فأجابت: ليس عندنا في هذه البلاد مستثنى. ومع ذلك فقد اعتدت على هذه المعيشة. واملي الاكبر ان تسقط عليَّ قنبلة تذهب بي حتى لا ابقى الى نهاية عمري في هذه العزلة القاتلة!

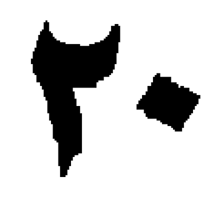
* * *

الى جانب الذين بدلوا دينهم او هويتهم او فروا من قطر الى قطر، استطاع اكثر من خمسين الف يهودي مغادرة اوروبا في اثناء هذه الحرب. ولعل خروجهم هو بلا ريب اعجوبة الاعاجيب، اذ ان القيادة الالمانية التي لم تكن تسمح لأحد بالخروج من اوروبا الا اذا كان خروجه ضرورياً للمجهود الحربي الالماني، لم تمانع في ان يغادر القارة خمسون الف يهودي بين ١٩٤٠ و١٩٤٤، معظمهم من رومانيا والمجر وبلغاريا، أي من الدول الحليفة

لالمانيا. ولا استطيع تعليل تساهل الالمان في هذه القضية الا بأنهم كانوا يدسون بين صفوف الخارجين جواسيس وعملاء.

وكانت الحكومة التركية تسمح بدخول هؤلاء اليهود الى بلادها على سبيل الـ «ترانزيت» بلا قيود ولا شروط، بناء على طلب اميركا، وعلى هذا فقد كان الخارجون ينتقلون الى تركيا، ومنها الى فلسطين عن طريق سورية او قبرص.

ولقد روجع الالمان مراراً في امر هؤلاء اليهود، وقيل لهم ان السماح بخروجهم يعزز الهجرة الصهيونية ويزيد الضغط على العرب في فلسطين، في الوقت الذي يتقرب فيه المحور من العرب ويتبنى مقاومة الصهيونية. ولكن هذه المراجعات لم تلاق يوماً اذناً صاغية، وظل الالوف من اليهود يغادرون اوروبا بجوازات رسمية عن طريق كونستنزا في رومانيا بحراً، او عن طريق بورغاس وفارنا في بلغاريا. وتألفت في استانبول في اثناء الحرب شركة لنقل اولئك المهاجرين علنا، وكان رسلها يترددون على بلغاريا ورومانيا تحت انف الالمان بلا معارضة.



■ فيينا، ١٢ آذار (مارس) ١٩٤٢

اعود بالقارئ اليوم الى حيث وصلت في رحلتي حسب تسلسل حوادثها، اي الى اليوم الثاني من وصولي الى فيينا.

قلت سابقاً انني جئت الى فيينا بناء على امر السلطات الالمانية، لأسباب لم اعرف منها شيئاً. وقيل لي انني سأجد في فيينا من يتصل بي، ومع ذلك فقد مرت ثلاثة ايام على اقامتي دون ان يتصل بي احد.

وعيل صبري من الانتظار في اليوم الثالث. وكنت اعلم ان بعض رفاقي من العرب مقيمون في برلين، فعقدت العزم على السفر الى برلين لاستطلاع جلية الامر.

وفي صباح الثاني عشر من آذار (مارس) طلبت الى كاتب الفندق ان يحجز لي سريراً في القطار السريع الى برلين. ثم طلبت اليه ان يعيد اليّ جوازي - وكان قد اخذه لتسجيله - فبدت على وجهه دلائل الارتباك، وأجاب:

- آسف يا سيدي، انه لا يزال عند الشرطة.

قلت: ولكن الجوازات عادة لا تبقى عند الشرطة اكثر من ساعات قليلة فما سبب التأخير؟

فأجاب: لا ادري، ولكن ليست هي المرة الاولى التي يتأخر فيها جواز احد الركاب لدى الشرطة.

وعدت بعد الظهر وسألته اذا كان قد ابتاع لي تذكرة السفر الى برلين، فأجاب:

- القطار يغادر فيينا في الساعة الثامنة مساء، ولا يزال لدينا متسع من الوقت!

وتسربت الشكوك الى نفسي من لهجة الرجل، وخطر لي ان اذهب بنفسي لاشتري التذكرة، ثم تذكرت ان الحصول على تذاكر السفر مباشرة مستحيل في المانيا في ايام الحرب، فسلمت امري الى الله، وصعدت الى غرفتي اعد الحقائب.

وقبيل الساعة السادسة عدت الى الكاتب اراجعه، فأجابني هذه المرة بصراحة:

- لا اعتقد يا سيدي بأنك تستطيع السفر الى برلين اليوم. انك اجنبي، والاجنبي لا يستطيع ان يسافر بلا جواز وجوازك لا يزال عند البوليس!

فسألته غاضباً: ولِمَ لم تأت به في الوقت المناسب؟

فأجاب: ليس الذنب ذنبي، فالبوليس محتفظ به. وعبثا راجعت اليوم، وقلت انك تود السفر الى برلين، فكان الجواب دائماً:

- ليس باستطاعة الهر مروا ان يسافر الى برلين، وعليه ان يبقى في فيينا الآن...

اذن فالجماعة لا يجهلون وجودي في فيينا. ولكن لمَ لا يخترق احدهم ستار الابهام ويصارحني بما يجري وراء ظهري او وراء الستار؟

لم اكن اجهل انني تحت رقابة شديدة، وكثيراً ما شعرت ورائي بخطوات خفيفة تلاحقني في جميع حركاتي وسكناتي. ولكنني لم اعتبر ذلك

تدبيراً خاصاً بي، لأن الاجنبي في ايام الحرب يعيش - كما قلت في حلقة سابقة - مع البوليس. وقد تذوقت بنفسي الامرين من رقابة البوليس في تركيا المحايدة، فليس عجيباً اذن ان يكون الـ «غستابو» في المانيا المحاربة اكثر حذراً ويقظة ورقابة!

* * *

ممنوع عليك السفر الى برلين! لهم الحق في ان يمنعوني من السفر الى عاصمتهم، ولكن لي الحق على الاقل ان اعرف السبب، ان لم يكن سبب المنع فسبب استقدامي الى فيينا!

صعدت الى غرفتي في تلك الليلة والافكار السوداء تجول في خاطري بلا انقطاع. وعبثاً حاولت ان اغمض عيني فقد كانت الاسئلة تتوالى في دماغي وبلا انقطاع وتطرد السهاد منه.

وبعد تفكير طويل، قررت ان الاستسلام للقدر لا يكفي، ولا بد من مجابهة الموقف بما يحتاج من نشاط. ثم عقدت العزم على الاتصال باصدقائي واخواني حيث يكون ذلك ممكنا، والاستعانة بهم على استيضاح الحقيقة.

وكان جميع العرب يومئذ مقيمين في روما، اذ انتقل اليها المفتي الاكبر الحاج امين الحسيني ورئيس الوزارة العراقية السيد رشيد عالي الكيلاني، للشروع في مفاوضة المحور على القضية العربية في حالة فوزه، وانتقل معهما اكثر المغتربين العرب فلم يبق منهم في برلين سوى القليل القليل.

ومن حسن الحظ كان بين الباقين الصديق الاستاذ عفيف الطيبي، وكنت اعرف انه ينزل في فندق «اكسلسيور»، فقررت ان اتصل به فوراً. وكانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل، فتناولت الهاتف وطلبت برلين.

وقد يستغرب القارئ بهذه المناسبة كيف كان الاتصال التلفوني في المانيا سهلاً في اثناء الحرب، مع انه كان محظوراً في بلادنا مثلاً الا ضمن شروط قاسية. والواقع ان المقيم في المانيا كان يستطيع الاتصال بسرعة

بأي بلد آخر ضمن الحدود الالمانية دون أية معارضة، بل دون اية رقابة. وكانوا في بلادنا يفرضون الرقابة على الرسائل حتى في داخل المدينة الواحدة. اما في المانيا فقد كانت الرقابة الداخلية غير معروفة البتة، مع ان حدود المانيا في اثناء الحرب كانت تتضمن مئة مليون نسمة، على ان الرقابة شديدة على المواصلات البريدية والهاتفية مع الخارج.

وبدلا من التشدد في رقابة المقيمين، كان الـ «غستابو» يتشدد في رقابة الداخلين، فلا يجيز لأحد دخول المانيا والاقامة فيها الا اذا كان مطمئنا اليه او اذا كان يبغي من وراء دخوله غاية معينة.

بعد ربع ساعة كنت اتحدث الى الأخ عفيف بالهاتف، للمرة الاولى منذ افترقنا في تركيا في كانون الثاني (يناير) ١٩٤١، ثم حدثته عن وضعي المبهم، وطلبت اليه مراجعة المصادر المختصة لجلاء حقيقته، فوعد بأن يتصل فوراً بالدكتور غروبا. وكان غروبا قبل الحرب وزير المانيا المفوض في العراق والمملكة العربية السعودية. ولما انتقل المفتي والكيلاني الى اوروبا، ظل غروبا يقوم بالمهمة نفسها، فكان بذلك المرجع الالماني الرئيسي للشؤون العربية.

ثم نهضت من سريري وكتبت اليه كتابا مفصلا، كما كتبت عدة رسائل الى اصدقائي المقيمين في روما، وعدت الى السرير وانا مطمئن الى انني عملت كل ما يمكن عمله في مثل هذه الاحوال. والتيسير على الله كما يقولون!

كنت لا ازال اتقلب في السرير عندما دق جرس التلفون، واذا بكاتب الفندق يقول:

– هر مروا... هنا زائر يريد ان يراك!

زائر يريد ان يراني؟ ومن يعرفني في فيينا، او يعرف انني قدمت اليها؟

قلت: ومن هو؟ وما جنسيته؟

فأجاب: انه الماني!

قلت: ليتفضل الى الغرفة!

ونهضت من سريري على عجل. وما كدت ارتدي الـ «روب دو شامبر» حتى سمعت الباب يقرع، ويدخل منه رجل في الاربعين من العمر، يرتدي ملابس مدنية سوداء. وخطا الرجل خطوتين الى الامام، ثم ضرب قدمه بالقدم الاخرى، وانتصب تجاهي يحييني بالتحية العسكرية كأنني فريق او امير لواء!

واعجبتني هذه التحية، حتى كدت ابادله اياها، لولا ان تذكرت انني لن استطيع مقابلته بالمثل، فاقتربت منه وصافحته، فإذا به يقول:

– انا اسمي رودولف فريدريش... من بوليس الدولة السري (اي الـ «غستابو»).

وانتفضت عندما سمعت بذكر الـ «غستابو» ثم استدركت الانتفاضة بابتسامة مصطنعة ودعوته الى الجلوس، فجلس.

وبدأ الرجل يتحدث بكل ادب ولطف قائلا:

– هر مروا... انت لا تعرفني، ولكنني اعرفك، فأنا هو الرجل المولج بالعناية بأمرك ما دمت في فيينا...

ولاحظ الرجل انني سأتكلم، فسارع الى استئناف كلامه قائلاً:

– لقد علمنا انك ترغب في السفر الى برلين، لذلك اضطررت الى ازعاجك بهذه الزيارة، فجئت ارجوك الا تحاول مغادرة فيينا الى اي مكان آخر في الوقت الحاضر. لقد قيل لي ان برلين روجعت بأمرك، ولكن الجواب لم يصل بعد، لذلك نرجوك البقاء هنا في انتظاره، كما نرجوك ان تعتبر نفسك ضيفاً علينا ريثما يصل الجواب!

ضيف الـ «غستابو»؟ اضحكتني هذه العبارة، فقلت للرجل:

– هل تستطيع ان تبلغني سبب استقدامي من صوفيا الى فيينا؟

فضحك الرجل وقال: يؤسفني الا استطيع لأنني لا اعرف انا موظف يتلقى الاوامر وينفذها. كل ما اعرفه هو انني تلقيت في ٨ آذار (مارس) الامر بالذهاب الى الحدود، وانتظار وصولك بالقطار الى نقطة ايزن شتات.

وكان عليّ ان ارافقك الى فيينا وانزلك في احد الفنادق. وقد حجزت لك فعلاً غرفة في فندق «سيلكت» ثم سافرت الى النقطة المشار اليها لانتظارك فوصل القطار ولم تصل انت معه. ولم نلبث ان علمنا انك اخطأت اختيار القطار ودخلت من نقطة بروكل، وحللت في هذا الفندق!

ونهض الرجل، واخرج من جيبه مغلفاً ناولني اياه، ففتحته فإذا به يتضمن كمية من الاوراق النقدية وبطاقات الاعاشة فأعدت اليه الاوراق النقدية شاكراً، واكتفيت بالبطاقات، ثم ودعني وقال:

– انني تحت تصرفك متى تشاء. اذا احتجت اليّ اتصل بي تلفونياً، على النمرة التالية: «غستابو» ٤٤٦!

وسجلت النمرة في دفتري، بينما كان الرجل ينسحب من الغرفة بعد ان أدى التحية العسكرية «على الشعرة». وما ان اقفل الباب وراءه حتى انفجرت مقهقهاً، ووقفت امام المرآة، واشرت باصبعي الى نفسي قائلاً:

– انت... انت ضيف الـ «غستابو»؟



■ فيينا، ١٣ اذار (مارس) ١٩٤٢

لن ازعج القارئ بوصف الساعات الطوال التي قضيتها وانا ابحث عن الاسباب التي جعلت مني ضيفاً على الـ «غستابو»، او جعلت الـ «غستابو» يختارني ضيفاً عليه، او جعلت بيني وبينه اية صلة.

لقد جلست بعد خروج الهر فريدريش افكر واتساءل، فاستقر رأيي في النهاية على وجود وشاية ما، او على ان مسلكي المحايد في استانبول لم يرض الالمان ايضاً.

واخيراً هززت كتفي، وقلت في نفسي:

– ليكن ما يكون. انا الآن ضيف الـ «غستابو»، فلأتمتع بهذه الضيافة، اذ لن تتكرر في العمر مرتين!

وكان اول ما فعلت ان اتصلت هاتفياً ببرلين وحدثت الأخ عفيف الطيبي بما جرى، ثم حملت الرسائل التي كتبتها في الليل الى الاصدقاء في روما، وخرجت ابحث عن رسول يحملها معه، اذ ان ارسالها بالبريد معناه

احتجازها في الرقابة. ولم البث ان وفّقت الى طالب عربي مسافر من برلين الى روما، فحملته الرسائل، وأدى الامانة فيما بعد على اكمل وجه، وكان لذاك فضل كبير في خروجي من مأزقي.

اربعة اسابيع قضيتها في فيينا قبل ان يعود فريدريش الى زيارتي. وكانت هذه الاسابيع الاربعة من اجمل ما عرفت في اوروبا، اذ انصرفت الى التمتع بما تقدمه فيينا للزائر الغريب من عجائب واطايب.

ولقد انصرفت منذ البداية لدرس طباع النمسويين، فلاحظت منذ الوهلة الاولى فرقاً كبيراً من هذه الناحية بينهم وبين الالمان، بالرغم من وحدة العنصر واللغة. فالنمسوي لين العريكة، يذوب لطفاً وذوقاً وفناً، بعكس البروسي الجاف الصلب. وقد حاول النازيون في بداية عهد الـ «انشلوس» ان يفرضوا على النمسويين انظمتهم القاسية، فادركوا منذ اللحظة الاولى ان مجهودهم سيذهب عبثاً، لأن الطبع النمسوي، خاصة في فيينا، لا يهضم اساليب العنف. وعلى الاثر اعتبر النازيون النمسا واحة غناء وسط صحرائهم، يوافونها للترفيه عن النفس، ويرسلون اليها الجند لقضاء الاجازة، والجرحى للمعالجة. وبدلا من ان تتطبع فيينا بالخشونة النازية، اذا بالنازية نفسها تتطبع بنعومة فيينا!

ومع ان السلطات الالمانية كانت صارمة في تطبيق القوانين الى الحد الاقصى، فإنها كانت تتساهل كثيرا مع النمسويين، لأن النمسوي يرضى بحمل السلاح، ويحارب بشجاعة، ويخضع لجميع القيود، ولكنه لا يستطيع ان يحبس النكتة - مثلا - اذا جاءت، ولو كانت على حساب من كان!

وقد انتقل اكثر من مليون الماني في اثناء الحرب الى النمسا للاقامة فيها، اما هرباً من الغارات الجوية في منطقة الرور بصورة خاصة، او للتخفيف عن ضغط الاعاشة في بعض المناطق الفقيرة. وكان التمييز بينهم وبين النمسويين سهلاً، بمجرد نظرة او لفظة او حركة. على ان ذلك لا يعني ان هذه الفوارق الاجتماعية والمظهرية كانت تؤثر في التفريق بين الطرفين، او ان النمسويين لم يتقبلوا الـ «انشلوس» عن رضى وطيبة خاطر.

* * *

كانت النازية منتشرة انتشاراً كبيراً في النمسا، بالرغم من التناقض الظاهر بين قسوة مبادئها، وبين نعومة الطبع النمسوي. ويعود السبب في ذلك الى ان النازية كانت المبدأ السياسي الوحيد القائل بضرورة توحيد النمسا والمانيا. لذلك اقبل النمسويون عليها كحركة جرمانية في الدرجة الاولى، بصرف النظر عن كل اعتبار آخر. وهكذا اصبح كل نمسوي راغب في الـ «انشلوس» نازياً بحكم الطبيعة.

وتم الـ «انشلوس» في سنة ١٩٣٨، واستقبله النمسويون بالترحاب، لأنه حقق لهم اعز امنية من امانيهم. وبتحقيق هذه الامنية انقطع الرباط الذي كان يربط بينهم وبين النازية، واذا بهم يجدون النازية نظاماً صارماً لا يتفق مع طباعهم اللينة المرحة، فانصرفوا عنها بصورة اجمالية.

ولقد قامت النازية في المانيا نفسها باصلاحات اجتماعية جعلت بعض الطبقات يتمسك بها. اما في النمسا فإنه ما كاد الجيش الالماني يحتلها حتى وقعت الحرب، فلم يسمح الوقت للنازيين باتخاذ اي تدبير داخلي في النمسا من شأنه اكتساب قلوب الناس، بل اضطرتهم الحرب الطارئة الى حمل الضائقة والحرمان الى النمسويين، فازدادوا ابتعاداً عنها ونقمة عليها.

بيد ان الحرب نفسها هي التي حالت دون تبلور تلك النقمة بأكثر من النكات والانتقادات. لقد قيل في الخارج، وقال بعضهم في المانيا نفسها، ان الحرب هي حرب نازية الأصل والفصل والغاية. وقد يكون ذلك صحيحاً، وقد لا يكون. ولكن الحرب لم تصب النازيين وحدهم، بل شملت المانيا كلها، وجعلت مصير الشعب الالماني عن بكرة ابيه معلقاً في كفة القدر. ولقد كانت الاذاعات الحليفة تحاول اقناع الالمان اثناء الحرب ان الحلفاء لا يريدون اكثر من سحق النازية، وان سحق النازية سيحمل اليهم الخلاص.

ولكن الالمان بصورة عامة لم يصدقوا هذه الدعاية، لأنهم ادركوا ان

الحرب لا توفر احداً، لذلك اقدموا على الاشتراك في الحرب اشتراكاً صحيحاً، واعتبروها لا حرباً نازية بل حرباً جرمانية. وعلى هذا الاساس ساهم النمسويون في الحرب مساهمة فعالة صادقة.

وكان الالمان يستهترون عادة بالجنود النمسويين، ويقولون عنهم انهم لا يصلحون لغير الرقص في الصالونات. بيد ان الشجاعة الفائقة التي ابداها النمسويون في الدفاع عن (مرفأ) نارفيك (في شمال نروج) سنة ١٩٤٠ جعلت القيادة الالمانية تعدل وجهة نظرها فيهم، فاشركتهم على الاثر في مختلف الجبهات دون تمييز، واثبتوا فعلا انهم يعرفون كيف يحاربون حتى الموت.

ولقد لمست من سكان فيينا شعوراً بالزهو ازاء هذه الوقائع، وكثيراً ما سمعتهم يتحدون الالمان بصورة عامة، والنازيين بصورة خاصة، قائلين ان «النظام الفيناوي» هو اصلح من النظام «البروسي - النازي» لأنه يعلم الانسان كيف يعيش ايام السلم مبتسماً وكيف يموت مبتسماً، اما النظام البروسي - النازي فإنه يعلم الانسان ان يعيش في السلم مكشراً، فلا يعرف الابتسامة الا في ساعة الموت!

* * *

بين التهم التي يوجهها الحلفاء الى زعماء النازيين احتلال النمسا بالقوة. وقد تليت في محكمة نورمبرغ عشرات الوثائق لتأييد ذلك الرأي.

اجل، لقد دخل الجيش الالماني النمسا من دون استئذان، واكتسح بدخوله معارضي الـ «انشلوس». ولكن الاسلوب الذي اختاره هتلر - اسلوب القوة - لا يعني ان اكثرية النمسويين كانت معارضة في الاتحاد مع المانيا.

لقد كرست عدة ايام في فيينا لجلاء هذه النقطة، بدافع الفضول الصحافي في الدرجة الاولى، فقد كنت بين ١٩٣٥ و١٩٤٠ اتولى تحرير القسم الخارجي من صحيفة «النهار» (البيروتية). ولقد كتبت خلال هذه المدة الطويلة مئات المقالات عن القضية النمسوية لأنها كانت الشغل الشاغل

للسياسة الدولية قبل الحرب، وكانت تحتل اكثر اعمدة البرقيات الخارجية.

قلت سابقاً ان النمسويين يؤلفون عنصراً المانياً قد يكون افضل العناصر الجرمانية من حيث طباعه وميزاته الانسانية. وعلى هذا فإن البحث في «عنصرية» الاتحاد بين المانيا والنمسا، امر مفروغ منه. والفرق بين النمسوي والالماني من هذه الناحية يكاد يشبه الفرق بين اللبناني والعراقي تقريباً، اي في الطباع فقط.

ولقد كانت النمسا حتى نهاية الحرب العظمى تتزعم امبراطورية تعد اربعين مليوناً وتسيطر على اكثر اقطار اوروبا الوسطى والشرقية. وفي سنة ١٨ – ١٩١٩ مزق الحلفاء امبراطورية آل هابسبورغ، فهبط عدد سكان النمسا فجأة الى ثمانية ملايين، واصبحوا يؤلفون دولة مستقلة ذات عاصمة جبارة كفيينا، لكنها فقيرة اقتصادياً الى درجة العدم. ولم تمر بضعة اشهر على الاستقلال حتى ادرك النمسويون ان دولتهم لا تستطيع ان تعيش وحدها، فقرروا في سنة ١٩٢٢ انشاء اتحاد جمركي – اقتصادي مع المانيا. ولكن الحلفاء تدخلوا ومنعوهم بالقوة من ذلك، فظل النمسويون مستقلين قسراً!

ومنذ سنة ١٩٢٢ والنمسا تعيش في ازمة اقتصادية خانقة، تستمد الحقن المالية من اميركا وفرنسا وانكلترا وايطاليا، دون ان يجدي ذلك نفعاً. وما ان وصل هتلر – النمسوي – الى الحكم في المانيا حتى تجددت فكرة الاتحاد مع الرايخ، فأصبح الشباب يطالبون بالاتحاد لاسباب عنصرية روحية، والشيوخ لاسباب اقتصادية. ولو جرى استفتاء حر في النمسا قبل دخول الجيش الالماني في آذار (مارس) ١٩٣٨ لقررت الاكثرية الساحقة من دون ادنى ريب الانضمام الى المانيا. وهذه تقارير السفراء الاجانب – وفي مقدمتهم سفراء انكلترا واميركا وفرنسا – خير شاهد على ذلك.

ولا اعرب بما اقول عن رأيي الشخصي بل عما شهدت وسمعت في فيينا نفسها من مختلف طبقات النمسويين، وهو ينطبق تمام الانطباق على الوقائع التاريخية.

وفي نهاية هذه الحرب عاد الحلفاء الظافرون فجعلوا النمسا دولة مستقلة. ولكن هذا الاستقلال ليس مستوحى من رغبات النمسويين، اذ لم يستفتهم الحلفاء في رغباتهم، بل من مقررات «الثلاثة الكبار». وليست الغاية من هذا الاستقلال الدفاع عن حق الشعوب الصغرى في الاستقلال، لأننا رأينا كيف فهمت الدول الكبرى هذا الحق بعد ان انتصرت، بل فصل النمسا عن المانيا لاضعاف المانيا، وانشاء حاجز يفصل بين المانيا وايطاليا والبلقان، ويسد المنافذ على المانيا فيما بعد فيحول بينها وبين الوصول الى حوض الدانوب واوروبا الجنوبية الغربية.

واستناداً على ما شهدت وسمعت، استطيع التأكيد بأن النمسا لن تستطيع ان تعيش كدولة مستقلة اكراماً لمصالح الدول الظافرة. وعلى هذا فإن مصير النمسا المحتوم هو احد امرين: اما ان تؤلف الدول الظافرة اتحاداً من دول نهر الدانوب تتزعمه النمسا فتستطيع ان تحتفظ عندئذ باستقلالها عن المانيا، واما ان تعود فتنضم مرة اخرى الى المانيا حالما تستعيد المانيا قوتها.

* * *

عندما بدأت الحرب في سنة ١٩٣٩ منعت الحكومة الالمانية الرقص منعاً باتاً ولما انتهت الحرب في الجبهة الغربية وتم عقد الهدنة مع فرنسا في حزيران (يونيو) ١٩٤٠ اجيز الرقص. وما ان بدأت الحرب في روسيا ١٩٤١ حتى اعيد الحظر على الرقص فلما دخلت اليها وجدت ركنا من اركان الحياة الاجتماعية فيها مفقوداً. وبالرغم من ان متاعب الحياة اليومية كانت لا تحصى ولا تعد، وان مشاكل الحرب كانت تتزايد، فقد كان الفيناوي، او الاحرى الفيناوية، تشعر بوطأة الحرمان من الرقص، لأن الرقص والموسيقى هما اختصاص فيينا الاكبر من دون مدن العالم كلها، ويندر ان يخلو بيت في فيينا من بيانو، او من فرد من افراد العائلة يعزف على آلة ما او يغني، ذلك لأن الفنون الجميلة التي يتعلمها الانسان من اجل الفن فقط هي المظهر الاول من مظاهر الرقي الاجتماعي والنفسي، وخير

وسيلة لصقل الطباع.

ولقد لاحظت عند مدخل فندق «امبريال» لوحة من البرونز، تخلد ذكرى زيارة الموسيقي العظيم فاغنر للعاصمة النمسوية في اواخر القرن الماضي ونزوله في ذلك الفندق، فسألت مديره:

– لقد حل فندقكم مئات الملوك والعظماء فلم اخترتم فاغنر من دونهم وخلدتم ذكره بهذه اللوحة؟

وعلى الاثر اخرج الرجل من خزانته الحديدية سجلا ذهبياً ضخماً، وفتحه امامي فإذا به يتضمن تواقيع كبار العظماء الذين نزلوا في الفندق. ورحت اقلب الصفحات فرأيت فيها تواقيع الامبراطور فرانسوا جوزيف والامبراطور غليوم والملك ادوار السابع، وعددا لا يحصى من الرؤساء والوزراء من قديم وحديث، ولاحظت من بينها عدة تواقيع بالعربية منها تواقيع ولي عهد تركيا والخديوي عباس حلمي والملك فؤاد، ورحت استعرض التاريخ من خلال هذه التواقيع وقلت للرجل:

– ولمَ خلدتم ذكرى فاغنر وحده من دون هؤلاء؟

فابتسم، وتناول كرّاساً صغيرا يتضمن برامج الحفلات الموسيقية في ذلك الاسبوع في فيينا، وعرض عليّ صفحة منه قائلا:

– اترى اسم فاغنر؟ انهم يعزفون هذا الاسبوع موسيقاه في اكثر من عشرين حفلة، ويستمع اليه مئة الف نسمة على الاقل، فهل سمعت في فيينا احداً يذكر اصحاب التواقيع الاخرى؟ كلا يا صاح ان فيينا هي مدينة العبقرية، والعبقرية لا تخلد ما لم تكن انسانية سامية، كعبقرية فاغنر!

ولاحظت توقيع ادولف هتلر في الصفحة الاخيرة من السجل، وقلت للرجل:

– وهذا... ألم تخلدوا نزوله في فندقكم يوم الـ «انشلوس»؟

فصمت طويلا، ثم تنهد واجاب:

– سنرى بعد الحرب!



■ فيينا، اذار (مارس) ١٩٤٢

مر عليّ اسبوعان وثلاثة في فيينا، وانا انتظر الفرج من برلين او من روما فلم يردني شيء. وقد اعتدت على الحياة في هذه المدينة الفاتنة الى حد انني نسيت وضعي المبهم، فأصبحت اجد من الطبيعي ان اغادر الفندق في الصباح الباكر، واعود اليه في ساعة متأخرة من الليل.

كنت اقضي نهاري في زيارة متاحف فيينا، وما اكثرها. كل متحف منها تستغرق زيارته اياما، وكل قطعة فيها تستحق الدرس اسابيع واشهراً.

وعندما اشعر بالملل كنت اركب الحافلة الى الـ «براتر». فإذا كنت لم تسمع بالـ «براتر» قبل اليوم، ايها القارىء، فذلك يعني انك تجهل اكبر واعظم واضخم حديقة للملاهي في اوروبا.

الـ «براتر» عالم قائم بذاته. حي كامل في ضواحي فيينا، بين غاباتها، تضافر خيال الانسان وعلمه على انشاء جميع انواع الملاهي البريئة فيه. هوذا الدولاب الجبار الذي يحمل زهاء ثلاثين عربة من عربات سكة الحديد،

ويدور بك في الفضاء على علو مئة متر، هذه سكة الحديد الصغيرة التي تصعد بك وتهبط وسط جبال اصطناعية وانفاق مظلمة، هذه الكرة الارضية التي تدور بالركاب بسرعة البرق، هذه مسابقات الصيد على اختلافها، هذه سراديب فيها ما يخيف الزائر بين المفاجآت المزعجة، هذه دور السينما والملاعب والمقاهي والمطاعم، وهذه حسان فيينا يوزعن فتنتهن ابتسامات وحفاوة!

ومما يؤسف له ان الغارات الجوية قد احرقت الـ «براتر» في سنة ١٩٤٤، فخسرت اوروبا بذلك خسارة كبرى. ولا شك ان النشاط الفيناوي سيعوضها بانشاء «براتر» جديد!

في الـ «براتر» يجتمع مزيج من الوجوه فريد من نوعه. وفي هذا الـ «براتر» التقيت بأول جندي الماني عائد من الجبهة الروسية. كنت اركب احدى عربات «الدولاب الدوار» وحدي، عندما دخل جندي الماني، على خده آثار جرح عميق لا يزال احمر اللون، يمتد من الجبة حتى العنق، وجلس الى جانبي.

ولاحظ الجندي انني انظر الى جرحه فاحمر وجهه وقال:

– انها الحرب يا اخي... انني اشكر الله على انه لم يكن اعمق مما كان!

قلت: واين اصابك الجرح؟

فأجاب: في كييف، في معركة كييف الكبرى، فقد كنت اسير مع رفاقي وراء احدى الدبابات عندما تصدت لنا كتيبة من المشاة الروس، فنسوا الدبابة، واشتبكنا في معركة بالسلاح الابيض. وقد رفع عملاق تتري بلطة ليضربني بها على رأسي، فعاجله رفيق لي برصاصة اصابت كتفه، واذا بالبلطة تسقط من يده بصورة عمودية، فتكتب هذا السطر في وجهي!

– ولكن معركة كييف وقعت في الخريف، فكيف ظل جرحك حياً حتى الآن؟

– بعد لحظات من تلك المعركة بدأ الثلج ينهمر، وبقيت ممدداً في

الميدان اكثر من ساعة، فجلد الجرح، وكان ذلك سبب آلام استمرت ثلاثة اشهر وقد نقلوني الى فيينا للمعالجة منذ شهرين حتى شفيت الآن.

قلت: هل لك ان تحدثني عن الجبهة الروسية؟

فأجاب: اوه... يا... يا... ليس الحديث كالواقع. ان روسيا ستكون «جوزة قاسية» لأن الجندي الروسي لا يستسلم، ويحارب حتى اللحظة الاخيرة ما دام لديه زاد او عتاد، وما دام المفوض السياسي يرافقه ويذكي فيه روح النضج والمقاومة. اما المدني الروسي فإنه يشتغل لحصارنا، وهكذا نجد انفسنا امام مقاومة مزدوجة في الميدان وخارجه.

قلت: ولما توقف الزحف على موسكو في تشرين (نوفمبر)؟

فهز الرجل رأسه واجاب: التموين هو المسؤول، لأن دائرة التموين العسكرية لم تقدم لنا ملابس الشتاء في الوقت المناسب، كما ان الثلج هبط قبل موعده بشهر، فجمدت ايدينا وجمدت اسلحتنا. ولو ان الروس كروا علينا على الاثر فوراً لاصبنا بكارثة حاسمة!

– اما الآن؟

– لقد نهضنا من كبوة الشتاء، واعتقد اننا سنبلغ هذا الربيع اهدافنا. اننا نكره هذه الجبهة كرهاً شديداً.

* * *

راح ذلك الجندي يحدثني عن مغامراته في الجبهة الروسية، فقال انه دخل الاراضي الروسية من بولونيا من ناحية لفوف وانطلق منها مع الجيوش المصفحة في اتجاه كييف وخاركوف.

قلت له: وما هو الاثر الذي احدثته روسيا في نفسك؟

فأغمض عينيه – وكان الدولاب قد بدأ يدور – و أجاب:

– تصور امامك سهلا لا ينتهي: وحول وثلوج وقمل وقرى محروقة على بكرة ابيها، وفوق هذا كله حديد ونار ودم. اتسألني بعد هذا عن الاثر الذي تركته الجبهة الروسية في نفسي؟

– وماذا كان موقف الاهلين منكم؟

- انه يختلف باختلاف العنصر والمكان. فقد قوبلنا بحفاوة من بعض الاوكرانيين، اما الروس فقد استقبلنا من بقي منهم بعدم اكتراث او بعداوة مكتومة. ولا تنس ان الجيش الاحمر لم يترك خلفه شابا واحدا، لذلك لم نجد سوى العجز والاطفال والنساء.

- وكيف تعاملون الروس؟

- كانت لدينا اوامر في البداية بأن نعاملهم معاملة حسنة، الا اليهود والمفوضين السياسيين واركان الحزب الشيوعي منهم، فقد كان علينا ان نسلمهم الى الحرس الاسود (الفرق العسكرية النازية) على ان حلول الشتاء فجأة وما جره علينا من ويلات ادى الى تبدل محسوس في سياستنا، فحلت القسوة محل المجاملة. ولقد حدثني رفيق عاد منذ ايام من الجبهة ان العصابات بدأت تظهر خلف خطوطنا.

قلت: ومتى تنتهي الحرب في هذه الجبهة؟

فأجاب: لا ادري، ولكنني اعتقد اننا اذا لم نكسب المعركة هذا الصيف، فإننا لن نستطيع سحق الجيش الاحمر.

وسألته اذا كان سيعود الى الجبهة، فأجاب:

- طبعا، طبعا. انني اريد ان اعود حالما تسمح لي القيادة. انني لا استطيع ان اترك رفاقي وحدهم هناك. ثم انني تعودت على حياة الحرب، على الوحل والثلج، على النوم في الحفر وتحت القنابل، فلم تعد تروق لي الحياة هنا على الفراش الوثير، وبين قوم لا يفهمونني!

وساد الصمت لحظة، وكان الدولاب قد بلغ بعربتنا القمة، فأصبحنا نشرف على فيينا من علو مئة متر. واذا بالجندي يهز رأسه ويقول:

- ناين... ناين... (اي كلا، كلا!) لم يعد نظري معتاداً على رؤية مدن عامرة واجواء هادئة. ان البؤس والخراب لأوقع في النفوس من هذا...

ولاحظ الرجل انني انظر اليه بشيء من الاستغراب، فاستدرك قائلا:

- انك لا تستطيع ان تفهمني لأنك لم تحارب في الجبهة الروسية... انها الحرب يا صاح، والواجب!

لم يكن ذلك الجندي الالماني مغالياً في وصف اهوال الجبهة الشرقية. ولقد سمعت خلال اقامتي في اوروبا احاديث عنها تقشعر لها الابدان. ويكفي ان يعلم القارئ ان الجندي الروسي والجندي الالماني قضيا اربع سنوات متواصلة يعيشان في العراء، فيقضيان نصف العام في مترين او ثلاثة امتار من الثلج وسط حرارة لا تقل عن الاربعين الى الخمسين تحت الصفر، والنصف الآخر تحت شمس تبلغ حرارتها الاربعين فوق الصفر.

وانني لا أستطيع – حتى الآن – ان اتصور في العالم كله جنديين يحاربان في مثل هذا الجحيم من الصقيع والقيظ غير الجندي الروسي والجندي الالماني.

وقد اخذ الشتاء الجيش الالماني على حين غرة كما ذكرت سابقاً، ثم لم يلبث الجيش الاحمر ان بدأ يكر عليه في اوائل ١٩٤٢، أي في نفس الوقت الذي وصلت فيه الى فيينا. ولو كان الروس يومئذ يملكون جيشاً قوياً كالذي هجموا به في شتاء ١٩٤٢، لقضوا على الجيش الالماني بأسره، ولكنهم كانوا لم ينهضوا بعد من صدمة الحرب الاولى، فلم يتمكنوا من اغتنام الفرصة، ولا شك ان شتاء ٤١ – ١٩٤٢ كان أبرد شتاء عرفته اوروبا منذ مئة سنة.

وكانت فيينا في ذلك الحين مستشفى الجيش الالماني في الجبهة الجنوبية، فكانت القطر تحمل اليها آلاف الجرحى يومياً. وكلما وقعت معركة كبرى في قطاع ما تسارع السلطات الى مصادرة فندق جديد او مؤسسة، فلا نلبث حتى نرى بعد بضعة ايام ذوي الجراح الخفيفة يسعون في شوارع فيينا، ويحدثون عن مغامراتهم في الجبهة.

وقد كان أثر جرحى تلك السنة (٤١ – ١٩٤٢) من جرحى الشتاء اكثر من جرحى الحرب، اي من فاجأهم البرد في الجبهة ولما يزالوا بملابس الصيف فجمدت بعض اعضائهم، خاصة الأنوف والآذان والأقدام. ومتى جمد العضو ينقصف كعيدان الشجر اليابسة، او يسبب احتقاناً في الدم. ولا يقل عدد الجنود الالمان الذين راحوا ضحية البرد في ذلك الشتاء عن

المئتي الف. ولن انسى ما حييت مشهد عشرات الجنود ممن رأيت في شوارع فيينا، وهم في شرخ الشباب، ولكنهم يسعون على اقدام اصطناعية، اذ قصف البرد اقدامهم في الجبهة.

ومما يجب ذكره ان دائرة التموين للجيش الالماني لم تكن قادرة على تزويد الجيش في روسيا بالملابس الدافئة عندما فاجأه الشتاء امام موسكو في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤١، فوجه (وزير الدعاية النازي) غوبلز على الاثر نداءه الشهير الى الالمان للتبرع بالملابس الشتائية وكانت النساء اول من لبى النداء اذ قدمن كل ما لديهن من معاطف الفرو. وبعد شهر او شهرين بدأت الصحف تنشر رسوماً للجند في الجبهة وهم يرتدون تحت ملابسهم الرقيقة أثمن معاطف الفرو النسائية وأجملها!

وذهبت مجلة «برلين ابلوستـرينه تسـايتونغ» في «المزاح» مع غوبلز يومئذ الى حد ان نشرت صورة ثعلب داخل الى مكتب الوزير، ليقدم اليه ذنبه تلبية لندائه!

وقد سمعت (قائد سلاح الجو النازي) غورنغ يخطب فيما بعد عن أهوال شتاء ٤١ - ١٩٤٢، فيقول ان الجيش تضعضع، وان الاسلحة انفجرت من الصقيع او تعطلت عن العمل، وكادت الكارثة تنزل بالجبهة كلها لولا ان هتلر قضى شهري كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤١ وكانون الثاني (يناير) ١٩٤٢ وهو يتنقل ليل نهار من قطاع الى قطاع، ومن خط الى خط، حتى عزز روح الثبات المعنوية في جنوده فثبتوا الى ان وصلت الملابس الدافئة.



■ فيينا، آذار (مارس) ١٩٤٢

هل شعرت بنفسك أيها القارئ يوماً صغيراً كالذبابة؟

هذا هو الشعور الذي ساورني عندما وطأت قدماي عتبة القصر الامبراطوري درهوف في فيينا. تلك هي امجاد امبراطورية جبارة، وعز اربعة قرون، مجموعة في هذه القاعات الفخمة، ذات الزخارف البديعة، والنقوش الانيقة.

ترى متى نستطيع أن نفاخر العالم بأمثال هذه الروائع؟ اجل، لقد بنى اجدادنا مثلها، ولكن اجدادنا هم اجدادنا فمتى يأتي دورنا في التشييد والابداع كأحفادهم؟

لقد خطر لي وانا اتنقل بين هذه القاعات الامبراطورية ان ميزانية كل دولة من الدول العربية - على حدة - لا تستطيع تشييد قصر واحد كهذا القصر، ثم تذكرت ان اجدادنا عندما شيدوا الاموي وقصر هشام، والزهراء والحمراء، لم يكونوا مشتتين، فوجدت في المقابلة بين عجزنا الراهن، وبين

جبروت هذه الاثار الحية حجة أخرى على القائلين بالعزلة والانكماش ومأخذاً ينزع منهم كل جرأة على الطموح الى المجد والعظمة!

وتكررت هذه الفكرة عندما رحت اطوف بحجرات قصر شونبرون، وهو القصر الذي كان يسكنه الاباطرة في ايام الربيع، ويقع في ضواحي فيينا، اشتهر بحدائق غناء، شبيهة بحدائق قصر فرساي في باريس.

ولا انسى ان اصف الرهبة التي غمرتني عندما وقف الدليل معي امام سرير انيق في حجرة كبيرة، وقال:

– على هذا السرير مات دوق رونشتات! ودوق رونشتات هو النجل الوحيد للامبراطور نابليون بونابرت الملقب بفرخ النسر. وقد جيء به بعد نفي والده الى جزيرة القديسة هيلانة، الى هذا القصر – قصر شونبرون – فقضى فيه بضع سنوات وهو منصرف الى اللذات، فاعتلت صحته ومات وهو في شرخ الصبى على هذا السرير. من يدري كيف كان تبدل وجه التاريخ لو ظل الدوق حياً؟

وقد وضعت رفات الدوق في تابوت من المعدن المزخرف، واحتل التابوت زاوية من كهف الآباء الفرنسيسكانيين وسط فيينا، الى جانب توابيت اباطرة آل هابسبورغ جميعاً، من الامبراطورة ماريا تيريزا الى الامبراطور شارل. وفي سنة ١٩٤٠ امر هتلر باعادة رفات الدوق الى فرنسا، فجرى نقلها بحفلة مهيبة الى باريس حيث وضعت الى جانب ضريح والده نابليون في الـ «انفليد»، وحل محل التابوت في الكهف لوحة صغيرة كتب عليها «هنا كان نعش دوق رونشتات قبل ارساله الى جانب والده في باريس بأمر الفوهرر».

وبينما كنت اتجول في الحدائق التقيت بثلاثة وجوه ليست غريبة عني واذا بها وجوه ثلاثة من اعظم وجوه السينما في باريس: دانيال داريو، فيفيان رومانس، البير بريجان.

وكان الثلاثة يسيرون ببساطة متناهية ويتبادلون النكات، فلم اتملك اعتراضهم واذا بفيفيان رومانس تقول لدانيال داريو:

- لقد ربحت الشرط!

وتعارفنا، ورحب الثلاثة بهذا الغريب الذي عرفهم وسط بلاد غريبة لا تعرفهم ولا تعرف عنهم شيئا، ودعوني الى تناول طعام الغداء معهم في مطعم قريب من القصر. وفي الطريق سألت فيفيان عن معنى عبارتها، «لقد ربحت الشرط!» فأجابت.

- لقد جئنا الى فيينا بدعوة من الممثل الالماني فيلي فريتش لزيارة ستوديو «فيينا فيلم». ومع ان الواحدة منا لا تستطيع ان تسير عشر خطوات في باريس حتى تكتشف هويتها، فقد انقضى علينا هنا ثلاثة ايام ونحن نتجول في كل مكان فلا يعرفنا احد. واخيرا راهنتني دانيال على اننا سنغادر فيينا دون ان يشعر احد بوجودنا، وها أنذا اربح الشرط بفضلك.

جلست مع فيفيان رومانس ودانيال داريو والبير بريجان نتناول طعام الغداء في مطعم حديقة الحيوانات قرب قصر شونبرون، فاغتنمت الفرصة لكي القي عليهم بعض الاسئلة عن الحالة في فرنسا، فاصطدمت بتحفظ شديد.

ولاحظت فيفيان رومانس تلتهم البطاطا بشره، مع ان جسمها يميل الى البدانة، فقلت لها:

- الا تخشين على «خطوط» جسمك الجميلة من الترهل؟

فضحكت وقالت: لقد اكتسبت منذ قدومنا الى المانيا في الاسبوع الماضي اربعة كيلوغرامات. اتظن يا صديقي ان الطعام موفور في فرنسا؟ انني اود ان تطول اقامتنا هنا لكي اتمكن من ملء معدتي قدر الامكان، ولو بالبطاطا!

ومهما كان استهلاك البطاطا كبيراً في بلادنا، فإننا لا نستطيع ان نقدر مدى استهلاكها في اوروبا الوسطى، وفي المانيا خصوصاً. لقد كانت البطاطا في هذه الحرب الغذاء الرئيسي - بعد الخبز - الذي اعتمد عليه الالمان في دفع الجوع عنهم، ولولاها لجاعوا منذ سنة ١٩٤٠، بل لما استطاعوا اعلان الحرب. ومع ان التقنين شمل كل شيء في المانيا بلا

استثناء، فإن البطاطا ظلت حرة، لأن تقنينها معناه قطع اللقمة عن فم الشعب!

وكانت المطاعم تقدم جميع الوان الطعام بالبطاقات، الا البطاطا والملفوف، فإنهما كانا طليقين، فكان الزبون يشبع شهيته اولاً بعشرين غراماً من اللحم، وهو أقصى ما تسمح به البطاقات الاسبوعية في الوقعة، ثم ينصرف الى سد الفراغ بالبطاطا والملفوف!

ولا يتوهمنّ القارئ ان البطاطا تطبخ هناك كما تطبخ في بلادنا، أي تقلى بالسمن او بالزيت او تطهى مع اللحوم، بل كانت تسلق، ويرش عليها الملح، والسلام عليكم!

والواقع ان السلق كان اساس المطبخ الالماني في الحرب كلها، اولاً لتوفير الزيوت، اذ كان المدفع الواحد في الجبهة يحتاج من الزيوت ما يكفي مئة نسمة في اليوم. وثانياً لتوفير الأيدي العاملة، اذ شملت التعبئة جميع الطهاة والخدم، فلم يبق في ادارة المطاعم سوى عدد من العمال الاجانب، الذين لم يضعوا اقدامهم قبلا في مطبخ. وهكذا كان كل شيء يسلق، وكان الزبون يعرف سلفاً انه لن يجد اي تنوع في الطعام، الا التنوع الممكن بين البطاطا والملفوف والشمندر الاحمر!

هكذا عاش الالمان طيلة سنوات الحرب الست على البطاطا المسلوقة والملفوف المسلوق. وقد وقع اختيار السلطة على الملفوف لأنه من اكثر الخضار غنى بالفيتامين، واسهل زرعاً، لذلك احتل الملفوف الحقول الالمانية من دون البقول الاخرى.

وكانت المانيا تشكو نقصاً شديداً في الشحوم اللازمة للطبخ، كالسمنة والزيت.

والواقع ان زيت الزيتون معدوم في اوروبا الوسطى كلها تقريباً. وكانت ترسل ايطاليا واليونان قليلا منه الى المانيا للاستعمال في العقاقير والمستشفيات والمصانع الحربية. ولما اشتدت ضائقة الزيوت في سنة ١٩٤٠، انتبه الالمان الى زهرة «دوار الشمس» الصفراء، وهي زهرة ذات

بذور سوداء، تولد زيتاً صالحاً للطهي من الوجهة الكيماوية وان كان طعمه ليس لذيذاً. وعلى الاثر عمم الالمان زراعة هذه الزهرة في اوروبا المحتلة كلها الى جانب البطاطا والملفوف وبفضلها استطاعوا انقاذ انفسهم من «كارثة» صحية.

ولما كانت المواصلات مخصصة للجيش وحده تقريبا، فقد اضطرت كل مدينة الى الاعتماد على نفسها بالبقول. وكانت فيينا اغنى المدن في هذا المضمار، اذ تنتشر حولها حقول واسعة صالحة لزراعة الخضروات. وكان غناها بالبقول سبباً في انتقال آلاف العائلات الالمانية اليها من المناطق الفقيرة بالزراعة كالرور. ولا ازال اذكر خطاباً القاه حاكم فيينا الشاب اثناء اقامتي فيها، وهو الهر بالدور فون شيراخ، زعيم حركة الشباب الهتلري، الذي تجري محاكمته الآن في نورمبرغ، فقال بزهو وفخر: «ابتداء من هذا الربيع، يستطيع كل فيناوي ان يأكل الملفوف بلا قيد ولا تقنين!». ولا يضحكن القارئ، فقد كانت حرية الملفوف نعمة كبرى عند شعب كرس جهوده كلها للحرب!

■ **فيينا، آذار (مارس) ١٩٤٢**

ثلاثة اسابيع مرت عليّ في فيينا، وانا اقضي ايامي في التجوال والتطواف حتى كدت انسى انني «ضيف» الـ «غستابو»، وان الغد قد يحمل اليّ ما اكره وما لا اكره!

وفي تلك الاثناء وردت عليّ رسائل من برلين وروما تفيد ان كتبي وصلت، وتبلغني ان الجهود مبذولة لحل قضيتي حلاً سريعا. اذن فهناك «قضية» خاصة بي. هناك «قضية» يعرفها الالمان ويعرفها اخواني في روما وبرلين، وانا لا اعرفها!

وذهبت مساء التاسع عشر من آذار (مارس) لزيارة عائلة تعرفت اليها. وكانت فيينا تنام في ظلام دامس بسبب انظمة التعتيم. وبينما انا عائد الى الفندق سيرا على الاقدام بعيد منتصف الليل، اذا بصفارة الانذار

تزعق منذرة بقدوم طائرات عدوة، فكان ذلك اول انذار سمعته في حياتي.

وكانت الشوارع خالية تماما، فلم ادر اين اتجه. وكنت في تلك اللحظة اسير على محاذاة حديقة القصر الامبراطوري تجاه دار البرلمان. ولما كان السير في الشوارع محظوراً اثناء الغارات، فقد دخلت الى الحديقة وجلست على احد المقاعد انتظر انتهاء الانذار. واعتقد انني لو ذقت قبل اليوم طعم الغارات الجوية، لكنت سارعت الى الملجأ بدلا من ان اتمدد على مقعد وسط حديقة مكشوفة!

وبقيت زهاء الساعة متمدداً، والسكون التام مخيم على المدينة، لا تزعجه سوى صفارات الخفراء تنبه احدهم الى ان النور يتسرب من نوافذه او من خلال ستائره. وقبيل الساعة الثانية سمعت دويا في الجو، فارهفت اذني، واذا بي اتميز ازيز طائرات تحلق على ارتفاع كبير، فشعرت بسهم من الخوف يمر في قلبي. ولكن الدوي لم يلبث حتى ابتعد، تطارده اشعة المصابيح الكشافة المنطلقة من كل جانب دون ان تتمكن من اختراق حجب الغيوم، ولم تلبث الصافرات حتى عادت تزعق بصورة متقطعة، معلنة زوال الخطر، فنهضت وتابعت مسيري نحو الفندق.

وشعرت بفضول شديد يدفعني الى التحدث مع اي كان عن ذلك الانذار، فاستوقفت اول شاب التقيت به، ورحت اسأله عن معنى الانذار واسبابه، فأجابني:

– اوه، يا... اوه، يا... هذه الانذارات تتكرر مرة في الاسبوع او في الاسبوعين. انها طائرات بريطانية تذهب الى تشيكوسلوفاكيا حاملة المؤن والذخائر لجماعة بنيش.

ولم يلبث الرجل حتى تبين من لهجتي انني غريب، واذا بموقفه يتبدل تبدلا جليا ويقول لي:

– ألست تشيكيا؟

وتطيرت من هذا السؤال، فبادرت الى التأكيد بأنني عربي. واذا به يزداد جفافا ويقول:

– عربي في فيينا؟ وماذا تفعل في مثل هذه الساعة في الشارع؟

وقبل ان اتمكن من الجواب عليه، فاجأني بقوله:

– تفضل رافقني الى المخفر!

وابرز من جيبه بطاقة تدل على انه موظف في الـ «غستابو»، ثم قال ان مهمته هي مراقبة الحي اثناء الغارات خشية ان يتعمد احد اضاءة الانوار لهداية الطائرات او للاتصال بها. ولما كان وجودي كغريب في الشوارع في مثل هذه الساعة المتأخرة موضع الريبة، لذلك لا بد من التحقيق معي!

وكنت قد علمت الشيء الكثير عن الانظمة العسكرية في المانيا، فلم احاول الجدل، بل رافقته الى المخفر. وبعد الاسئلة المعهودة عن اسمي واسم ابي وجدي – ليروا ما اذا كنت احمل اسما يهوديا – سألني الضابط عن مرجع يعرفني في فيينا فذكرت له على الفور اسم رودولف فريدريش (مسؤول الـ «غستابو» المكلف مراقبتي)!

قلت للضابط اسم فريدريش، وانا اتصور ان متاعبي ستنتهي بمجرد ذكر اسمه، ولكنني اضطررت ان انتظر اكثر من ساعة امامه، وهو يخاطب بالتلفون الدائرة تلو الدائرة، باحثاً عن الرجل في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل الى ان اهتدى اليه، واذا بي طليق، فسارعت الى الفندق خشية ان يدركني انذار آخر في الطريق!

في الساعة الثامنة سمعت جرس التلفون يرن الى جانبي، فقررت الا اسمعه، وغطيت رأسي باللحاف، لولا انه استمر يرن بلا انقطاع، فتناولت السماعة وبودي ان اقول للخادمة ان تدعني انام، لولا ان بادرتني بقولها:

– الهر فريدريش يريد ان يراك. وطار النوم من دماغي عند سماع هذا الاسم، فنهضت من الفراش وانا اتعوذ بالله. ثم تذكرت حادث الليل، فاعتقدت ان لزيارته صلة به.

وبعد لحظات دخل الرجل بخطواته الثابتة، وحياني بتلك التحية المتأدبة التي اختص الله بها سكان فيينا دون سائر عباده، ثم قال:

– اعتذر عن ازعاجك... ارجوك ان تتفضل وترافقني الى الـ

«كونتيننتال».

وخيل لي ان الـ «كونتيننتال» فندق (كما هو في الواقع) وقلت:

– خير ان شاء الله؟ اتريدون ان انتقل الى فندق آخر؟

فلم يتمالك فريدريش الابتسام وأجاب:

– كلا، فندق «كونتيننتال» هنا هو مقر ادارتنا منذ الـ «انشلوس»!

واذا كان سؤالي قد اضحك فريدريش، فإن جوابه لم يضحكني قط، اذ ليست الدعوة الى زيارة دار الـ «غستابو» في الساعة السابعة صباحاً بالدعوة التي تشرح الصدر!

قلت: وما الداعي؟ حادثة الانذار امس؟

قال: اتعني ما جرى لك في الليل؟ لا، لقد طلب اليّ المدير ان ادعوك لمقابلته.

قلت: وماذا يريد حضرة المدير في الساعة الثامنة صباحاً؟

فهز رأسه وأجاب: لا أدري. هكذا امرت؟ انا بانتظارك خارجاً.

نزلت من سريري لارتدي ملابسي وبالرغم من القلق الذي ساورني فقد شعرت في اعماق قلبي ببعض الارتياح النسبي اذ خالجني الأمل بأن يؤدي هذا التعارف الصباحي مع الـ «غستابو» الى جلاء ما خفي عليّ من امري، وانقاذي من الحيرة التي اتخبط بها منذ دعيت الى مغادرة صوفيا على غير هدى. ثم ان زيارة دار الـ «غستابو» ليست بالحادث الذي يستطيع كل انسان ان يتمتع به!

خرجت برفقة الرسول الكريم ولما تدب الحركة بعد الى الفندق فإذا بسيارة تنتظرنا فصعدنا اليها، ودرجت بنا نحو دار الـ «غستابو»، وبعد دقائق وقفت امام بناية ضخمة، تجمع في فناء مدخلها عدد من رجال البوليس، بعضهم بالملابس الخضراء البوليسية والبعض الآخر بالملابس المدنية.

سرت امام فريدريش الى المدخل، فإذا امامنا حاجز حديدي كبير يمنع الدخول. على ان فريدريش مال على كوة مجاورة يبدو منها رأس

موظف، فملأ ورقة مطبوعة.

ووقفنا ننتظر. وبعد ثلاث دقائق تقريباً فتح لنا شرطي باب الحاجز فمررنا منه، ثم اقفله وراءنا، ولما رأيته يقفله، شعرت بقشعريرة باردة، ولكنني ضبطت اعصابي.

ها نحن نتوغل في دار الـ «غستابو». بعد اجتياز الحاجز الحديدي، اتجهنا نحو السلم، فاعترضنا شرطيان، فابرز لهما فريدريش اوراقه، وعرضا عليه بدوره ورقة وقعها، ورحنا نتسلق الدرج، فاجتزنا الدور الاول فالثاني فالثالث فالرابع. وعند مدخل الخامس جابهنا حاجز حديدي آخر، فاجتزناه بفضل الاوراق التي ابرزها فريدريش.

وصعدنا الى الطابق السادس، فقادني فريدريش في ممر طويل نحو الجناح الايسر، وهو جناح يحمي مدخله حاجز حديدي ايضاً، وقد جلس امام بابه حارس مسلح، وعرض فريدريش على الحارس ورقة صفراء. ووقع مرة اخرى اوراقاً، ففتح لنا الحارس الباب وادخلنا، فسرنا الى حجرة صغيرة، عرفها فريدريش بأنها غرفة الانتظار، قائلا انني سأدعى في الوقت المناسب وتركني.

كانت الساعة قد اصبحت الثامنة والدقيقة الخامسة والاربعين، فوضعت رأسي بين يدي ورحت افكر. ولكن بماذا؟ أأفكر في وضعي الشخصي وقد قضيت الساعات منذ غادرت صوفيا افكر فيه فلا افهم منه شيئاً، ام افكر فيما سيحدث وانا لا اعرف الدوافع؟

شغلت هذه الحواجز الحديدية بالي، فرحت اتساءل اذا كان سيكتب لي ان اعود فاجتازها في الاتجاه الآخر. والقيت نظرة عامة على الغرفة، فلم ار فيها نافذة واحدة، وكان ينيرها مصباح كهربائي، ويزين جدارها رسم لهتلر وآخر لهملر (قائد القوات الخاصة النازية الـ «أس أس»). اما رياشها فيتألف من طاولة وبضعة مقاعد.

بلغت الساعة التاسعة فالعاشرة وانا لا ازال انتظر على احر من الجمر. وكنت اصيخ بأذني من آن الى آخر علني اسمع حركة او حساً، فلا

اسمع شيئاً، اذ كان يسود البناية صمت يكسو جوها رهبة على رهبة.

ولن اصف للقارىء الافكار التي تعاقبت عليّ خلال تلك المدة، فالحبر الذي يسطر هذه الكلمات ليس باكثر اسودادا منها. ولا يتوهمن القارئ مما ذكرت انني كنت خائفا، اذ لم يكن فوق ضميري ما يبرر الخوف، وانما هو الشعور بأن تجد نفسك حيث لا تريد، وبأن تصبح - وانفك راغم - مسيراً، تقود خطاك عصا سحرية لا تراها، وتدفعك في طريق لا تعرف الى اين تنتهي بك، حتى اذا اجتزت الفي كيلومتر، وجدت نفسك ذات صباح جالساً في حجرة مقفلة، بينك وبين الحرية ستة طوابق وثلاثة حواجز حديدية و. الـ «غستابو»!

هل بعد هذا يلومني القارىء اذا ما ترددت في سياق حديثي كلمات الرهبة والقلق والتشاؤم؟

* * *

قبيل الساعة الحادية عشرة فتح الباب، وجاء حاجب يدعوني، فسرت وراءه الى مكتب مجاور، جلس امامه شاب في مطلع العمر، فما ان تجاوزت العتبة حتى استقبلني بابتسامة عريضة وراح يتحدث اليّ بالفرنسية بطلاقة عن الجو في فيينا. على ان حديث الجو لم يكن بالحديث الذي يروق لي في تلك اللحظة، فقاطعته قائلا:

- اسمح لي ان القي عليك ثلاثة اسئلة: من انت؟ وماذا تريدون مني؟ ولم جئتم بي الى فيينا؟

وضحك الرجل، وأجاب:

- اما انا فلن تعرفني اذا ما قلت لك ان اسمي واينهارت شولتز. اما ما نريد منك فهذا ما لا اعرفه. انا موظف اتلقى الاوامر وانفذها، ولدي الآن امر بابلاغك انه قد وردت علينا برقية من برلين من وزير الشؤون العربية الدكتور غروبا تقول ان البحث في قضيتك مستمر وان الجواب لن يتأخر، وطلب الينا ان نمدك بكل ما تحتاج. وقد استدعيتك الآن لكي اسألك اذا كنت بحاجة الى شيء، اي الى مال او ما اشبه ذلك. هذه هي الحكاية كلها!

وشعرت في تلك اللحظة بحجر ينزل عن صدري، كما شعرت بعاصفة من الغضب تستفزني. ألم يكن باستطاعتهم ابلاغي هذه الرسالة «الخطيرة» دون ازعاجي على هذا الشكل؟

واجبت الرجل انني لست بحاجة الى المال، بل يهمني ان اعرف سر قضيتي، فاعتصم بالصمت. ورحت على الاثر احتج اليه على هذه المعاملة، مستنكراً تقييد حريتي في السفر. ولكن الرجل لم ينبس ببنت شفة. واخيراً ودعني، وغادرت الغرفة، واذا بالهر فريدريش ينتظرني امام الباب لكي يرافقني، ورحنا نهبط ونجتاز الابواب الحديدية الواحد تلو الآخر. وقد التقينا اثناء النزول بشابين يهوديين يصعدان وحدهما، وعلى صدر كل منهما النجمة الصفراء، فأدهشني ذلك وقلت له:

- وماذا يفعلان هنا؟

فأجاب: انهما موظفان في الـ «غستابو» ولاحظ الرجل امارات الاستغراب على وجهي، فاستطرد قائلا:

- لا يدهشك ذلك، فرغم كل ما جرى ويجري ضد اليهود، لا يزال بعضهم يخدمنا بامانة شديدة، ولو ضد ابناء جلدته، بل اذهب الى ابعد من ذلك فأذكر لك ان كثيراً من عمالنا في الخارج من اليهود!

واخيراً خرجنا من الباب الرئيسي بعد ان اكمل فريدريش «مراسم» التسجيل. وهنا ودعني الرجل، واذا بي حراً طليقاً في الشارع، اسير فيه تائهاً، كالعصفور الذي ينطلق من القفص بعد اسر طويل!

٢٤

■ **فيينا، آذار (مارس) ١٩٤٢**

لا فائدة من معاندة القدر والـ «غستابو» ولا بد من البقاء في فيينا الى حين. امامي مرحلة انتظار اخرى، لا ادري متى تنتهي فليس لي الا ان استأنف الحياة التي درجت عليها منذ وصولي: دراسات، ومتاحف وملاه وزيارات، وملاحظات.

وكانت الملاحظات الاولى التي استرعت انتباهي في الايام الاولى من اقامتي ثلاثا: المرأة، السيكارة، الصابون!

ان المرأة كانت تلفت انظار الغريب اليها لأنها اصبحت موجودة في كل مكان. لقد حلت محل الرجل الذي ذهب الى الجبهة في المتجر والمصنع، في البيت والشارع. انها تبيع وتشتري، تقطع التذاكر، توزع البريد، تحمل الحقائب، تمسك الدفاتر، تراقب القطر، وتقوم الى جانب ذلك بأعمال يستهجنها الانسان في الوهلة الاولى، كمسح الاحذية وبيع الصحف، ولقد تحملت المرأة الالمانية في هذه الحرب ما لم تتحمله اية امرأة اخرى في

العالم، غير المرأة الروسية. والفرق بين الاثنتين ان المرأة الروسية معدة بطبيعتها وتربيتها للاشتراك في النضال عندما تقع الواقعة اما المرأة الالمانية فقد انتقلت فجأة من المطبخ الذي امرها هتلر بالتزامه الى كل مكان، فكان وقع الطفرة صعبا على انوثتها وكلما تطاولت الحرب ازدادت اعباؤها. وعلى كل فإن ادارة العمل عبأت منذ سنة ١٩٤١ كل فتاة قادرة على العمل للخدمة في مصانع الاسلحة والذخائر، وكانت نسبة النساء في هذه المصانع تفوق نسبة الرجال ولم يكن العمل الاجباري وقفا على طبقة من النساء، بل كان يشمل جميع الطبقات بلا استثناء بصرف النظر عن المقام الاجتماعي والمالي.

وكان التقنين على الحاجات النسائية قاسيا، فقد زالت مثلا الكلسات الحريرية وحلت محلها كلسات مصنوعة من القطن من مواد كيماوية، توزع بمعدل اربعة ازواج في العام فقط. وكانت الكلسات الحريرية حلماً عند النساء الالمانيات، يبهر مرآة انظارهن، وتضحي الواحدة منهن بأعز ما لديها في سبيل الحصول على زوج - اي زوج كلسات - واحد!

اما المساحيق فقد اختفت بتاتا في البداية، ثم لم تلبث حتى ظهرت بنسبة محدودة بعد احتلال فرنسا، اذ شرع الالمان يتقاضون نفقات الاحتلال من المنتوجات الفرنسية، فأصبحت المساحيق والعطور بمتناول الالمانيات من آن الى آخر، وان كن لا يكترثن كثيراً لها.

وكانت الاعاشة تسمح للمرأة بفستانين في السنة: واحد للصيف وآخر للشتاء. ولكن هذا التضييق لم يمنع المرأة من الابتكار، فعمدت كل منهن الى الجمع بين اجزاء فساتينها القديمة، لتكون منها فساتين جديدة متمازجة الالوان والازياء وبذلك حافظت الفيناوية على اناقتها التقليدية.

وقد جرت الحرب معها اباحية يصعب علينا في هذه البلاد المحافظة ادراك مداها وكان سببها الرئيسي غياب الرجال في الجبهة. وكانت الجبهات في الحروب السابقة قريبة من الوطن، بحيث يعود الجندي الى بلده ولو مرة في العام ولكن الجبهة الروسية استهلكت كل ما تمتلكه المانيا

من رجال، فلم تسمح القيادة للرجال بالرجوع الا فيما ندر. وهكذا اختفى الرجال من المانيا واصبحت النسبة بين الجنسين في المدن متفاوتة اي بمعدل رجل لكل ثلاثين او اربعين امرأة، وكان ذلك سببا في تبرير الاباحية.

وكان بين الفتيات - الحديثات السن خاصة - فئة من المتعصبات قوميا، يضحين بأنفسهن اكراماً للجنود القادمين من الجبهة، وهن يعتقدن انهن يؤدين واجباً وطنياً بالترفيه عن المحاربين.

وكلما تطاولت الحرب كانت الرجال تتناقص، وتتزايد في الوقت ذاته اخطار الغارات الجوية على المدن، مما جعل الانسان يشعر ان الموت واقف له بالمرصاد وقد يقتنصه في اية لحظة، لذلك يحاول ان يتمتع بملذات الدنيا عن اي سبيل كان قبل فوات الاوان.

وفي سنة ١٩٤٣ اصدرت الحكومة الالمانية قراراً باعتبار كل ولد تضعه المرأة الالمانية من أب الماني شرعياً، بصرف النظر عن قيود الزواج وكانت الغاية منه تسهيل تعزيز النسل بعد الخسائر الهائلة في الارواح التي مني بها الجيش الالماني في روسيا.

* * *

اما السكاير فكانت عزيزة جداً في المانيا، لا لقلة الدخان والمصانع، بل لأن الحكومة اعتبرت السيكارة من الكماليات، فأوقفت معظم مصانعها عن العمل وأرسلت عمالها يحاربون في الجبهة، كما خصصت اكثر انتاجها للجند.

وكانت الحكومة توزع على المدني المدخن ٦ سيكارات يومياً، ثم هبط هذا الرقم الى اربعة. وهكذا اصبحت السيكارة اساس التعامل في السوق السوداء، او بالاحرى سوق المبادلات، فكان الانسان يشتري بالسيكارة بطاقات اللحم والزبدة، ويستحصل بواسطتها على الملابس القديمة والآلات المختلفة. وكان معدل سعر السيكارة الواحدة ماركين، أي ما يعادل ليرتين سوريتين من عملة تلك الايام!

وكان في فيينا سوق للمبادلة، حيث كان الانسان يستطيع ان يستبدل

حذاء زائداً عن حاجته بمكواة مثلاً، وقس على ذلك. وقد عرفت امرأة استبدلت طقم كنبايات من طراز لويس الخامس عشر بنصف دستة من الملابس الحريرية الداخلية (الـ «كومبيليزون»)!

وكانت القهوة عزيزة ايضاً، مع العلم بأن الحكومة احلت محلها قهوة اصطناعية، مصنوعة من الفاصوليا او الحمص. اما الشاي فقد حلت محله مستحضرات كيماوية او اوراق مستخرجة من حزم الجزر والاعشاب الاخرى. وكان كيلو القهوة الاصلية يباع سراً بما يعادل الخمسمئة ليرة سورية والشاي بألفين. وكان الانسان يحصل على معطف من الفرو الثمين بكيلو واحد من القهوة.

على ان السيكارة ظلت اساس التبادل وحلت تقريباً محل العملة وبواسطتها كان الانسان يفعل العجائب في المانيا كلها!

* * *

اما حكاية الصابون فقد بدأت في اللحظة الاولى من وصولي الى فيينا، فقد شممت رائحة كريهة تنبعث من ابناء المدينة طراً، فأدهشني ذلك لأن الالمان مشهورون بالنظافة. ثم لم البث ان علمت ان هذه الرائحة منبعثة عن الصابون الذي توزعه الحكومة، ذلك ان المانيا فقيرة بالزيوت كما اسلفت، فلم يكن بالامكان تخفيف غرام واحد من الدهن لصنع الصابون، وعمد الخبراء الى صنع صابون اخضر اللون، كريه الرائحة من مواد كيماوية موفورة. وقد كان هذا الصابون يطهر وينظف ولكنه كان يترك تلك الرائحة الكريهة وكانت المرأة الالمانية تشعر بسعادة متناهية اذا ما حصلت على «بروة» صابون اصلية، وقد اعطيت مرة فتاة فيناوية قطعة من الصابون، فتناولتها وهي لا تصدق عينيها، ثم لم تلبث حتى اجهشت بالبكاء من الغبطة!

وانني اذكر هذه التفاصيل، اتمنى على القارىء ان يقابل بين بؤس الاوروبيات وبين الرفاهية التي نعمت بها سيداتنا في اثناء الحرب، وان يستخرج من ذلك العبرة.

في فيينا هرج ومرج وضجة. اليوم عيد ميلاد الفوهرر، وهو في نظر الالمان اله يعيش على الارض، وقد حالت الحرب دون اقامة احتفال كبير، ومع ذلك تجمهر زهاء مئة الف نسمة في الساحة الواسعة القائمة امام القصر الامبراطوري في وسط المدينة يستمعون الى خطاب يلقيه (وزير الدعاية النازي) الدكتور جوزيف غوبلز بنفسه. وما كاد غوبلز يظهر على الشرفة حتى استقبله الحضور بعاصفة من التصفيق والهتاف استمرت اكثر من ربع ساعة. والواقع ان غوبلز كان محبوباً جداً في المانيا، ويحتل في قلوب الالمان المرتبة الثانية بعد هتلر.

والقى غوبلز خطابه عن الحرب وعن النصر المرتقب المرتجى، ففعل في نفوس مستمعيه فعل السحر واستمروا يصفقون ويهتفون اكثر من نصف ساعة.

وبعد انشاد النشيدين الالماني والنازي، اراد بعضهم ان يداعب غوبلز، فراحوا ينشدون اغنية «اوه جوزيف جوزيف» وهي معزوفة «فوكس تروت» معروفة عند هواة الرقص، وقد وضعها ملحن يهودي ونظمها شاعر يهودي ووزعتها في العالم شركة يهودية. ولما كان غوبلز يدعى جوزيف ايضاً، فقد راح الفيناويون ينشدون تلك الاغنية اليهودية مئة بالمئة، والوزير يجيبهم ضاحكا!

* * *

يجرني الحديث عن ميلاد هتلر الى الحديث عن هتلر نفسه. مذ وصلت الى المانيا شعرت ان الرجل يحتل في قلوب الالمان مقاماً رفيعا، وانه الزعيم المطلق في نظرهم ومن العبث ان تحاول البحث معهم فيه او في شخصيته، فإنهم يرفضون ان يخوضوا هذا البحث، اما عن ايمان، او عن رهبة، على انني انقل للقارىء حديثاً جرى لي في هذا الصدد عقيب وصولي في فيينا. فقد رحت اسأل خادمة فندق «امبريال» الذي نزلت فيه عن ذكرياتها عند نزول الفوهرر في الفندق يوم اعلان الـ «انشلوس» عام ١٩٣٨، فأخذت

تحدثني عن ذكريات ذلك اليوم، فتصف كيف دخل الفوهرر غرفته وكيف خرج، وكيف احتل حرسه وخدمه جميع دوائر الفندق، وكيف كان طاهيه الخاص يشرف على اعداد الطعام له، وكيف كانت هي تشترك كل صباح في تهيئة الفطور، وكيف كانت الجبنة القشقوان تحتل مقامها الرفيع على المائدة بين البيض واللحوم الباردة.

وسألت الخادمة واسمها هيلا:

– وهل كان في حاشية الفوهرر نساء؟

فأجابت: اجل كان برفقته عدد قليل منهن.

– جميلات؟

– كلا، كلهن بشعات ما عدا تلك السمراء المشوقة.

قلت: لعلها كانت سكرتيرته...

فحدجتني هيلا بنظرة ساخرة، واجابت وهي تقلب بصرها ما بين قطعة الجبنة وبيني:

– كلا، لم تكن سكرتيرته!

– اذن، من كانت؟

– لا ادري!

– لا تدرين ام ان في القضية سرا تريدين كتمانه؟

فهزت هيلا كتفيها وقالت:

– ليس في القضية اي سر. اسأل من تشاء من خدم الفندق يعطيك الجواب نفسه، فنحن كلنا لا ندري حتى الآن من هي، كل ما نعرفه عنها انها جميلة، وانها ترتدي دوما ثيابا بيضاء انيقة رغم الثلج والبرد. وكانت خلال الايام الثلاثة التي اقامها الفوهرر هنا تتردد على غرفته بحضوره او بغيابه وتنضد بيدها الزهور. ولم يكن في الحاشية كلها من يخاطبها او يراجعها.

– واين كانت تنام؟

– في الغرفة الثالثة الى يمين غرفة الفوهرر على انها كانت تقضي

ساعات النهار في جناح الفوهرر الخاص. وكثيرا ما كنا نراها تحادث المارشال . المارشال غوبلز طبعا. وقد تجرأت احدى الخادمات وسألت احد افراد الحاشية عنها فأصابها ما جعلها تندم على فضولها. واخيرا اصبحنا نتنبه في احاديثنا ونطلق عليها اسم «بالوما» اي الحمامة البيضاء بسبب ملابسها البيضاء. ولا نزال حتى الآن نشير اليها بذلك الاسم عندما نذكرها...

تابعت حديثي مع الخادمة عن رفيقة هتلر فقلت: اسمحي لي ان القي عليك سؤالا لا علاقة له مطلقا بالموضوع. هل يحب الفوهرر النساء ام انه يعيش عيشة النساك من هذه الناحية؟

فقهقهت هيلا وقالت: سأجيبك عن سؤالك الذي لا علاقة له بالموضوع بسؤال لا علاقة له بالموضوع... ولماذا تريد الا يكون الفوهرر رجلا كغيره من الرجال من هذه الناحية؟

– اذن فالحمامة البيضاء كانت...

فقاطعتني قائلة: لا ادري من كانت، انا لم اقل شيئا ولا اعرف شيئاً. سمعت جرس غرفتك يقرع، فلماذا دعوتني؟

وادركت ان هيلا شعرت بأنها استرسلت في الحديث مع شخص غريب اكثر من اللازم، فسكت بدوري.

وكان من الطبيعي ان احاول التثبت اولاً من صدق الرواية، فطرحت السؤال عن «بالوما» على بعض خدم الفندق، فلم افز بطائل، اذ اعتصموا جميعا بالصمت التام او تجاهلوا سؤالي بالمرة.

وقد علمتني اختباراتي فيما بعد الا استغرب هذا التحفظ من الالمان عند ذكر الفوهرر، فهو في قلوب محبيه، وفي قلوب خصومه سيد الـ «غستابو»، وفي كلا الحالين يكون «الصمت زين والسكوت سلامة». واذا كانت هيلا لم تعمل بتلك الحكمة فلأنها امرأة. عفوا يا سيداتي!

وحاولت اثناء اقامتي في فيينا، وقد دامت يومئذ سبعة اسابيع، ان اتوصل الى مصادر موثوق بها استقي منها الحقيقة، فكنت اصطدم اكثر

الاحيـان بالاعراض او بالتهرب. اما الذين كانوا يخوضـون الحديث معي فكانوا لا يعرفون عن حياة هتلر الغرامية اكثر مما نعرف نـحن، فليس بين الالمان من يكترث للتحـري عن هذا الموضـوع. وعلى الرغم من انني طرحت السـؤال على العشرات، فإنني لم اسمع احداً ينفي وجود «حياة خاصـة» للفوهرر. انهم يعرفون او يشـعرون ان هتلر رجل كغيره، ولكنهم يعتقدون بأن الشؤون الغرامية لا تشغل من وقت هتلر ما يجذب اليها الانظار، فلا مجال اذن للبحث فيها.

وعدت قبيل سفري استـأنف التحقيق عن «بالوما» بين خدم الفندق وكانت السكاير يومئذ عزيزة في المانيا، لا ينال المستحق سوى اربع منها في اليوم، حتى بلغ ثمن الواحدة منها في السوق السوداء ما يعادل الليرة السـورية. وكنت منذ قدومي اوزع حصـتي منها على الخدم، فحلت عقدة لسانهم، فراحوا يحدثونني عنها بما لا يختلف عن حديث هيلا.

وعبثاً حاولت ان اعرف يومئذ من هي هذه المرأة. ولكنني اعتقد الآن - بعد ان اميط اللثام عن مأساة ايفا براون - انها كانت ايفا نفسها.

٢٥

■ **فيينا، ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٤٢**

في الساعة الثامنة صباحاً، رن جرس الهاتف حاملا اليّ صوت فريدريش، قائلا:

– هل لك ان تتفضل الى الـ «كونتيننتال»؟

قلت: خير ان شاء الله؟ هل ورد الجواب؟

فأجاب: لا ادري، انما ارجوك ان تأتي فوراً، فتجدني في انتظارك امام الباب!

وبعد بضع دقائق كنت ادخل مع فريدريش دار الـ «غستابو»، مجتازا معه الحواجز كما جرى في المرة الاولى. وقد ادخلوني هذه المرة فورا على المدير، فإذا به يقابلني هاشاً باشاً هذه المرة، ويقول:

– واخيرا جاء الجواب المنتظر!

وتناول الرجل ملفاً رفيعاً، واخرج منه برقية طويلة وقال:

– لقد تلقيت مساء امس هذه البرقية من الدكتور غروبا، مدير الشؤون

العربية في وزارة الخارجية، وهو يطلب الينا ان نرفع عنك قيود السفر، بشرط ان تسافر الى المكان الذي يعينه لك. فما رأيك؟

قلت: لقد قلت لكم مثنى وثلاثا ورباعا انني اريد السفر الى دكار، فإذا لم توافقوا على ذلك فسيان عندي اين اكون.

فابتسم الرجل واجاب: ولكن الدكتور غروبا اختار لك مكانا يرضيك. ولو اختاروا مثل هذا المكان لكل غير مرغوب فيه في المانيا لطلب الملايين ان يكونوا من غير المرغوب فيهم!

غير مرغوب فيه؟ اذن انا غير مرغوب في اقامتي هنا؟ تلك كانت الملاحظة الاولى التي اسمعها عن قضيتي، فقلت للرجل: اذن انا غير...

وادرك الرجل ان لسانه عثر، وقال ما لا يجب ان يقول، فقاطعني قبل ان اكمل سؤالي قائلا:

– لقد اسأت التعبير، فلست اعني ما تعنيه تلك العبارة!

ولم ار ثمة فائدة من متابعة الحديث بعد سماع تلك العبارة، فقلت له:

– واين هو المكان المختار؟

فنظر الى البرقية، ثم حدق وقال:

– صوفيا... صوفيا عاصمة بلغاريا. استعد للسفر اليها!

اذا كنت قد تظاهرت امام الرجل بالغضب والنقمة عندما سمعت اسم صوفيا، فإنني كنت غير صادق في الاعراب عن شعوري، والواقع ان اسم صوفيا جعل قلبي يرقص طرباً، اذ ادركت انني كسبت الجولة الاولى، ذلك ان ارسالي الى صوفيا لم يكن وليد رغبة الالمان في الاساس، بل وليد رغبتي انا!

بعد مقابلتي الاولى لمدير الـ «غستابو» في فيينا، ادركت انهم لن يسمحوا لي بمتابعة السفر الى دكار او الى اسبانيا او الى سويسرا، فكتبت عندئذ خفية الى اصدقائي في برلين وروما، وابلغتهم رغبتي في الاقامة في صوفيا، دون غيرها، اذا لم يرجع الالمان عن معارضتهم في سفري، ورجوتهم ان يوحوا الى الالمان باسم صوفيا بصورة غير مباشرة.

وقد كان للاخ عفيف الطيبي الفضل الاكبر في ذلك واذا بالجواب يرد حسب المرام، واذا بهم يقررون اعادتي الى صوفيا!

ولقد وقع اختياري على صوفيا لاسباب عديدة، اهمها وقوعها في جوار تركيا المحايدة وكونها اقرب بلد اوروبي الى بلادي. ثم ان طبيعة البلقان الشرقية تحببه الى قلوب الشرقيين، ففضلت السكنى فيه على السكنى في الغرب الغريب.

على ان تحقيق رغبتي في العودة الى صوفيا لم يحل – في نظري على الاقل – ازمتي الخاصة. فقد كنت اتوقع ان يكشف في الـ «غستابو» في النهاية عن الاسباب التي جعلتني ضيفاً عليه، فلما ذكر لي مدير البوليس اسم صوفيا، قلت له:

– سيان عندي الى اين اذهب اذا لم اعرف الاسباب. ان لي ملء الحق في ان اطلع على الحقيقة، فهل لك ان تخبرني الاسباب التي حدت بكم الى تقييد حريتي؟

وهز الرجل كتفيه واجاب:

– امامي برقية من الدكتور غروبا تلوتها عليك. انه يقول باعادتك الى صوفيا وعلينا التنفيذ!

وأدركت ان الوقت قد حان لوضع النقاط على الحروف، فأجبته ببرودة:

– لقد جاء الآن دوري في القول. انتم اقوياء تستطيعون ان تفعلوا بي ما تشاؤون، ولكنني عقدت العزم على الا اتزحزح من فيينا ما لم اعرف سبب هذه المعاملة. لكم ان تنقلوني بالقوة اذا اردتم، ولكنني لن اغادر هذا البلد برضاي قبل ان اطلع على الحقيقة، وقبل ان يعتذر لي المسؤول عن هذه المعاملة. هذا هو الجواب الذي ارجوك ابلاغه الى الدكتور غروبا!

ورأيت في عيني الرجل بريق غضب، ولكنه ادرك انني جاد في قولي، فأجابني:

– سأسجل كلامك، وسأنقله الى رؤسائي. وهم وحدهم يستطيعون

ابلاغ اقوالك الى الدكتور غروبا اذا رأوا ذلك مناسباً. وفي الانتظار ارجوك ان تستعد للسفر في مهلة ٢٤ ساعة!

فقلت: لن استعد للسفر، ولن احرك ساكناً، ولن اقفل حقيبة. افعلوا هذا انتم اذا شئتم، واحملوني بالقوة الى المحطة. ثق انني سأظل مصراً على موقفي حتى تتبدد جميع الشكوك. فإذا كانت ثمة تهمة موجهة اليّ فالرجاء التصريح بها، واذا لم تكن هناك تهمة فالرجاء الافصاح عن هذه المعاملة!

ونهضت من مكاني، ونهض الرجل، فرافقني الى الباب قائلاً:

- اهنئك على صراحتك، ولكن الاوامر هي الاوامر. لقد اعجبني موقفك وسأبذل كل ما في وسعي لكي تصل اقوالك الى الدكتور غروبا!

وهز الرجل يدي بشدة وابتسم، فشكرته وخرجت تتنازعني عاطفتان: عاطفة الغبطة بالرجوع الى صوفيا، وعاطفة الغضب لأنهم حبسوا عني السبب!

* * *

عدت الى الفندق رأساً، فتناولت معطفي، وركبت «الترام» قاصداً الى ضواحي فيينا، احاول ان ارفه عن نفسي بجولة في غاباتها الجميلة، فقضيت النهار فيها اتمتع بالشمس تخرج من وراء الغيوم للمرة الأولى منذ ستة أشهر تقريباً. ولاحظت ان اكثر سكان المدينة قد انتشروا مثلي في الغابات، فالسماء لا تصفو كل يوم في اوروبا، خاصة في ايام الربيع. واذا كنا نحن ننعم بتسعة اشهر من الشمس والطقس الدافىء، فالاوروبي لا يستطيع ان يتصوّر كيف ينقطع المطر طيلة هذه المدة، اذ ان الصفاء مفقود من جوهم، الا في ايام معدودة طيلة السنة، لذلك تراهم يعتبرون كل نهار مشمس عيداً سعيداً!

عندما عدت الى الفندق في المساء قال لي مدير المكتب:

- اين كنت اليوم؟ لقد جاء هر فريدريش بعد الظهر ليراك، وترك لك هذه الرقعة...

وناولني الرجل ورقة تحمل رقم تلفون وبعد لحظات كنت اخاطب فريدريش فقال:

– انني انقل اليك نبأ ساراً. لقد اتصل مديرنا هاتفيا ببرلين وابلغهم اقوالك فجاء الجواب بالسماح لك بالسفر الى برلين مدة ٢٤ ساعة لمقابلة الدكتور غروبا قبل ان تنتقل الى صوفيا. سأمر عليك صباح الغد لمشترى تذكرة السفر، فكن مستعداً!

وعلقت السماعة، وذهبت الى غرفتي وانا ابتسم ابتسامة عميقة، اذ سرني ان ازور برلين زيارة خاطفة، واقابل رفاقي واخواني، واتخلص من هذه العزلة القاتلة!

لم يخلف فريدريش الميعاد، اذ انتصب امامي في الساعة الثامنة تماماً، وهو يبتسم ابتسامة فيها كثير من سذاجة الملائكة على ان ابتسامته كانت تخفي سحابة من الكآبة، فسألته السبب فأجابني:

– ابني مريض!

وفتحت حقيبتي واخرجت منها لوحاً من الشوكولاتة، وناولته اياه، فقبله شاكراً وقال:

– ان ابني سيشفى بمجرد رؤية الشوكولاتة، اذ حرمته الحرب منها منذ ثلاث سنوات!

ثم قلت: ما دام ابنك مريضاً، فإنني انصح لك بالذهاب الى جانبه، وانا اشتري تذكرة السفر وحدي.

فهز الرجل رأسه وقال: كلا يا صاح... النظام هو النظام، ولا تنتهي ساعة خدمتي قبل الثامنة مساء، فلن استطيع الذهاب للبيت!

ثم استطرد قائلا: وهل تستطيع الحصول على التذكرة وحدك؟ هذا مستحيل ومع ذلك سأدعك تجرب حظك الآن!

وذهبنا معاً الى مكتب السفريات، وطلبت من الموظف بطاقة سرير للسفر الى برلين، فتأمل في الجدول امامه وقال:

– هناك تذكرة حرة لقطار المساء بتاريخ ٢٠ ايلول (سبتمبر)...

وكدت اقفز من مكاني، بينما كان فريدريش يبتسم ورائي بخبث، وقلت للرجل:

– ولكنني بحاجة الى السفر الليلة...

فهز كتفيه واجاب: ليس لدي اية تذكرة حرة قبل ذلك التاريخ!

واذكر بهذه المناسبة انني ذهبت فور وصولي الى فيينا في اوائل آذار (مارس) الى طبيب الاسنان، وكنت اعالج احد اسناني في صوفيا، فأدركني السفر قبل اتمام المعالجة واذا بالممرضة التي استقبلتني تقول:

– ها قد سجلت اسمك وحفظت لك دورك. تفضل بعد شهرين في الساعة العاشرة من صباح ٢٠ ايار (مايو)...

ودهشت يومئذ، وقلت لها انني اتألم، وبحاجة الى المعالجة السريعة، فأجابت: اني آسفة فليس لدى الطبيب اي موعد حر قبل ذلك التاريخ!

ذلك ان الحرب سحبت اكثر اطباء المانيا الى الجبهة، فلم يبق للمدنيين سوى افراد قلائل. وكان على المريض ان يحجز موعداً مع الطبيب قبل شهرين او ثلاثة، اللهم الا اذا كانت حالته خطرة!

وانصرف قاطع التذاكر الى عمله، فتطلعت الى فريدريش، فإذا به يتقدم الى الشباك، ويخرج من جيبه بطاقة هويته. وما كاد الموظف ان يرى بطاقة الـ «غستابو» السمراء اللون ويستمع الى الطلب حتى قال:

– لدي تذكرتان لهذا المساء، وهذه احداهما!

وسألت فريدريش عن السر، فأجاب:

– لكل دائرة من دوائرنا تذاكر محدودة في كل قطار، لا يجوز بيعها من المدنيين. وقد حصلت بفضل بطاقتي على تذكرة من تلك التذاكر.

خرجنا من مكتب السفر، وانا احمل التذكرة المنشودة، واقترحت على فريدريش ان يتناول معي فنجانا من الشاي بمناسبة سفري، فلبى الدعوة وجلسنا في مقهى «فيينا» الشهير.

وراح فريدريش يحدثني عن ذكرياته في الخدمة، فقال انه دخل سلك البوليس منذ عشرين سنة وبعد الـ «انشلوس» استبقاه الالمان في عمله.

قلت: وهل بقيت الادارة على حالها عندكم؟

فأجاب: تقريبا، اذ استبقى الالمان جميع الموظفين، ولكنهم عينوا رؤساء للدوائر منهم.

قلت: هل تستطيع ان تبسط لي في كلمات معدودة اسباب زوال النمسا كدولة؟

فأجاب: لم يكن كيان النمسا بعد الحرب كيان دولة، وكان من الطبيعي ان نتوجه بأنظارنا شطر المانيا. على ان الساسة النمسويين هم المسؤولون عن حدوث الـ «انشلوس» بذلك الشكل. لقد كان باستطاعتهم مفاوضة المانيا على انشاء اتحاد جرماني، تنضم اليه النمسا مع احتفاظها بميزاتها الخاصة. ولكن الساسة خافوا على كراسيهم، فراحوا يعادون المانيا ويريدون من شعب عريق في جرمانيته كالشعب النمسوي ان يتعاون مع ايطاليا عدوته التقليدية.

– اذن كان المستشار (النمسوي السابق) دلفوس (*) مخطئا في نظركم؟

– كلا، كان معتوها، لأنه اراد ان يجعل البلاد آلة في يد الدول الاجنبية!

– وما رأيك في (المستشار الحالي) شوشنيغ؟

– انه لا ريب افضل رجل عرفته النمسا. لقد خدم البلاد باخلاص وايمان ولكن عيبه الوحيد هو اصراره على الابتعاد بالنمسا عن المانيا بلا مبرر. ولو ان شوشنيغ فاوض برلين على عقد الاتحاد الذي اشرت اليه، لظلت النمسا دولة ضمن الدولة الجرمانية.

وغاب فريدريش في افكاره لحظة، ثم استطرد قائلا:

– لقد ضاعت النمسا بين شوشنيغ والامير شتارمبرغ. كان شوشنيغ

(*) يذكر المستشار دلفوس وخلفه شوشنيغ عارضا بشدة وحدة النمسا والمانيا. وقد قُتل دلفوس في فيينا في محاولة انقلابية نازية فاشلة عام ١٩٣٤، بينما اعتقل شوشنيغ اثر دخول القوات الالمانية الاراضي النمسوية عنوة عام ١٩٣٨ واعلان الـ«انشلوس».

يعمل جادا ليلا ونهارا، بينما ينصرف شتارمبرغ الى ملذاته، ويقضي معظم اوقاته في الصيد والقنص. ولكم اضطرت الدولة الى تعطيل اعمالها لأن الامير غائب في نزهة او مغامرة!

– واين شوشنيغ الآن؟

– انه معتقل في مكان قريب من هنا وقد كنت في الشهر الماضي في جملة حراسه ويؤسفني ان اذكر ان اعصابه متحطمة تماما!

– أصحيح أنكم تعذبونه؟

– ولِمَ يريدوننا ان نعذبه؟

– والآن اسمح لي ان اسألك سؤالا جريئا: أصحيح ما يروى عنكم من الفظائع؟

ومرت على وجه فريدريش سحابة من الغضب ثم قال:

– ان البوليس الالماني لا يختلف عن غيره، اجل نحن نقسو في معاملة اليهود وحدهم، ولكن انظر ماذا يفعل اليهود ضدنا في العالم. لقد البوا علينا دول الارض، واشركوا اميركا في الحرب، أتريدنا بعد هذا ان نجعلهم أسيادنا؟

– وهل تكرهون اليهود في النمسا بقدر ما يكرههم الألمان؟

– لقد كانوا اشد نفوذا في النمسا من المانيا، لذلك كان انتقامنا منهم أشد عنفا وفظاعة، خاصة يوم تحقق الـ «انشلوس»!

ونظر فريدريش الى ساعته ونهض وودعني، قائلا انه سيوافيني الى المحطة في المساء.

٢٦

■ **فيينا، ١٩ نيسان (ابريل) ١٩٤٢**

ملأت حقيبة صغيرة بما احتاج لمدة اربع وعشرين ساعة. وفي الساعة السادسة مساء كنت على رصيف محطة فيينا الشرقية انتظر القطار. وكان فريدريش قد وعد بأن يوافيني الى المحطة، ولكنني لم ار له وجهاً.

وفي الساعة السادسة والنصف اقبل القطار، فصعدت الى عربة الاسرة، وشعرت انني سعيد بالحصول على سرير فيما كان المئات يتدافعون للحصول على موطئ قدم في احدى العربات العادية. لقد كان السفر في المانيا صعباً جداً للمدنيين اذ استهلكت المساحات الروسية الواسعة اكثر القطر الالمانية، فلم يترك الجيش للمدنيين الا عدداً محدوداً من القطر على كل خط رئيسي. وكان السفر بلا مبرر محظورا، وكثيراً ما عوقب المسافر اذا لم يثبت للمراقب ان سفره ضروري.

وكان رفيقي في الحجرة المانياً في الستين من العمر. وكان من الطبيعي ان نتجاذب اطراف الحديث، وان يبدأ الحديث بالاعاشة، ثم ينتقل

الى ازمة السكاير، واخيرا الى الحرب. وقد اعتاد الالمان ان يتحفظوا كثيراً في الكلام عن الحرب، لأنهم ينظرون اليها كأمر واقع لا فائدة من الجدل فيه، ولكن هذا الكهل خالف القاعدة، فاسترسل في الحديث عن الحرب بصراحة غريبة، وما ازال الى اليوم ارتاب في الحكم عليه: اهو شيخ ثرثار ام رسول موفد ليستفزني الى الكلام والجهر بما اضمر؟

راح الرجل يتحدث عن الجبهة الروسية فقال:

- هذه الجبهة الملعونة... لقد كتب اليّ ابني يقول ان القتال هناك صعب للغاية. انني اشك في مقدرتنا على هزيمة القفار الروسية الشاسعة.

وصمت لحظة، ورفع جبهته فبدت عليها تجاعيد الستين حولا، عميقة متهدلة، ثم قال:

- لقد حاربت في جبهة السوم سنة ١٩١٥، وخيل اليّ اننا لن نحارب مرة اخرى!

كنت احاذر ان اعلق على شيء من كلامه، ولكنني لم اتمالك ان اسأله:

- ولِمَ تحاربون اذن؟

فأجاب: لقد قرأت في الكتب انكم تعيشون في الشرق عيشة الرفاهية. أليست قصور «الف ليلة وليلة» في بلادكم؟ انتم تنعمون بأطايب العيش، اما نحن فقد شبعنا من البطاطا. لقد حارب اجدادنا للتخلص من البطاطا، وحارب جيلنا في سبيل الغاية نفسها، وها ان اولادنا يحاربون ايضاً...

وهز الرجل قبضته وقال: لا يجوز ان يعيش مئة مليون الماني على البطاطا بينما ينعم بضعة ملايين انكليزي بخيرات الارض. نحن نغطي سقوف منازلنا بالتراب لنزرع فيها القمح والبقول، وغيرنا يملك ملايين الهكتارات مهملة... كلا، لقد شبعنا من البطاطا!

ولقد كانت حجة الرجل في نظري معقولة، فقد شبعت انا منها - بل اتخمت - خلال اقامتي في فيينا، فكيف بالالماني الذي يعيش على البطاطا عشرات السنين؟ ولقد رأيت فيما بعد في احدى حدائق برلين تمثالا صغيراً لغرسة من البطاطا، كتب تحتها: «اعترافا بفضل البطاطا على الشعب

لالماني!» والواقع انه لولا البطاطا لما تجاوز عدد الالمان نصف عددهم
لحالي، ولدبت المجاعة اليهم كل عام. ولكن البطاطا تسد العجز في القمح
الحبوب والبقول. واذا كان الناس يلقبون الطليان بأكَلَة المعكرونة، فإن
لالمان هم بحق حقيق «أكَلَة البطاطا رقم ١»، وان كان اهل فيينا يلقبونهم
بأكلة المربى، لكثرة ما يحبون المربيات والسكاكر!

ومما اذكره بهذه المناسبة ان الدعاية الالمانية كانت تؤكد للشعب الالماني في بداية الحرب انه ضحية الاعتداء. وظل (وزير الدعاية النازي) الدكتور غوبلز يردد هذه النغمة طوال الحرب الا مرة واحدة، اذ نشر ابان معركة ستالينغراد مقالا في مجلته الاسبوعية «داس رايخ» قال فيه: «نحن نحارب لأننا شبعنا من اكل البطاطا!».

* * *

درج القطار بنا في ضواحي فيينا، حتى مر فوق الجسر الكبير على نهر الدانوب، هذا الدانوب الذي يجري تاريخ اوروبا فوق مياهه. منذ قرون، تمر الدول على ضفافه، بدلا من ان يمر هو على ضفافها، فتزول هي ويظل هو ساريا بجلاله وجبروته، شاطرا اوروبا شطرين عابرا وسط المانيا والنمسا والمجر ويوغوسلافيا وبلغاريا ورومانيا، فيتبدل اسمه من الدونار الى الدونا الى الدونافا الى الدانوبا، ويظل هو هو!

لكم تمنيت في تلك اللحظة ان يقف القطار على الجسر، وان أملأ بصري بعظمة هذا النهر، وان أرى صفحات التاريخ تنعكس على سطحه، من شارل الخامس الى آل هابسبورغ الى ادولف هتلر.

لقد خلد الموسيقي العبقري شتراوس الدانوب في معزوفته «الفالسية» الشهيرة «الدانوب الازرق». ومع ان جلال الدانوب يوحي الى المخيلة جلال السماء، فإنني لم استطع ان اتميز في مياهه قطرة زرقاء واحدة، بل كانت تتدافع بلون اسمر داكن، خال من الصفاء والسناء!

وغاب الدانوب عن نظري وأنا أتأمل فيه، الى أن جاء خادم العربة يذكرنا بانزال الستائر على النوافذ تمهيدا لانارة المصابيح. واشار الرجل

بيده الى اعلان معلق على باب الحجرة، فرحت أطالعه، فإذا به يتضمن سلسلة من الممنوعات، لا حد لها: ممنوع رفع الستائر، ممنوع التدخين من النوافذ، ممنوع التصوير اثناء النهار، ممنوع الرسم، الخ.

اما «الممنوعات» المأثورة في بلادنا، كممنوع البصق وممنوع القاء الاوراق على الارض فلا تجد لها اثرا في المانيا، اذ تأصلت في نفوس الاهلين واصبحت جزءاً لا يتجزأ من طباعهم.

ومنذ اغلاق الستائر، اصبحنا في القطار كالسردين في العلب، لا نستطيع ان نرى شيئا في الخارج. وحتى لو نظرنا من وراء الستائر، فإن التعتيم المفروض على المانيا كلها، يمنعنا من ان نتميز شيئا.

وهكذا خرج القطار بنا من النمسا، ودخل الاراضي التشيكية، ثم عبرها في اتجاه المانيا، ونحن لا نرى شيئا.

وفي الساعة العاشرة مساء عدت الى سريري لأنام، بينما كان رفيقي الالماني العجوز يتابع حديثه عن الحرب والبطاطا!



■ برلين، ٢٠ نيسان (ابريل) ١٩٤٢

بيروت - برلين - بيروت! ها هو القدر الذي شاء لي ان اختار هذه العبارة عنوانا لهذه السلسلة يحقق المرحلة الاولى منها.

لقد غادرت بيروت في ١١ حزيران (يونيو) ١٩٤١، وها أنذا بعد ٣١٣ يومًا ابلغ برلين، فأتذكر قول القائل: مشيناها خطى كتبت علينا!

كانت الساعة السابعة صباحاً عندما ايقظني خادم العربة قائلا:

- انهض يا سيدي، فقد دخلنا برلين!

فقمت على عجل، وارتديت ملابسي وحملت حقيبتي وخرجت الى الممر الضيق في العربة، ووقفت على النافذة، أرافق ظل القطار في مروره.

القطار يمر وسط المباني كما تمر الحافلات في بعض شوارع بيروت، ولا عجب في ذلك اذ ينبغي ان يجتاز ٢٠ كيلومترا داخل برلين لكي يبلغ احدى محطاتها الداخلية.

وأخيرا وقف القطار في محطة انهالتر الشهيرة، فرحت اجيل الطرف

بالحضور علي أجد أحدا أعرفه. ثم تذكرت انني لم انذر احدا بقدومي فنزلت. وكنت اعلم ان بعض المواطنين العرب يقطنون في فندق «اكسلسيور» فسألت احدهم عنه، فأجاب:

– الفندق قريب جداً من المحطة، وهو متصل بها بنفق خاص به. انزل طابقين واسأل عن مدخل النفق!

ماذا؟ محطة مؤلفة من عدة طوابق؟ وتلفت ذات اليمين وذات اليسار، فرأيت عشرات المداخل والمخارج والسلالم والممرات والاقبية، والناس يدخلون ويخرجون كالنمل، والقطر تمر بسرعة البرق، فخيل اليّ انني في يوم الحشر!

ووفقت اخيرا الى النزول الى الطابق الثاني تحت الارض، واذا بالمشهد نفسه يتكرر: قطر تروح وتغدو، وجماهير غفيرة تصعد وتهبط، وسلالم اوتوماتيكية تحمل الناس الى الطابق الاعلى. يكفي ان يقف الانسان عليها، وهي تصعد به، وقد ادهشني ان ارى الناس سكونا، يسعون كالنمل في مختلف الاتجاهات، كأن على رؤوسهم الطير!

ثم نزلت الى الطابق الثالث، واذا بالمشهد عينه يتكرر ايضاً، ذلك ان خطوط المواصلات الحديدية في برلين متداخلة بنظام مدهش غريب، فهناك القطار العادي، وهناك المترو (ترامواي تحت الارض) البلدي، ومترو الضواحي – وكلها تتلاقى في المحطات الرئيسية، واهمها محطات انهالتر وتمر وفريدريش شتراسه.

وبينما كنت انزل من الطابق الثاني الى الثالث على السلم العريض الذي يعجب المارة، انتهرني احدهم بنبرة عنيفة قائلا:

– رشتس! (اي يمينك!).

وايقظتني هذه الصيحة من ذهولي، فتلفت حوالي، واذا بي انزل من دون انتباه من الجهة اليسرى: اي من الجهة التي يصعد منها الصاعدون، فسارعت الى الجهة اليمنى، ووقفت في نهاية السلم ارقب المارة، فلم اجد بينهم واحدا يخالف العرف في الصعود والنزول ألست الآن في برلين، بلد

النظام العسكري الصارم؟

وارشدني احدهم الى مدخل النفق الخاص بالفندق، اندفعت اسير فيه، وانا اتساءل في نفسي عن عظمة هذا الفندق الذي وصل بنايته بالمحطة بنفق تحت الارض طوله ۱۲۰۰ متر!

اجتزت النفق الواسع بين محطة انهالتر وفندق «اكسلسيور» وانا اتلفت ذات اليمين وذات اليسار، فاستلفت نظري مظهر بدا لي غريبا، ذلك انني سرت بضع مئات من الامتار داخل النفق، دون ان اجد على الارض قصاصة ورق او عقب سيكارة، ودون ان ارى على الجدران الخطوط والعبارات التي تسود جدران شوارعنا، ودون ان ارى في الزوايا اي اثر للسوائل المعهودة التي تروي زوايانا! هذه النظافة الكاملة الشاملة هي اول ما يستلفت الانظار في برلين، بل تكاد تكون رمزها الاول وميزتها الفضلى. تجدها في النفق كما تجدها في الشارع، في داخل البيت كما في خارجه. وأخيرا خرجت من النفق، واذا بي وسط فندق «اكسلسيور» اكبر فنادق اوروبا حجما، اذ يتجاوز عدد حجراته الستمئة. وبعد لحظات كنت اعانق الاخ عفيف الطيبي وغيره من ابناء العرب. ولم يشغلني شوقي الشديد الى التعرف على برلين عن المهمة الاساسية التي جئت من أجلها الى العاصمة الالمانية، اي جلاء قضيتي، فسارع الاخ عفيف الطيبي الى الاتصال بالدكتور غروبا، فعين لي الساعة الرابعة بعد الظهر موعداً لتناول الشاي لديه.

أمامي الآن بضع ساعات قبل الموعد، فلأغتنم الفرصة لأتجول في العاصمة الالمانية. ولكن من اين لي ان اخرج وانا محاط بعطف الرفاق واشواقهم. لقد مرت عليهم اشهر لم يلتقوا خلالها بعربي قادم من «الجنوب»، فاغتنموا الفرصة وهاجموني بأسئلتهم من كل حدب، وعن كل موضوع يخص الوطن، وكان كل منهم يشعر بسعادة تامة اذ اتصل به نبأ ما عن ذويه وان كان قديما.

وتذكرت ان ساعات اقامتي في برلين معدودة، اذ لم تسمح لي السلطة

بأكثر من اربع وعشرين ساعة، وقد لا تسنح لي فرصة اخرى لزيارتها فيما بعد، لذلك اعتذرت من الاخوان وخرجت برفقة احدهم.

ما كادت قدمي تطأ ارض الشارع حتى رحت اتلفت ذات اليمين وذات اليسار، وانا أتوقع ان أرى هتلر وغوبلز وغورنغ امامي، وان اشاهد صفوف الـ «فيرماخت» والحرس الاسود تمر في الشوارع بلا انقطاع. ولكن وجه برلين الخارجي هو عكس ذلك تماما. انه ليس وجه استعراضات ولا مظاهرات، بل وجه عمل جدي ثقيل. كل شخص تقع عينك عليه تراه يعدو مسرعا بمهمة او نحو مهمة، ولا تجد في الشوارع ولو شخصا واحدا يتجول فيها تجول السائح الاميركي، اللهم الا اذا كان من ابناء العرب اللاجئين اليها في اثناء الحرب!

واختلطت مع رفيقي بهذا المزيج وسط شارع فسيح. وكم كانت دهشتي عظيمة عندما سمعت شتى اللغات تتردد على ألسنة المارة، الا اللغة الالمانية. ولما سألت رفيقي عن السبب اجاب:

- لا تعجب، فالرجال الالمان في الجبهة، والنساء في المصانع، لذلك انتقلت اعباء المهام المدنية في المدن الكبرى الى العمال الاجانب من فرنسيين وبلجيكيين وهولنديين ونروجيين!

ومنذ اللحظة الاولى ادركت البون الشاسع بين فيينا وبرلين. ان كل ما في عاصمة آل هابسبورغ يوحي الابتسامة والتسلية. اما برلين، فكل ما فيها يفرض عليك جو العمل العبوس فرضا، تزيده الحرب تلبداً واسوداداً.

كان عدد العرب في برلين في اثناء هذه الحرب لا يقل عن الاربعمئة نسمة بين لاجئ سياسي وطالب وتاجر ادركته الحرب، فكان المفتي الاكبر الحاج امين الحسيني ورئيس الوزارة العراقية السابق السيد رشيد عالي الكيلاني القطبين اللذين يجتمع حولهما العرب. بيد ان الرجلين كانا غائبين عن برلين في ذلك الاسبوع اذ كانا قد سافرا الى روما مع عدد وافر من مساعديهما ومستشاريهما لمفاوضة الحكومة الايطالية والالمانية على الشؤون الخاصة بالقضية العربية، وعلى هذا فإنني لم اشعر في برلين

بالنشاط العربي الذي شعرت به فيها خلال زياراتي التالية اليها.

* * *

لا تختلف برلين عن غيرها من العواصم الكبرى الا في نظافة شوارعها، وفي انتظام الحركة فيها. لقد زرت في رحلات سابقة قبل زيارتي لها عدة عواصم اوروبية كبرى، ولكنني لم ار فيها ما رأيت في برلين من النظافة. وهي تعزى الى سببين: شعور البرليني بالمسؤولية من حيث القاء الاوراق والاوساخ في الشوارع واقدامه على التقاط ما قد يراه منها ولو القاه غيره، وثانيهما انتظام دوائر التنظيفات.

ولكم تمنيت بعد عودتي الى بيروت ان ارى في شوارعها سلة بلدية واحدة، يستطيع المرء ان يلقي فيها بالنفايات البسيطة مما يغني الناس عن القاء الاوراق واعقاب السكاير في الشوارع. اما في برلين فإنك تجد كل خمسين متراً سلة وكل مئتي متر مبولة، وقس على ذلك.

وليست برلين بالمدينة الجميلة فهندستها قاتمة تجعلك تشعر بالفخامة دون الاعجاب، وهذه الفخامة عينها تتجلى في تماثيلها وآثارها الفنية، وقد وجدت اكثرها مغطى بطبقات كثيفة من الباطون المسلح والقرميد لدفع خطر القنابل الجوية عنها.

ولعل اكثر ما يستلفت انظار الشرقي الذي يحب بطبيعته الابتسام والحديث، النظر الى عشرات الالوف من الناس وهم يمرون في الشوارع بسرعة البرق، دون ان يستوقف احدهم الآخر. وقد زادت الحرب في هموم الناس، فأزالت آخر اثر للابتسام، حتى خيل اليّ ان كل برليني محزون مهموم، وان كان هذا المظهر هو في الواقع جزءاً من الطبع الالماني اثناء العمل. أليست برلين عاصمة بروسيا؟

تصور ايها القارئ شوارع بيروت مقفلة يوم الاحد، ولم يشذ عن ذلك سوى بضعة متاجر دفع الطمع اصحابها الى متابعة العمل حتى في يوم الراحة الاسبوعي. هكذا كان مشهد متاجر برلين في أوائل الحرب، اذ اضطر اكثر من سبعين بالمئة من تجارها الى اقفال محلاتهم، وكتبوا

عليها: «هذا المحل مقفل لأن صاحبه ذهب يخدم وطنه في الجبهة»، او ما شابه ذلك اما المحلات المفتوحة الباقية فإنها كانت خالية تقريبا من البضائع، الا اذا كانت من محلات الاعاشة. وكنت ترى واجهات ضخمة جبارة، عرضت فيها ادوات قليلة هزيلة كتب عليها: «هذه الادوات معروضة من قبيل الدعاية فقط، وسيكون بمقدور الزبائن الحصول على أفضل منها بعد النصر».

ولا انسى مشهدا رأيته وانا اتجول ظهر ذلك اليوم. لقد رأينا جنديا المانيا يسوق قافلة من الاسرى الانكليز في شوارع العاصمة الالمانية. ولكن اتظن ان الالمان كانوا يصفرون وهم يستهزئون بهم؟ كلا، فقد كان بعض المارة يمزح معهم، وكان آخرون يقدمون اليهم سكاير وحلوى، فأدهشني هذا المشهد حقا بين الاعداء، ولم البث حتى علمت ان الالمان يحبون الانكليز حقا، ويعجبون بهم اعجابا اختصوهم به من دون غيرهم من الشعوب. بيد ان هذه العاطفة تبدلت كثيرا بعد الغارات الجوية في سنة ١٩٤٣.

* * *

عدت الى فندق «اكسلسيور» لتناول طعام الغداء مع بعض الرفاق العرب. وفي اثناء الحديث معهم علمت منهم بعض الملاحظات العامة عن قضيتي الخاصة، ففهمت ان هناك وشايات (تتهمني بالتعامل مع الحلفاء ضد الالمان) ولكنهم يجهلون تفاصيلها.

وسألت الأخ عفيف الطيبي كيف استطاع تدبير قضية رجوعي الى صوفيا، فأجاب أن السلطات الالمانية وافقت اخيراً على ترخيص انشاء مكتب كبير للدعاية العربية في أوروبا، فاقترح على الدكتور غروبا، مسؤول الشؤون العربية الالماني، ايفادي الى العاصمة البلغارية لتمثيل المكتب هناك، ولاقى الاقتراح حظوة في عينه اذ اوجد حلاً معقولاً لـ «قضيتي». وقد علمت فيما بعد ان اصدقائي في روما، وفي مقدمتهم الدكتور محمد حسن سلمان وواصف كمال اتصلا بسماحة المفتي الاكبر في هذا الصدد ايضاً، فاوعز هو بدوره الى مستشار الدكتور غروبا، الدكتور غرانوف لاجراء اللازم.

وهكذا اثمرت المساعي المبذولة في برلين وروبما عن تحقيق رغبتي في العودة الى بلغاريا بشكل ما.

في الساعة الرابعة تماما كنت ادخل والاخ عفيف الطيبي على الدكتور غروبا في بيته، فاستقبلنا هو وزوجه بحفاوة، وقادنا الى غرفة مؤثثة بالرياش الشرقي الأنيق، على غرار منازل دمشق.

وانتحى بي الدكتور غروبا زاوية الغرفة وافتتح الحديث قائلا:

– اجل يا سيد مروه… لقد كانت قضيتك معقدة، ولكن اصدقاءك كثر، واستطعنا في النهاية تذليل العقبات!

فقلت: جئت خصيصا الى برلين لكي اطلع على خفايا تلك القضية، فهل لك ان تنيرني؟

فحدجني غروبا بنظرة من عينيه الكبيرتين، ثم ابتسم وقال:

– لا استطيع ان ادخل في تفاصيل معك. ولكن مسلكك في استانبول هو السبب.

قلت: وما دخلكم في مسلكي في استانبول؟

فأجاب: ليس لنا دخل فيه، لولا انك دخلت اراضينا، فأصبح كل ما يهمك يهمنا، اذ اننا الآن في حالة حرب!

– وماذا تأخذون على مسلكي في استانبول؟

– نحن لا نأخذ عليك شيئا معينا، ولكننا لاحظنا انك لم تتصرف عندما كنت في بلد محايد تصرف الحليف..

وسكت غروبا لحظة، ثم استطرد قائلا:

– ولا تعرف العدو… وهنا أساس القضية. لقد كنت تتصل بحلفاء لنا كما تتصل بأعداء لنا، فمن الطبيعي اذن الا نطمئن الى ميولك!

– ولكنني لست ألمانيا انا عربي ولي ملء الحرية في ان اتصل بمن اريد، لأن بلادي ليست في حالة حرب مع أحد!

– هذا صحيح، ما دمت في بلد محايد ونحن لم نحاول انتزاعك من تركيا او من غيرها، بل انت جئت الى بلادنا، فارغمتنا على خلق قضية

اسمها قضية!

- ولكنني، جئت الى بلادكم للمرور منها الى بلاد اخرى.

فهز الرجل رأسه قائلا: قد اقتنع بهذا الرأي لا سيما وانني اعرف العرب جيدا. ولكن هناك دوائر أخرى لا تفهم هذه اللغة. نحن الآن في حالة حرب، فاما ان يكون لنا حلفاء او يكون لنا اعداء، وانت لم تكن لا حليفا ولا عدوا، ومن كان على الحياد قد يصبح حليفا ولكن قد يصبح ايضاً عدوا لذلك عوملت على ذلك الشكل. اكرر لك القول بأننا في حالة حرب!

قلت: ولماذا لا تدعونني اسافر الى حيث اريد السفر؟

فأجاب: لا ادري انا السبب. لا تتسرع. انك صحافي عربي، وان العرب يؤلفون في هذه الايام عيارا له وزنه. وما دمت قد وقعت في ايدينا فإننا نفضل ان تبقى، فإذا كنا لن نربح بذلك صديقا فإننا نحاول على الاقل - من قبيل الاحتياط - دون زيادة اعدائنا في الخارج عدوا جديدا.

وضحك غروبا ضحكة عميقة، وناولني قطعة من راحة الحلقوم، وقال:

- ما مضى الآن قد مضى. عد الآن الى صوفيا، وسنرى فيما بعد!

ادركت من لهجة الدكتور غروبا، المتحفظة الصريحة في آن واحد، ان الجدل في قضيتي لن يجدي نفعا، فنزلت عند الامر الواقع، وعدنا الى المائدة نتناول جميعا الشاي. واغتنمت الفرصة لتوسيع نطاق الحديث الى الحرب، فقلت: ما آخر ما عندك من معلومات عن مجرى الحرب؟

فأجاب: من يدري غير القيادة العليا؟

ومع ذلك فإنني اعتقد ان الهجوم المنتظر في هذا الصيف على الجبهة الشرقية سيحملنا الى القوقاس، ومنه الى ايران والعراق!

قلت: وروميل؟

فأجاب: لا اعتقد ان مهمة روميل بعيدة المدى، وستظل عمليته الحربية محلية في الوقت الحاضر، على ان الكلمة للقيادة العليا!

ثم استطرد غروبا قائلا: ان المفتي والكيلاني هما الآن في روما وسألحق بهما بعد بضعة ايام، وانني اعتقد ان العرب يستطيعون القيام

بدور كبير في تحرير بلادهم اذا شاؤوا. وثقوا اننا سنقدم اليكم كل مساعدة ممكنة لتأمين استقلالكم!

قلت: وايطاليا وفرنسا وانتداباتهما!

فسكت الدكتور غروبا قليلا، ثم قال: طبعا طبعا، هناك اعتبارات خاصة تتعلق بايطاليا، لا تنس انها حليفتنا، وانها تجند خمسة ملايين جندي في الميدان. بيد انني اعتقد ان الطليان لا يريدون اكثر من بعض الامتيازات الاقتصادية، اما فرنسا فلا خطر عليكم منها بعد النصر وسنتولى نحن ضمانة استقلالكم وعلى كل فإن المفاوضات التي ستجري بعد بضعة ايام في روما، ستضع النقاط على الحروف فتعرفون عندئذ موقف ايطاليا الصحيح وتتحدد العلاقات العربية بالمحور بصورة جلية!

ونهض الدكتور غروبا مشيرا الى انتهاء المقابلة، فودعناه وكان ذلك آخر عهدي به، اذ لم تلبث الخارجية ان نقلته من الدائرة العربية الى باريس.

لكن قبل ان اودع الدكتور غروبا سألته:

– ولم حددتم مدة اقامتي في برلين بأربع وعشرين ساعة؟

فأجاب: انت تعلم ان الضغط شديد على المواصلات في اثناء الحرب، مما يجعل نقل المواد الغذائية الى برلين صعبا، لذلك نحرص على دخول اقل عدد ممكن من الزائرين الى العاصمة لتخفيف الضغط عنها.

قلت: ما دمت الآن قد وصلت الى برلين، فإنني اود أن أبقى فيها ولو يوما آخر، لكي تتاح لي زيارتها، فهل تستطيع تدبير ذلك؟

وتناول غروبا سماعة التلفون، وبعد لحظات قال لي:

– حسنا، انك تستطيع البقاء يوما آخر في العاصمة!

قلت: ومتى أسافر الى صوفيا؟

فأجاب: عد غداً الى فيينا، ثم سافر منها رأساً الى صوفيا، واتفق على التفاصيل مع مدير مكتب الدعاية العربية (في برلين) عفيف (الطيبي)!

وعدنا على الأثر الى الفندق، وكان الظلام قد بدأ يهبط، فيزيد برلين كآبة على كآبة. وتناولنا طعام العشاء، ثم ذهبت باكرا الى الفراش.



■ برلين، ٢١ نيسان (ابريل) ١٩٤٢

اليوم اصبحت طليقا من المواعيد في برلين، لذلك قررت ان اغتنم الفرصة لزيارة ما استطيع زيارته من معالمها، ومنذ الساعة الثامنة ارتديت ملابسي ورحت اتجول فيها. وكنت كلما اجتزت شارعا طويلا وصلت الى شارع اطول. ولا عجب فإن شوارع برلين هي اطول شوارع في اوروبا، كما ان العاصمة الالمانية نفسها ضخمة جداً من حيث المساحة.

وأخيرا بلغت شارع انتردن لندن، الذي طالما رددت البرقيات اسمه، حيث يجري الجيش الالماني استعراضاته الشهيرة. ولاحظت ان جانبا من الشارع مغطى بشباك عريضة، نشرت عليها رؤوس اشجار من الورق الاخضر، غايتها تضليل الطائرات، بحيث يضيع الشارع في الغابات المحيطة به.

ها أنذا امام باب براندنبرغ الشهير، وقد علا تمثال النصر. الى يميني فندق «ادلون» الشهير، والى يساري قصر المفوضية الأميركية المقفل.

كل ما تقع العين عليه يوحي العظمة والجبروت. وتابعت السير وسط هذا الشارع العظيم، حتى بلغت قبر الجندي المجهول، وقد وقف امام مدخله جنديان طويلان بالسلاح الكامل، يتلفتان ببطء شديد ذات اليمين وذات اليسار. ولما سألت عن معنى هذه الحركة، قيل لي انها بمثابة تحية لارواح الشهداء.

ودخلت الى داخل النصب، فإذا بي وسط غرفة فسيحة، وقف في وسطها اربعة جنود وقفة التماثيل البرونزية امام نصب صغير. وكان الجنود صامدين في وقفتهم الى حد يخيل معه للناظر انهم يؤلفون جزءا من النصب.

هذا المشهد على بساطته يوحي الى النفس الخشوع الشديد، فلا يستطيع الزائر الا ان يحني الرأس احتراماً.

الناس يدخلون الى القاعة باستمرار ومعظمهم من الجنود او من النساء اللواتي فقدن رجالهن في الجبهة، فترى الواحدة منهن تنحني امام النصب بخشوع، ثم تشعل شمعة وتنصبها على الارض، وكان فناء القاعة مليئا بالشموع المضاءة او الذائبة.

واذا كان مشهد هذا النصب قد اثر في نفسي، فإن مشهد زائريه كان اشد منه، اذ ليست العبرة في الانصاب نفسها بل في احترام الناس لها، وهو احترام جاوز هنا حد العبادة والتقديس!

تابعت السير في شارع انتردن لندن وانا لا ازال تحت وحي زيارتي الى نصب الجندي المجهول. ورأيت من بعيد دار الأوبرا الضخمة شاهدة على المقام العظيم الذي تحتله الموسيقى في هذه البلاد. وانني لأشعر بحزن شديد وانا اكتب هذه السطور، اذ اتذكر ان الغارات الجوية اتت فيما بعد على اكثر هذه المباني والتحف، فلم تترك منها سوى رماد وانقاض!

وصلت أخيرا الى المتحف العسكري، فسارعت الى الدخول اليه، فوجدته يعج بالزائرين، اذ نظمت القيادة الالمانية فيه معرضا خاصا بالجبهة الشرقية. وكان المعرض في الطابق الاسفل منه، وقد انتشرت فيه نماذج من

مختلف الاسلحة الروسية التي غنمها الالمان في الجبهة الشرقية، ونماذج من ملابس الجنود الروس، ومن بينها ثوب مصنوع من القماش الاخضر، يبدو لابسه فيه كأنه شجرة ذات فروع قصيرة. وكان الروس يستخدمون هذا الثوب لتضليل الجنود الالمان في الغابات واصطيادهم.

واستلفت نظري من بين الاسلحة الروسية مدفع ذو اربع فوهات، وكان الالمان يلقبونه بـ «ارغن ستالين» وعلى مقربة منه انتصبت دبابة روسية من عيار ٩٠ طنا، وهي عبارة عن كتلة ضخمة من الفولاذ.

وقد كانت الغاية الرئيسية من هذا المعرض تبرير المصاعب التي لاقاها الجيش الالماني في الجبهة، وافهام الشعب بأن النضال لن يكون سهلا. وكان الزائرون ينظرون الى هذه الأسلحة والغنائم نظرة تدل على ادراكهم للحقيقة.

على ان عظمة المتحف العسكري لا تتجلى الا في الطابق الاول، حيث يضيع النظر منذ اللحظة الاولى في عشرات اللوحات الزيتية الجبارة التي تمثل الانتصارات الجرمانية منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا، وقد توسطت صدر القاعة لوحة جبارة تمثل جنديا المانيا من جنود هذه الحرب وقد اندفع نحو خط النار. هي ذي رسوم كبار الاباطرة والقادة الالمان منذ فريدريك الثاني الى بسمارك الى غليوم الى هتلر. هي ذي رسوم تذكارية أصلية تمثل اهم الاحداث العسكرية منذ حرب السبعين حتى معركة فرنسا الأخيرة. هي ذي اصول المعاهدات العسكرية والاقلام التي وقعت بها. هي ذي الخرائط التي كان يستعملها فريدريك الثاني ضد الروس، وبلوخر ضد نابليون ولودندورف وهندنبورغ ضد الحلفاء، هي ذي امجاد ثلاثة قرون معروضة امامي بنظرة واحدة!

وصعدت الى الطابق الثاني، فإذا بآثار عسكرية مختلفة منتشرة فيه طولا وعرضا. هي ذي ملابس الجند منذ القديم حتى اليوم. هوذا جواد فريدريك الكبير الابيض محنطا، واقفا وسط مربع زجاجي، هوذا ثوبه الملطخ في الميدان بالدم، وقد تحول لون بقع الدم مع السنين الى اسود قاتم. هي

ذي مـدافع اشـتـركت في مـعارك واترلو وسـيدان والسـوم والمارن، هي ذي رايات ظللت الاعـداء والاصـدقـاء، هـي ذي غنائم من كل مـعـركـة، هي ذي امجاد في النصر والهزيمة، لو رآها الجبان لأصبح صنديدا.

تركت المتـحف العسكري بعد السـاعة الثـانية عشرة، ورحت اجـتاز شـارع انتردن لندن صـعودا نحو حي المباني الحكومـية، على امل ان ارى الشخصيات الرسمية الالمانية وهي تغادر مكاتبها.

وبعد قليل كنت أسير في شـارع فلهمشـتراسـه الذي يلتقي بشـارع انتردن لندن وهو شارع ضيق بالنسبة الى شوارع برلين الفسيحة، ذو مبان قديمة العهد.

ها أننذا امـام البناء رقم ٧٥ انه بناء عـريض مـؤلف من اربعـة طوابق، مظهره يجعله اقرب الى الدير منه الى مقر وزارة الخارجية الالمانية. أتذكر ايها القارئ حوادث ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩؟ أتذكر ان مصير العالم تقرر في احـدى قـاعـات هذا البناء، يوم سلم (وزير الخـارجـيـة النازي) فـون ريبنتروب الى سفير بولونيا جواز سفره معلنا بداية الحرب مع بولونيا ثم جاء سفير انكلترا وفرنسا يقدمان الى ريبنتروب مذكرتي اعلان الحرب على المانيا، ثم جمع ريبنتروب الصحافيين في صباح ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١ الباكر ليعلن امامهم نبأ الهجوم على روسيا؟

وتجاه وزارة الخارجية تقع وزارة الدعاية، وزارة الدكتور غوبلز. من هنا يخـدم غـوبلز بلاده في عـرف الالمان، ومن هنا «يفـبـرك» الاكـاذيب والافتراءات في عرف الاعداء. وينتهي بناء الخارجية والدعاية الى ساحة واسعة يتفرع منها قصر المستشارية الجبار، مقر أدولف هتلر، حيث لاقى الفوهرر حتفه فيما بعد.

ولقد ادهشني وانا اتجول بين هذه المباني الضخمة، حيث كتبت اشد صفحات التاريخ الحديث خطورة، ادهشني الهدوء السائد فيها وحولها، فلا تسمع لا حسا ولا حركة.

وفي السـاعـة الثـانيـة عـشـرة والنصف دوى رنين جـرس قـوي، واذا

بأبواب الوزارات تنفتح، ويخرج منها الموظفون والكتبة بالمئات واذا بالسيارات تدرج الى الارصفة لتحمل اصحابها، واذا بالحركة تدب الى المداخل والمخارج دبيب النمل. وكان الموظفون يسيرون بنظام وسكون كأن كلا منهم يسير تحت اشراف شرطي السير، كما كانت السيارات تغدو وتروح دون ان تحتاج احداها الى التزمير، رغم كثرة عددها.

وقبيل الساعة الواحدة رأيت الدكتور غوبلز يغادر دار الوزارة، متأبطا تحت ذراعه ملفين ضخمين، وهو يوزع الابتسامات ذات اليمين وذات اليسار، ويعرج عرجته الطبيعية، فيخيل الى الناظر انه ينوء تحت ثقل الملفين. وتوجه الوزير الى سيارته الصغيرة، فامتطاها، وضاع بين سيل السيارات الاخرى.

وعبثا ترقبت خروج فون ريبنتروب من وزارته، ثم علمت فيما بعد انه لا يخرج منها بل ينتقل الى بيت صغير واقع بين الوزارة وبين قصر المستشارية، معد لسكناه مع عائلته.

اما قصر المستشارية فلم يخرج منه احد تقريبا، وظل الحارسان الفتيان المنتصبان عند مدخله واقفين كالتماثيل امامه. وما كدت اتبع سيري في اتجاه ساحة بوتسدام حتى رأيتهما يتحركان بحركات ميكانيكية سريعة لتأدية التحية، فقفلت راجعا، واذا بجنرال يغادر البناء. ثم تعاقب بعده عدد من العسكريين، وكان الحراس يؤدون التحية كل مرة بتلك الحركات العصبية المأثورة عن الألمان، فكان منظرهم مثيرا للاعجاب حقاً!

واستوقفت احد المارة، وسألته:

– هل الفوهرر موجود هنا؟

فحدجني بنظرة دلت على دهشته من سؤالي هذا، واشار بإصبعه الى السماء، وقال ضاحكاً:

– من أين لنا ان نعلم؟ اسأل الله... انه وحده العليم!

* * *

عدت الى الفندق لتناول طعام الغداء والاستراحة. وبعد الظهر ذهبت

برفقة الصديق السيد رائف زنتوت لزيارة قصر بوتسدام الشهير، الواقع في ضواحي برلين.

ومر بنا القطار في الطريق اليه على سلسلة البحيرات الجميلة المحيطة بالعاصمة الالمانية، وكلها واقعة وسط غابات جبارة. واذا كانت برلين بشعة في داخلها، فإن ضواحيها هي آية في الجمال، اذ امتدت يد العمل والعناية الى كل شبر منها، فجعلتها معرضاً للمذاق، وفرضت على طبيعة المانيا القاسية الظهور بمظهر الطبيعة الخضراء الباسمة.

ان الغابات هي عنصر اساسي من عناصر التجميل والترفيه، لذلك لا تخلو مدينة في اوروبا من غابات واسعة غرستها يد الانسان وتعهدتها بعناية خاصة حتى نمت في ذلك المناخ السيء. وبالرغم من ان تربة بلادنا صالحة للغابات، ومن ان مناخها يساعد على نموها، فإننا نكاد لا نجد غابة واحدة، بل حديقة واحدة، يلجأ اليها ابناء المدن في ساعات الفراغ.

وبلغنا قصر بوتسدام، وهو قصر حقير ليس فيه شيء من فخامة القصور الاوروبية الكبرى، ولكنه يتمتع بمقام كبير عند الالمان، لأنه قصر الامبراطور فريدريك - فريدريش بالالمانية - الكبير، واضع الحجر الاساسي في بناء الدولة الالمانية الكبرى.

ولقد بذلت الدعاية الالمانية في هذه الحرب كل ما في وسعها لاعادة ذكرى فريدريك مجسمة الى اذهان الالمان، وابراز اوجه الشبه بينه وبين هتلر. ذلك ان فريدريك اضطر ان يحارب طيلة سبع سنوات على جبهتين: الجبهة الروسية والجبهة الانكليزية - النسموية. وفي اثناء هذه الحرب احتل الاعداء اكثر من نصف البلاد وهزموا جيوشه وانزلوا به الضربة تلو الضربة، ولكنه لم يفقد امله في النصر وظل يجاهد ويجالد حتى وفق في النهاية الى التفريق بين خصومه، وانزل بهم الضربة القاضية.

ولما كان هتلر يحارب على جبهتين في آن واحد، وكان اعداؤه يزدادون قوة على مر سني الحرب، فقد ارادت الدعاية من التشبيه بينه وبين فريدريك، تعزيز معنويات الشعب الالماني، ومنع الروس من السيطرة عليه.

وهكذا كانت شركات السينما تخرج الفيلم تلو الفيلم عن مغامرات فريدريك، وكانت الصحف تنشر الاعمدة الطوال عنه، خاصة بعد معركة ستالينغراد. وقد استقرت الفكرة في اذهان الالمان فعلا، ولطالما سمعتهم في زياراتي الاخرى الى المانيا، فيما بعد، يستقبلون انباء الهزائم في روسيا بصبر وحزم، مرددين ذكرى هزائم فريدريك الكبير، آملين ان يقلب الدهر مجرى الحوادث في اللحظة الاخيرة. تلك كانت الفكرة السائدة في سنة ١٩٤٤، ولكن من كان يفكر بها الآن من زائري قصر بوتسدام. لقد رأيت المئات منتشرين في حدائق القصر الغناء، بين الازهار واشجار البرتقال المزروعة في براميل مزخرفة، وعلى وجوههم ابتسامة الايمان بالظفر المحتوم، وليس بينهم من يتوقع ان تنتهي نهاية هتلر الى غير نهاية فريدريك.

كان الظلام قد هبط عندما غادرنا بوتسدام بالقطار عائدين الى برلين وكان الناس ينتظرون دورهم بالمئات للركوب، فكلما جاء قطار حمل اكثر من خمسمائة راكب، ومع ذلك يظل عدد المنتظرين يتزايد.

ولاحظت في حافلات القطار ملاحظات تستحق الذكر. فهذه الحافلة للمدخنين وتلك لغير المدخنين. وهذه حافلة للذين يستصحبون معهم كلابهم، وتلك للذين يحملون امتعة، وكل حافلة منظمة في داخلها تنظيما يتلاءم مع حاجات الركاب المعدة لاستقبالهم. ويستحيل ان تجد راكبا يخالف التعليمات، فيصعد الى عربة غير العربة المناسبة.

وكان القانون يحظر على اليهود ركوب غير العربات ذات المقاعد الخشبية كما انه كان محظوراً عليهم الجلوس. وبينما كنت عائداً انا والاخ رائف زنتوت، صعدت من احدى المحطات عجوز وقفت امام الحاجز الخشبي وتمسكت به، وكان يبدو على وجهها الاعياء الشديد. فادهشني انه لم يتحرك احد من الركاب ليجلسها مكانه، ثم لم البث ان ميزت النجمة الصفراء تلمع على صدرها فأدركت انها يهودية.

ولا اعتقد ان الالمان يكرهون اليهود سياسياً اكثر مني، ومع ذلك شعرت بألم شديد، وانا ارى العجوز ترتعش من التعب. فلم اتمالك من

النهوض ودعوتها الى الجلوس مكاني. واذا بالجميع ينظرون اليّ بدهشة، مستغربين ان يجرؤ احد الركاب على تحدي القانون على هذا الشكل.

واحمر وجه العجوز وقالت:

– شكرا، لا اريد.

ولم احاول الالحاح عليها، لأنني كنت قد عرفت ان الالمان لا يفهمون لغة التشريفات، وان كلمتهم تعني حقا ما صمموا عليه، فعدت الى مقعدي، واذا بها تقول لي:

– انت اجنبي؟

قلت: نعم، انا عربي. من اين عرفت ذلك؟

فأجابت: لو لم تكن اجنبياً يجهل القوانين لما تجرأت على مخاطبتي او دعوتي الى الجلوس مكانك.

وجلست مكاني وقلت لرفيقي:

– ولماذا رفضت ان تلبي دعوتي؟

فأجاب: القانون هو القانون. انه ينطبق عليها بقدر ما ينطبق عليك. فإذا لبت دعوتك فذلك يعرضها على كل حال للعقاب.

وكان عدد اليهود في برلين قبل الحرب يقارب التسعين الفا، فأصبح في سنة ١٩٤٢ عشرين الفا، ثم هبط في سنة ١٩٤٥ الى الخمسة آلاف، كلهم من العجز. اما الآخرون فقد افناهم الالمان في بولونيا كما وصفت في فصل سابق.

* * *

بالرغم من ظلام الحرب، فقد كانت الحياة الليلية في برلين عامرة. ولعل السبب الرئيسي في ذلك هو كثرة الاموال في ايدي الناس وانعدام البضائع، فلم يجد الناس مخرجا غير دور السينما واللهو.

وكان عدد النساء يغلب على عدد الرجال بين رواد الملاهي. ذلك ان الحرب جعلت كل امرأة عاملة تتقاضى راتبا، كما حرمتها رجلها، من زوج او أخ او نسيب، فجعلتها تصبو الى الترفيه عن نفسها بأي شكل كان.

وكان ذلك سببا في هبوط اسهم المرأة بالنسبة الى الرجل، فأصبح الرجل يحتل مقاماً رفيعاً في عيون النساء كأنه بضاعة نادرة. وكانت الفتاة التي تحظى بشاب يرافقها في نزهة او الى سهرة تشعر بنفسها سعيدة بالنسبة الى غيرها، وقد كانت نسبة الرجال الى النساء في برلين ايام الحرب تقارب ١ الى ١٠. وكانت النسبة تتزايد كلما تطاولت الحرب وازدادت التعبئة. وكانت برلين محظوظة بالنسبة الى غيرها من هذه الناحية، اذ كان يتردد عليها الجند المجازون، وكان فيها موظفون وعمال اجانب. ولكن هناك بلداناً وقرى صغيرة لم تر وجها للشباب طيلة الحرب، فكان الرجال فيها ممثلين في غلمان تحت السادسة عشرة وشيوخ فوق الستين.

٢٩

■ برلين، ٢١ نيسان (ابريل) ١٩٤٢

كيف كان البرليني ينظر الى الحرب في سنة ١٩٤٢؟ حاولت ان اجلو هذه النقطة في زيارتي القصيرة الى العاصمة الالمانية فأرهفت اذني للاستماع الى كل ملاحظة، كي اتمكن من تكوين فكرة واضحة عنها.

يجب ان نذكر اولاً ان الالماني العادي، اي رجل الشارع، لم يكن يتوقع انفجار الحرب في سنة ١٩٣٩. فقد كان يرجو حتى اللحظة الاخيرة ان يتجنب الفوهرر الحرب باعجوبة من الاعاجيب التي عرفوها قبلا في السار والراين والنمسا وتشيكوسلوفاكيا. وكان يؤمن ايمانا راسخا بأن هتلر يكره الحرب ولن يكون البادئ بها مهما حدث.

وعلى هذا الاساس، استطاعت دعاية الدكتور غوبلز اقناع الرأي العام الالماني بأن الحرب مع بولونيا لم تكن حربا هجومية بل حربا دفاعية. وقد وجدت سواد الشعب الالماني يعتقد اعتقادا قويا بأن بولونيا كانت البادئة بالهجوم على المانيا، وان الجيش الالماني لم يهاجم بولونيا في اوائل ايلول

(سبتمبر) ١٩٣٩ لكي يعتدي عليها، بل لكي يرد الهجوم البولوني الذي بدأ في ٢٩ آب (اغسطس)، وصبر عليه الفوهرر يومين كاملين!

وكنت تجد في جميع التقاويم الالمانية تحت تاريخ اول ايلول (سبتمبر) العبارة التالية: «ذكرى بدء الكرّة الالمانية على الهجوم البولوني».

ومما ساعد على ترسيخ فكرة الحرب الدفاعية في عقول الالمان هو ان انكلترا وفرنسا هما اللتان اعلنتا الحرب على المانيا في ٣ ايلول (سبتمبر) وليس المانيا، فاستقر في عقول الجماهير الالمانية ان بلادهم هي ضحية عدوان اجنبي لئيم، وان هذه الحرب هي حرب دفاعية بريئة، فاستقبلها الالمان بكره شديد، ولكن بعزم شديد.

وجاءت الانتصارات الاولى على بولونيا بسرعة البرق، فاستقبلها الالمان بحماسة، لأنهم يكرهون البولونيين كرها لا يوازيه الا كرههم للروس، فازدادت ثقتهم بأنفسهم، وزال تخوفهم من الحرب وحل محله تفاؤل ظاهر بقرب انتهائها. ومما لاشك فيه ان الصلح كان اقصى اماني الالمان، وانهم كانوا يودون من صميم قلوبهم انهاء الحرب بصلح قريب مع الانكليز والفرنسيين، اذ لم تكن الجماهير الالمانية تشعر بالكره او بالعداء حيالهم.

ثم جاء الهجوم الالماني الصاعق على النروج والدنمارك في ٩ نيسان (ابريل) سنة ١٩٤٠ وعقبه الهجوم السريع على هولندا وبلجيكا وفرنسا في ١٠ ايار (مايو)، فملأ الزهو قلوب الالمان، وايقنوا انهم ربحوا الحرب، وان النصر اصبح في متناول ايديهم، يقتطفونه متى شاؤوا. وكانوا يتوقعون ان تستسلم انكلترا بين اللحظة واللحظة وان كانوا لم يعلقوا يومئذ اهمية كبرى على استسلامها او عدمه.

اما روسيا فكان سواد الشعب الالماني مطمئنا الى حيادها بفضل ميثاق آب (اغسطس) ١٩٣٩، وبالرغم من ان الالمان يكرهون الروس كرها عنصريا واجتماعيا، زادته النازية حدة وانتشارا، فإنهم استقبلوا الميثاق في حينه بسرور، لأنه ازال عنهم خطر الحرب على جبهتين. واذا كان غلاة النازيين قد استاؤوا من الصلح مع الشيوعية، فإن الجماهير لم تكترث لهذه

الظاهرة وسرها ان ينقص اعداء المانيا عدوا كبيرا مجاورا كروسيا.

وفي فترة الانتظار التي عقبت النصر على فرنسا، كان الالماني يتساءل كغيره «اين تقع الضربة التالية؟»، سيان عنده اين وقعت لأنه واثق من النصر في كل مكان.

وكان الكثيرون يعتقدون ان روسيا ستدخل الحرب قريباً مع المانيا ضد الحلفاء الغربيين، وان جيوش الطرفين ستكتسح العالم. على ان الثقة بالسلاح الروسي كانت ضعيفة جداً بعد الحرب الفنلندية، لذلك لم يكن الالمان يعلقون كبير وزن على الجيش الاحمر.

كانت الحرب الالمانية – الروسية مفاجأة للشعب الالماني، ولكن مفاجأة من النوع الذي لا يدهش، اذ كان الالمان يشعرون ان تحالف فوهررهم مع الشيوعية ليس بالامر الطبيعي الطويل الأمد.

واذا كان سواد الشعب قد استقبل الحرب في الشرق للوهلة الاولى بعين الرضى، فذلك لأنه كان يعتقد ان مشاريع الفوهرر مضمونة النجاح، وان الجيش لم يقدم على مهاجمة روسيا الا بعد ان اعد العدة للفوز. وكانت الهزائم السوفياتية في الحرب الفنلندية قد قضت على آخر اثر للقيمة العسكرية الروسية في نظر الجماهير، فلم يبق ثمة ريب عندها في ان اكتساح روسيا سيكون مفتاح النصر والسيطرة على العالم كله. ولقد سمعت المارشال غورنغ (قائد سلاح الجو النازي) يخطب بعد انتهاء معركة ستالينغراد في كانون الثاني (يناير) ١٩٤٣، فيصف الهزائم السوفياتية في الحرب الفنلندية بأنها كانت اكبر خدعة عسكرية في تاريخ الحروب كلها، ويعترف بأن الجيش الاحمر كان يتعمد الهزيمة امام الفنلنديين ليخدع الالمان وغير الالمان.

ولا تنس ان النازية قضت عشرين سنة وهي تصور الشيوعية للشعب الالماني كعدو الانسانية اللدود، وتستفزه الى محاربتها. ثم ان الكره بين الروس والالمان قديم العهد، وتاريخ الشعبين سلسلة متواصلة من الحروب، لذلك كان الشعب الالماني مستعداً نفسياً لقبول الحرب الجديدة برضى

وحماسة.

وعززت الاسابيع الاولى آمال الالمان في النصر، ورأوا جيشهم يزحف بسرعة البرق، ويأسر الملايين في بيالوستك، ومنسك، وكييف، وخاركوف، وسمولنسك، ويبلغ ضواحي موسكو نفسها، فثملوا واطمأنوا. وفجأة جاء الشتاء، وبدأت رسائل الجند تصف للالمان اهوال الحرب هناك، فزالت النشوة الاولى، وحل محلها ذهول وتردد. ولما ثبت الجيش الالماني في وجه الكرات الروسية الاولى، استعاد الالمان رباطة جأشهم واسترجعوا ثقتهم بالنصر. ولكن فكرة النصر السريع زالت من مخيلتهم، وادركوا ان روسيا تقتضي مجهوداً اكبر من فرنسا. وكان الرأي سائداً بأن القيادة العليا ستضرب ضربتها القاصمة في الصيف، فاما ان تقصم الجيش الاحمر، او تقذف به الى ما وراء جبال الاورال. وازداد اعتقادهم بعزم القيادة على متابعة الهجوم عندما رأوها تدعو فئات جديدة الى حمل السلاح، وقد شهدت بنفسي اثناء زيارتي هذه لبرلين تنفيذ القرار القاضي باغلاق جميع محلات الصياغة في العاصمة وتعبئة مستخدميها.

والخلاصة انه لم يكن في برلين يومئذ من يحلم لحظة بأن الدهر سيقلب ظهر المجن وان برلين نفسها ستسقط صرعى بعد ثلاث سنوات تحت القنابل السوفياتية، بل كانت الثقة بالنصر عامة شاملة، وكان العامل الالماني يشتغل حتى ذلك التاريخ لا بروح الواجب فحسب، بل بروح الايمان بالنصر المقبل.

تلك كانت النفسية السائدة في برلين عندما زرتها في نيسان (ابريل) ١٩٤٢، وغادرتها عائداً الى فيينا، ومنها الى صوفيا. ولا بد لي ان اذكر انه ما كادت الحرب تبدأ في الشرق حتى بدأ الالمان يتوقعون عقد الصلح مع الدول الغربية، اذ لم يخطر ببالهم ان تتحالف بريطانيا واميركا مع روسيا. وكانت دهشتهم عظيمة عندما علموا بالتحالف الذي قام على الاثر بين تشرشل وستالين، واعتبروا تصرف الانكلوسكسون خيانة للثقافة الاوروبية وللمدنية، الخ.

ولقد كنت في فيينا عندما ورد نبأ التحالف البريطاني السوفياتي. ولا ازال اذكر تعليقاً عليه نشرته «فولكشر بيوباختر» قائلة: «بهذا التحالف وقّعت الامبراطورية البريطانية صك انتحارها، وتنازلت عن سيادتها في مملكتها وفي اوروبا للروس!».

■ برلين، ٢١ نيسان (ابريل) ١٩٤٢

اتفقت مع الأخ عفيف على تفاصيل انشاء مكتب صوفيا، وانتهت بانتهاء هذا اليوم المهلة المحددة لي للبقاء في برلين، فحزمت حقيبتي، وودعت الرفاق. وغادرت العاصمة الالمانية عائداً الى فيينا، وانا اشعر بزوال كابوس عن صدري.

والواقع ان الحياة في برلين لم تكن مما يروق للشرقي في ايام الحرب، فهناك اولاً هذا الجو المتجهم دائما بالغيوم، لا يبتسم الا فيما ندر، حتى لتشعر بصدرك يكاد ينطبق، وانت المعتاد على شمس لا تغيب طيلة تسعة اشهر! وهناك جو العمل الجاف، جو الحرب الذي لا يعرف هوادة ولا تساهلاً، تزيده قسوة الطبع البروسي شدة وعبوساً.

واذا كان هذا الجو لا يروق للزائر الغريب، فإنه يفرض عليك احترامه منذ الوهلة الاولى، ويجعلك تشعر بأن برلين ليست مدينة عادية، بل هي مصنع للحوادث الجسام، وان ضخامتها تنسجم مع الاحداث التاريخية الجبارة التي انبثقت عنها.

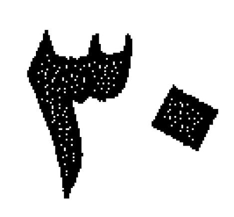
وان انسى لا انسى مشهد البرلينيين ينطلقون الى اعمالهم في شوارع العاصمة، وهم سكون كأن على رؤوسهم الطير، وكل منهم ينهب الارض نهباً لادراك مكتبه او مصنعه في الوقت المناسب. لقد قرأت بالأمس في مجلة «لايف» الاميركية مقالاً يصف فيه كاتبه «الحياة في برلين المحتلة»، فإذا به يصف حركة سكان العاصمة كما رأيتها عينها لأربع سنوات خلت. فالعمل الشاق هو اساس حياة الالماني. هكذا كان منذ الف سنة، ولا يزال الى يومنا هذا على حاله، ان في السلم او في الحرب. ولولا هذا العمل

الشاق لما استطاع الالماني تحويل بلاده القاحلة الفقيرة بالمواد الاولية الى جنة الصناعة في العالم، وان يرفع رغم فقره المدقع، مستوى رجل الشارع الى درجة اعتبرها الحلفاء الظافرون عالية جداً بالنسبة الى الاقطار الاوروبية المجاورة، فقرروا في اتفاقية بوتسدام تخفيضها الى اكثر من النصف.

ولا ازال اذكر ذلك الكاتب الاميركي الذي وصف عقلية الالماني فقال: «اذا رأيت الالماني ضجرانا، فاعطه الرفش، تنكشف اسارير وجهه وتعود السعادة الى نفسه. واذا رأيت المرأة الالمانية حائرة مضطربة، فاعطها السطل والمكنسة، يعود الاستقرار الى نفسها»! ولولا هذا العمل الشاق المتواصل من جيل الى جيل، لظلت المانيا صحارى وغابات.

وبينما نجد ان الطبيعة قد حبت ايطاليا وفرنسا مثلا بميزات جغرافية جيولوجية تضمن لهما الحياة الميسورة، نجدها قد قست على المانيا وحبست عنها جميع اسباب الرفاهية. ولا يجهل الالماني هذه الحقيقة، لذلك جد في بناء بلاده حجرا فوق حجر، وشجرة الى جانب شجرة، فليس فيها شبر واحد لم تمتد اليه يد الانسان وتتحدى الطبيعة في تحويله الى ارض عامرة!

على ضوء هذه الحقيقة يجب النظر الى طبع الشعب الالماني نفسه. وقد علمتني رحلاتي الكثيرة الا احكم على شعب من الشعوب الا بالنسبة الى طبيعة ارضه وطبيعة مناخه. واذا كان الالماني قاسياً، فذلك لأن ارضه ومناخه لا يوحيان الا القسوة والجد، خاصة في الشمال.



■ فيينا، ٢٢ نيسان (ابريل) ١٩٤٢

ها أنذا في فيينا بعد غياب ثلاثة ايام عنها، خلتها اشهراً. لقد «تبلّدتُ» في هذه المدينة، فأصبحت اشعر بالغربة اذا ما بعدت عنها.

ما كدت ادخل الفندق حتى سارع الخادم اليّ وعرض عليّ صحيفة قائلاً:

- بيروت... اخبار عن بيروت!

وشعرت بقلبي يهبط عندما سمعت اسم بيروت، ورحت اتساءل: وما دخل بيروت في انباء الحرب؟ هل اغار عليها الطليان ام ماذا؟

ورحت ابحث في الجريدة عن اسم بيروت، فعثرت عليه اخيراً في سطرين في نهاية البلاغ اليومي للقيادة العليا الالمانية، يعلنان ان غواصة المانية قصفت بالطوربيد باخرة على مقربة من بيروت، فتنفست الصعداء.

وبينما كنت اتصفح الجريدة، سمعت الكاتب يتكلم بالتلفون من وراء منصته ويقول:

- لقد عاد الايراني من برلين...

فأدركت انه رجل يقوم بواجبه ويبلغ الـ «غستابو» نبأ رجوعي، ولكنه اخطأ بين لبنان وايران. والظاهر ان الطرف الآخر لم يدرك الالتباس، فسأله عن القادم، فأجاب:

– الايراني... هذا الايراني الذي جاء من صوفيا...

وعندئذ اقتربت من المنصة دون ان يراني، وقلت له:

– غلطان... لبناني لا ايراني!

ورفع الرجل رأسه، فما كاد يراني حتى ارتبك واحمر وجهه، ولكنني تركته قبل ان ينهي مخاطبته وانا ابتسم. انه يقوم بواجبه، فلا لوم عليه. أليس ٩٩ بالمئة من كتبة الفنادق وخدمها في العالم كله عمال البوليس والامن العام؟

بدلت ملابسي، ونزلت مسرعاً الى الشارع استنشق هواء فيينا المرح بعد «شربة» برلين، فوجدت الشوارع تغص بالمارة، ومعظمهم من العمال الاجانب.

وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة مساء، والسماء صافية، والربيع يملأ الجو سناء وزهوا، فذهبت نحو حدائق القصر الامبراطوري وجلست على احد المقاعد اقلب في الصحف، علني اجد فيها تفاصيل اخرى عن حادث نسف الباخرة امام بيروت.

وبينما انا غارق في المطالعة، اذا بيد تربت على كتفي، واذا بي اسمع صوتاً فرنسيا يقول لي:

– السـت مسيو مرويه؟

والتفت الى الوراء، فإذا بي ارى وجهاً ليس غريباً عني، فنهضت واقفاً وصافحت الرجل قائلا:

– اعتقد انني رأيتك قبل اليوم، فمن انت؟

فضحك واجاب: ان ذاكرتي هي افضل من ذاكرتك. انت سافرت الى تركيا مراراً سنة ١٩٤٠.

قلت: صحيح!

قال: وفي المرة الثانية رفض الأمن العام اعطاءك اجازة بمغادرة لبنان، فجئت الى الدائرة تراجع...

وهنا عرفت هوية الرجل، فقاطعته قائلا:

- انت المسيو غراسيه؟

اجل، انه غراسيه، نائب مدير الامن العام في عهد المسيو كولومباني، الحاكم بأمره، في سورية ولبنان. انه امامي الآن في فيينا، بثياب عامل!

وادرك ما يجول في خاطري فقال:

- لا تستغرب وجودي هنا. لقد غادرت بيروت في آخر العام الماضي مع اكثر الفرنسيين وعدت الى بلادي. وفي مطلع هذا العام وقعت القرعة عليّ للعمل في المانيا، فكان نصيبي الخدمة في احد مصانع فيينا.

سبحان المغير ولا يتغير!

وجلس الرجل الى جنبي، ورحنا نستعيد ذكريات بيروت، فحدثني بالتفصيل عما جرى بعد الاحتلال الانكليزي - الديغولي، وعن الحالة الداخلية في فيشي ثم سألته:

- اتريد ان تعود بعد الحرب الى بلادنا؟

فأجاب: وماذا تريدني ان افعل فيها؟

اذا فاز الالمان سيحلون هم او الطليان محلنا، واذا فاز الحلفاء فالانكليز هناك. كلا يا صاح، لقد انتهى حكمنا عندكم!

■ فيينا، ٢٣ - ٢٤ نيسان (ابريل) ١٩٤٢

جاء فريدريش (مسؤول الـ «غستابو» المكلف مراقبتي) صباح اليوم التالي، وأبلغني ان الاوامر وردت من برلين بتسهيل سفري الى صوفيا في اسرع ما يكون، فأجبته انني مستعد للسفر فوراً وعلى الاثر ذهبت واياه الى مكتب السفريات حيث قطعنا تذكرة للسفر في ٢٤ الجاري، عن طريق زغرب وبلغراد.

وقد سيطرت فكرة السفر بعد ذلك علي، فحزمت حقائبي، وجلست

انتظر الرابع والعشرين. وكان شوقي الى صوفيا عظيماً، لأن صوفيا جارة تركيا وتركيا جارة بلادي، وفيها استطيع رغم الحرب ان استنشق عبير الوطن واعيد اتصالي به.

ولن اطيل الشرح على القارئ ففي صباح الرابع والعشرين، ودعت معارفي وذهبت الى المحطة، وانا اعتقد ان سفري سيريحني من فريدريش. وما كدت اصل الى قطار الجنوب حتى وجدت الرجل منتصبا امام باب العربة في انتظاري، فقلت له:

– خير ان شاء الله؟

– لا شيء انني قادم لمرافقتك!

– الى اين؟ الى صوفيا؟

– كلا الى آخر الحدود الالمانية!

وحاولت اقناعه بأنني اعرف ان اسافر وحدي، وانني لا ارى ثمة مبرراً لازعاجه، فأجاب:

– هكذا صدر الامر!

ولاحظ الرجل دلائل الامتعاض على وجهي، فاستطرد قائلاً:

– لا يزعجنك ذلك يا سيدي، فمهمتي هي تسهيل سفرك اثناء الطريق وتنظيم معاملاتك على الحدود، وعلى كل فقد سبق ان رافقت العشرات قبلك، ومنهم بعض العظماء!

– من مثلاً؟

– الامير بولس اليوغوسلافي. لقد كنت في حاشيته عندما زار المانيا سنة ١٩٤٠، وكنا قد علمنا ان الروس اوفدوا بعض الشيوعيين لاغتياله ومنعه من توقيع ميثاق عدم الاعتداء مع المانيا، فاضطررنا الى حراسته حراسة مستمرة. ولما غادر المانيا رافقته حتى الحدود!

وشكرت للهر فريدريش تواضعه الشديد، وموافقته على مرافقتي بعد ان رافق العظماء والكبراء. ثم انطلق القطار في الساعة العاشرة تماماً وراح ينهب الارض التي مررت عليها لستة اسابيع خلت.

ها نحن نجتاز منطقة الغابات، ثم نمر على مقربة من زامارنغ. كل ما تقع عليه العين الى اليمين والى اليسار يدل على العناية والنظام، ويوحي الاعجاب. وبعيد الظهر دخلنا منطقة مارينبورغ وهي منطقة المانية ضمتها يوغوسلافيا اليها سنة ١٩١٩ فعادت المانيا وضمتها اليها سنة ١٩٤١. وكانت آثار القتال ظاهرة على جانبي الطريق اذ دارت حول هذا الخط الحديدي معارك عنيفة. وكان اكثر الجسور مدعوماً بالخشب، بسبب ما اصابها من التداعي اثناء القتال.

ولما اقتربنا من الحدود الكرواتية، بدأ وجه الطبيعة يتبدل، وبدأت الخضرة تبدو في الحقول. لقد مررت في هذه المناطق منذ شهرين في اثناء الليل وفي خلال فصل الشتاء، فلم ار سوى بياض يخطف الابصار. اما اليوم فإنني سأتعرف في وضح النهار الى دولة جديدة: كرواتيا.

* * *

بعد وصولنا نقطة الحدود الالمانية الجنوبية عند بروكل في الساعة الرابعة مساء، رحت اسأل نفسي: أيرافقني فريدريش حتى صوفيا ام يتركني هنا؟

وجرت معاملات الجوازات في اقل من نصف ساعة، وصفر القطار، منذراً باستئناف المسير، واذا بالهر فريدريش يتقدم اليّ مصافحاً ويقول: «رافقتك السلامة، لقد انتهت مهمتي!».

فشكرت له على الاثر حسن رقابته، فقهقه ضاحكاً، وقال: لم افعل سوى الواجب!

وفي الساعة الرابعة والنصف اقلع القطار مودعاً الاراضي الالمانية، داخلا الاراضي الكرواتية. وكان يخيل اليّ في تلك اللحظة انني لن اعود الى المانيا.

ولكن القطار كان يخبىء لي ثلاث رحلات اخرى الى برلين في المستقبل القريب.

وشعرت بكابوس يزاح عن صدري عند دخولي كرواتيا، اذ تحررت

للمرة الاولى، منذ ثلاثة اشهر، من الرقابة والملاحقة والمطاردة.

كانت كرواتيا حتى سنة ١٩٤١ تؤلف نصف يوغوسلافيا الشمالي، ويسكنها العنصر الكرواتي الذي لا يختلف عنصرياً عن العنصر الصربي، ولكن كرواتيا كاثوليكية، وصربيا ارثوذكسية، لذلك استحال على الشعبين ان يعيشا معاً عن رضى وطيبة خاطر، وظل الكروات منذ الحرب الماضية يطالبون بالاستقلال الداخلي على الاقل، بينما يتمسك الصرب بالنظام المركزي لكي يظل الكروات ضمن الدولة اليوغوسلافية تحت اشرافهم المباشر.

وما كادت المانيا وايطاليا تؤلفان المحور المعادي ليوغوسلافيا، حتى علق الكروات آمالهم الاستقلالية عليه. ولما هاجمت الدولتان يوغوسلافيا في نيسان (ابريل) ١٩٤١ تمرد الضباط والجنود الكروات على القيادة اليوغوسلافية الصربية – وهم يؤلفون اكثر من ثلث الجيش – فشلوا بذلك حركة المقاومة، وانهار الجيش اليوغوسلافي في اقل من اسبوع.

وكانت الحركة الاستقلالية الكرواتية قد اتخذت قبل الحرب شكل جمعية ارهابية سرية تدعى باسم الـ «اوستاتشي» وهي التي اغتالت الملك اسكندر الاول في مرسيليا سنة ١٩٣٢، وكانت تتمتع بعطف ايطاليا وحمايتها. فلما احتل الالمان والطليان يوغوسلافيا، فصلوا كرواتيا في الحال عن صربيا، واعلنوا استقلالها التام، وانتقل زعماء الـ «اوستاتشي» من منافيهم الى كرواتيا حيث تولوا ادارة الدولة الجديدة على النمط الفاشستي، واختاروا زعيمهم السيد انتي بافلتش رئيساً للدولة الكرواتية الجديدة، متخذاً لنفسه لقب «يوغسلادنيك» اي الفوهرر.

ولما كانت كرواتيا مجاورة لايطاليا وكان سكانها كاثوليكيين، اتفق هتلر وموسوليني على ان تكون داخلة ضمن منطقة النفوذ الايطالي. وفعلاً وضع الطليان حاميات كبيرة في كرواتيا، ولم يلبثوا ان اتفقوا مع زعمائها على تعيين ملك ايطالي لها، وهو الدوق موسبوليتو.

ولكن الشعب الكرواتي بمجموعه يكره الطليان كرهاً شديداً ويحتقرهم،

فما كاد يستقل في سنة ١٩٤١، حتى مال بكليته الى الالمان. وعلى الرغم من ان السياسة المحورية الرسمية كانت تقضي بأن تكون كرواتيا منطقة نفوذ ايطالية، فقد تمرد الكروات على هذا الاتفاق، وانذروا الدوق موسبوليتو بالموت اذا ما جاء الى كرواتيا، فسمع الانذار ولم يطأ ارضها طيلة الحرب. وهكذا ظلت كرواتيا مملكة بلا ملك، يحكمها بافلتش بوحي الالمان.

٣١

■ زغرب، ٢٤ نيسان (ابريل) ١٩٤٢

بعد نصف ساعة من مغادرة الحدود الالمانية بلغ القطار محطة زغرب (او اغرام بالالمانية) عاصمة الدولة الكرواتية الجديدة. وانه لمن الغريب حقا ان تقوم عاصمة اية دولة كانت في اقصى حدودها، بدلا من ان تكون في نقطة متوسطة. والواقع ان العواصم البلقانية شاذة في مواقعها، لأن حدود الدول البلقانية مصطنعة، تتبدل حسب اهواء الدول الكبرى والحزازات المحلية، دون النظر الى الاعتبارات الاقتصادية والضرورات العسكرية.

لقد كانت زغرب تقع على بعد ربع ساعة من حدود المانيا. وكانت بلغراد (عاصمة صربيا) تقع على ضفة نهر السافي الذي يفصل تماما بينها وبين كرواتيا فكانت بلغراد على الضفة الجنوبية، وكرواتيا على مرمى حجر منها عبر النهر.

وهذه صوفيا (عاصمة بلغاريا) تقع على بعد كيلومترات قليلة من حدود صربيا.

وهذه بوخارست (عاصمة رومانيا) تقع على بعد اربعين كيلومتراً فقط من الحدود البلغارية.

وهذه براتسلافيا (عاصمة سلوفاكيا) تقع على مرمى حجر من الحدود النسموية وعلى بعد كيلومترات معدودة من حدود المجر.

وهذه براغ عاصمة بوهيميا ومورافيا (تشيكوسلوفاكيا اليوم) تقع على مقربة من الحدود الالمانية.

والخلاصة فإن العواصم البلقانية تدلل في مواقعها الجغرافية على شذوذ الحدود البلقانية، وتثبت ان هذا البلقان الذي شغل العالم زمنا طويلا، يؤلف في الواقع قطراً واحداً ممزق الاوصال، تحاول كل من دوله السيطرة على الاخرى.

ولقد كان بوسع الالمان اثناء الحرب ان يخدموا البلقان خدمة كبرى، وان يدللوا على حسن نياتهم وعلى رغبتهم حقاً في اقامة نظام جديد، وذلك بتوحيد الاقطار البلقانية في اتحاد يشمل كرواتيا وصربيا ومقدونيا وبلغاريا على الاقل، على ان تنضم اليه رومانيا واليونان فيما بعد. ولكنهم فعلوا العكس تماماً، وطبقوا مبدأ «فرق تسد» الذي طبقه الانكليز والفرنسيون في الشرق العربي عشية الحرب العظمى الماضية، فمزقوا يوغوسلافيا الى اربعة اجزاء: دولة كرواتيا المستقلة، دولة صربيا الخاضعة للاحتلال الالماني، امارة الجبل الاسود الخاضعة للاحتلال الايطالي، ولاية مقدونيا الخاضعة للاحتلال البلغاري - هذا فضلا عن اجزاء اخرى ضموها الى المانيا وايطاليا والمجر.

ولن يستقر السلم في البلقان الا يوم يدرك كل بلقاني ان مصلحته هي في انشاء ولايات متحدة بلقانية. اما اذا ظل اليوناني يرضع مع الحليب كره البلغاري، وظل البلغاري يتعلم منذ نعومة اظفاره ان اليوناني لص والصربي افّاك لئيم، والعكس بالعكس، فسيظل البلقان فريسة الدول الكبرى، كما كان بالأمس وكما هو اليوم.

* * *

لم اجد في محطة زغرب ما يستلفت الانظار، سوى ذلك العدد الكبير من الجنود الطليان بملابسهم الخضراء، وهم ينتظرون القطار للسفر الى روسيا.

وكان علينا ان ننزل في محطة بلغراد وننتظر قطاراً آخر يصل من برلين في الساعة التاسعة ليحملنا الى بلغراد فصوفيا، اذن فقد كان لدي ثلاث ساعات. فقررت اغتنام الفرصة وزيارة العاصمة الكرواتية خلالها.

وكنت لا ازال تحت ضغط القيود المفروضة على المعيشة في المانيا، لذلك لم اتمالك الدهشة عندما رأيت صفاً من سيارات التاكسي واقفاً عند المخرج، فركبت احداها الى المدينة، ورحت اتجول في شوارعها على غير هدى. وكان اول ما لفت نظري فيها كثرة الطرابيش، طرابيش مسلمي البوسنة والهرسك وعددهم لا يقل عن المليونين. وكانوا نصيب الدولة الكرواتية اثناء التجزئة الجديدة. وقد ذاق مسلمو كرواتيا اثناء هذه الحرب الامرين على يد الجنرال ميهايلوفتش (القائد الصربي الذي حارب الالمان بدعم من الانكليز) واعوانه اذ ذبحوا منهم اكثر من ثلاثمئة الف نسمة، ولولا تدخل سماحة المفتي الاكبر الحاج امين الحسيني لما بقي منهم حي يرزق.

ورأيت «مُطربَشاً» يسير مع امرأة محجبة الى يمينه، ومع فتاة حسناء سافرة الى يساره، فاستوقفته وقلت له بالفرنسية: هل لك ان تدلني على مطعم؟

ولم يفهم الرجل الفرنسية، فكررت السؤال بالالمانية، ثم بالتركية، ففهم طبعاً، لأن كل «بشناقي» يتكلم التركية الى جانب الكرواتية والصربية، وعلى الاثر سألني الرجل عن هويتي، فما كدت اقول له انني عربي، حتى طوقني وراح يقبلني، ثم قدمني الى والدته وزوجه، قائلا لهما:

- هذا اخ عربي من البلاد المقدسة!

واراد الرجل ان يدعوني الى بيته، فاعتذرت لضيق الوقت، فأصرّ على مرافقتي على الاقل في المدة الباقية، وعلى الاثر ارسل والدته الى البيت في سيارة، ورافقني هو وزوجه في التجوال. وكنا كلما خطونا بضع خطوات

التقينا بأحد معارفه، فيقدمني اليه قائلاً:

– هذا اخ عربي من الديار المقدسة!

وينضم الصديق الينا، حتى اصبحنا نسير في شبه مظاهرة. وكان كل منهم يلقي عليّ سؤالاً عن العرب وعن بلادهم، ويتلهفون لسماع الانباء عنا. وقد ادهشتني سعة اطلاعهم على شؤون بلادنا، بينما نجهل وجودهم.

وانتهى بنا المطاف الى مطعم فخم، وكان عددنا يتجاوز العشرين بين شباب وفتيات، وانتشرنا على مائدة طويلة. وقد ادهشني ان يكون الطعام طليقا من كل قيد في كرواتيا، وان يتمتع الانسان بما شاء من المآكل، بينما يعيش الالمان على بعد عشرين كيلومترًا فقط من زغرب في ضائقة وكرب.

* * *

«عربي وابيض؟»... لو سُئلت ان احصي كم مرة القي عليّ هذا السؤال اثناء غربتي في اوروبا، وفي البلقان بصورة خاصة، لما استطعت. فكل بلقاني تعرفت اليه كان يبادرني بهذا السؤال!

لقد سبق لي ان تعرضت لهذا الموضوع، واعود الآن اليه بمناسبة وصولي الى زغرب والعودة الى القاء ذلك السؤال.

وفي اثناء الدعوة نهض الداعي – واسمه انور عليفتش – واعرب عن سروره وسرور اخوانه بهذه الصدفة التي جمعتهم بعربي، ثم غمزني بعينه وقال «بعربي... ابيض!». وعلى الاثر نهضت والقيت كلمة شكرت فيها حفاوة الاخوان، ثم تبسّطت في الحديث عن العرب، فكانت دهشة السامعين عظيمة عندما سمعوني اقول ان العرب بيض وليسوا سودا، وان مدنيتنا – حتى في وضعها الراهن – تبز المدنية الاوروبية في عدة نواح.

ولعل السبب الرئيسي في جهل اوروبا الوسطى والبلقان للعرب هو احجام العرب عن زيارتها. فبينما يتردد العرب من مختلف ديارهم الى انكلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا يندر ان يزور احدهم البلقان، لذلك يجهل البلقانيون عنا كل شيء الا ما تنقله اليهم الافلام الاميركية من صور مشوهة عن العرب والحياة العربية.

وانني انصح الذين يزورون اوروبا للاستجام واللهو ان يزوروا اثينا وصوفيا وبوخارست وبلغراد وبودابست بدلا من باريس ولندن، فيجدوا في العواصم البلقانية من اسباب التسلية والترفيه عن النفس ما لا يجدون في اي مكان آخر.

ولا ننسى ان البلقان يشبه بلادنا شبهاً غريباً، فهو مزيج من الغرب والشرق، وان كان جوهره شرقياً اكثر مما هو غربي. ولا ننسى ايضاً ان البلقان ظل اربعمئة سنة خاضعاً للحكم التركي، وكان خالياً قبل ذلك من اي طابع ثقافي، فترك فيه الترك طابعهم، وهو طابع مستوحى بصورة اجمالية من الثقافة العربية. والواقع ان كل اثر شرقي ظل في البلقان هو عربي الاصل. ويسهل على العربي طبعاً ملاحظة هذا الاثر، ولكن البلقاني بات يعتقد مع مرور الزمن انه اثر تركي.

ومع ان البلقان مجاور لاوروبا الوسطى وبصورة خاصة لايطاليا والمانيا، ومع ان المانيا هي اكبر دولة صناعية في العالم واغناها بالانتاج الصناعي، فإن الرقي الآلي في البلقان لا يبزّنا في شيء. بيد ان الخطوة الاجتماعية التي خطاها البلقان واسعة جداً. والخلاصة فإن البلقان هو تتمة طبيعة الشرق في اتجاه الغرب، والغرب في اتجاه الشرق، وفيه يجد الشرقي - كالغربي - ما يرضيه ويطيب له.

* * *

في الساعة السابعة والنصف غادرنا المطعم قاصدين الى المحطة في شبه مظاهرة. وكان يرافقني زهاء ثلاثين شخصاً على الاقل، وانا الذي دخل زغرب لساعتين خلتا وحيداً فريداً.

وفي الساعة الثامنة وصل القطار، وصعدت الى حجرتي في عربة الاسرة، وانطلق بنا القطار وسط الظلام المطبق في الطريق الى بلغراد.

■ **بلغراد، ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٤٢**

استيقظت في الصباح الباكر على صفير القطار وهو يدخل بنا محطة

بلغراد التي مررت بها قبل بضعة اسابيع وعلمت ان القطار سيبقى زهاء ساعة، فاغتنمت الفرصة لزيارة الرفيق الاخ رشاد بربير، الذي كانت الاقدار قد القت به في العاصمة الصربية. وخرجت من المحطة فما كدت اطل على المدينة حتى شعرت بالفرق الهائل بين بلغراد المحتلة وزغرب المستقلة، ولو بالاسم. زغرب لا تزال تبسم للعهد الجديد وتنعم بحسنات السلم، اما بلغراد فقد مرت عليها الحرب فتركت عليها طابعها الكئيب الكريه من خراب وجوع وعري وجفاء واضطهاد واحتلال.

سألت عن سيارة، فضحك موظف المحطة وقال:

- لم نر اي اثر للسيارات المدنية منذ الحرب (في نيسان / ابريل ١٩٤١)، كما ان الترام الذي يصل المحطة بالمدينة لا يزال معطوباً. اما عربات الخيل فإنها نادرة جداً لأن البشر هم احوج الى الشعير من الحيوانات!

ورحت على الاثر اسير على قدمي نحو المدينة، والساعة لما تبلغ السابعة والنصف بعد. كل ما تقع العين عليه يوحي الحزن والالم. شوارع مقفرة، واجهات المحلات خاوية خالية، ملابس الناس بالية، ووجوههم صفراء هزيلة. وما كدت اتوغل في المدينة حتى بدأت ارى آثار الغارات الجوية الالمانية: هو ذا دار المجلس جدراناً متداعية، هو ذا الطابق الاعلى من القصر الملكي مهدماً، هي ذي المباني الضخمة مخترقة. حقاً ان الهزيمة ثقيلة الوطأة غالية الثمن!

ووفقت بعد بحث دقيق طويل الى العثور على مسكن رشاد، فأخرجته من فراشه، وكانت مفاجأة سارة له. وراح رشاد يحدثني عن المصاعب المعيشية في العاصمة الصربية، وتعذر الحصول على المواد الغذائية الا بصعوبة شديدة.

وكان الوقت قصيراً جداً. فرافقني رشاد الى المحطة بعد ان اطعمني ملعقة من اللبنة، وهي اعز ما يملك في تلك البلاد التعسة. وفي الساعة الثامنة اقلع بي القطار من محطة بلغراد قاصداً الحدود البلغارية.

■ صوفيا، ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٤٢

ما اعجب الطبيعة وابهاها! قبل اسابيع قليلة، اجتزت هذه الاراضي، فوجدتها قفراء، يكسوها ثلج كثيف، ويزيدها بشاعة على بشاعة. اما اليوم فقد ذاب الثلج وانكشف عن خضرة تملأ النفس بهجة واملا.

ما كاد القطار يغادر بلغراد، ويدخل منطقة السهول الصربية، حتى شعرت بارتياح شديد. لقد اقتربت اخيراً من هدفي الموقت بعد ان قاسيت الأمرّين في سبيل الوصول اليه.

وانتقلنا من السهول الى الجبال وعاد القطار يمر وسط الممرات الضيقة، وسط اعشاش من الاسلاك الشائكة والرشاشات المنصوبة في كل اتجاه.

وفي الساعة الخامسة بعد الظهر وصلنا محطة بيروت، محطة الخروج من صربيا والدخول الى بلغاريا، فجرت معاملات التفتيش بسرعة البرق. في الجهة الصربية يقوم الجيش الالماني نفسه بالرقابة، لأنه هو المسيطر وحده على صربيا، ولا دخل للمدنيين قط في تسيير امورها. اما في الجهة البلغارية، فيقوم البلغار انفسهم بالرقابة بمساعدة الالمان.

الزهو الذي ودعته في كرواتيا لتحل الكآبة محله في صربيا، قد وجدته ظاهرا على وجوه البلغار. لقد كانوا قبل هذه الحرب دولة صغيرة مجزأة، فاستعادوا سنة ١٩٤٠ مقاطعة دوبروجه من رومانيا، واستعادوا بعد الهجوم الالماني في البلقان سنة ١٩٤١ مقاطعة تراقيا المطلة على بحر ايجه من اليونان، ومقاطعة مقدونيا من يوغوسلافيا، فعادت «بلغاريا الكبرى» الى الوجود بالحدود التي نصت عليها معاهدة سان ستيفانو سنة ١٨٧٨. وشعر البلغار للمرة الاولى في حياتهم انهم حققوا اعظم امانيهم، وانهم اصبحوا الدولة الكبرى المرموقة في البلقان، الدولة التي ستسيطر على مصير اوروبا الجنوبية الغربية كلها في حالة فوز المحور.

ذلك كان هو الشعور السائد في بلغاريا يوم دخل بي القطار في الساعة الثامنة مساء الى محطة عاصمة صوفيا.

ونزلت من القطار باسماً وانا اجهل ان القدر سيربط مصيري بمصير هذه البلاد طيلة ثلاث سنوات!

بهذا الفصل ينتهي الجزء الاول

الجزء الثاني الذي لم يُكتب

وصلنا مع كامل مروة في الفصل الماضي الى صوفيا، ولم يمض من رحلته سوى ثمانية اشهر. وبذلك انتهى الجزء الاول من «بيروت - برلين - بيروت» حسبما ورد في العدد الرقم ١٦٨ من «الحياة» في ١٠ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٦، والذي جاء فيه ايضاً «ان رئيس التحرير (مروة) سيعود الى كتابة الجزء الثاني في وقت لاحق».

غير انه لا اثر لهذا الجزء في اي من الاعداد اللاحقة من «الحياة» من منتصف الاربعينات حتى منتصف الستينات، تاريخ اغتيال كامل مروة. كذلك يُستبعد ان يكون الجزء المفقود نُشر، اذا كان كتب فعلاً، في مطبوعة غير «الحياة».

فماذا حدث لكامل مروة اثر وصوله الى صوفيا ربيع ١٩٤٢؟ وكيف امضى الاعوام الثلاثة حتى اواخر ١٩٤٤ عندما عاد الى بيروت؟

* * *

كانت الحرب، حتى العام ١٩٤٢، تدور على تخوم الامبراطورية

المحورية، في القفار الروسية والصحارى الافريقية والبحار البعيدة. وبالتالي لم يكن ما رواه كامل مروة في الجزء الاول من رحلته الى برلين سوى وصف للهدوء الذي يسبق العاصفة عادة. اذ ما لبثت الحرب ان انتقلت الى داخل اوروبا لتبدأ مراحلها الحاسمة. وقد كلف انتصار الحلفاء على الرايخ الثالث ملايين الضحايا، واضعاف اضعافها من الجرحى والمشردين. وادى الى تدمير البنية التحتية لقارة بأكملها. وما زالت الاعوام الاخيرة للحرب العالمية الثانية تعتبر افظع ما عرفته البشرية في هذا القرن.

لكننا لا نعرف عن مشاهدات كامل مروة اثناء تلك الحقبة الدموية سوى ما دونه في مفكرته الشخصية (*) وما كتبه في رسائل الى رفاقه المقيمين في تركيا (ولا سيما منهم الاستاذ اكرم زعيتر الذي كان منفياً في الاناضول).

ويظهر في تلك المصادر ان كامل مروة اتخذ من صوفيا مقراً له،

(*) جاء في مفكرة كامل مروة:
- بلغت صوفيا في ٢٦ نيسان (ابريل) ١٩٤٢ واتخذتها مقراً دائماً لي، حتى كُتبت لي مغادرتها عائداً الى الوطن في ١٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٤. وفي اثناء هذه الاقامة الطويلة قمت بالرحلات التالية:
- في ١٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٢ سافرت بالقطار الى بودابست عن طريق بلغراد بلا توقف فبلغتها بعد ظهر ٢٠ منه. وقد قضيت في بودابست عيد الميلاد نازلاً في فندق «هنغاريا». ومساء ٢٥ كانون الاول (ديسمبر) ركبت القطار الى بوخارست فوصلتها في اليوم التالي ونزلت في فندق «اتنيه بالاس». وفي ٢٩ منه عدت الى صوفيا بالقطار.
- في ٨ آذار (مارس) ١٩٤٣ سافرت بالقطار قاصداً الى برلين، وقد توقفت نهاراً في بلغراد وساعة في بودابست، فوصلت العاصمة الالمانية صباح ١١ منه وحللت في فندق «روسيشر هوف». وقد عدت الى صوفيا بعد اسبوع ونيف. وفي الاياب توقفت ثلاثة ايام في براتسلافا عاصمة سلوفاكيا ويوماً في بودابست وآخر في بوخارست.
- في ايار (مايو) ١٩٤٣ زرت بوخارست وقضية فيها يوماً واحداً عدت على اثره الى صوفيا.
- في منتصف تموز (يوليو) ١٩٤٣ سافرت بالطائرة رأساً الى برلين بلا توقف فبلغتها بعد الظهر وحللت في فندق «ايدن». بعد ثلاثة ايام سافرت عائداً الى صوفيا ماراً ببرسلو وكاتوفيتش ولمبرغ. عند دخولي بسارابيا انزلني الرومانيون ثلاثة ايام في اوراشيني قرب تشرنوفيتش. ثم استانفت السفر بالقطار الى بوخارست عن طريق بلوشتي، فقضيت يوماً في فندق «اتنيه بالاس» وسافرت بالطائرة عائداً الى صوفيا.
- في اواخر ايلول (سبتمبر) ١٩٤٣ سافرت الى بوخارست وقضيت ثلاثة ايام في «اتنيه بالاس».
- في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ سافرت الى برلين بالطائرة متوقفاً ليلة في فيينا وبضع ساعات في درسدن. قضيت اسبوعاً في برلين ثم غادرتها بالقطار في ٢٢ منه الى بودابست حيث قضيت ثلاثة ايام في فندق الـ «ريتز» ثم سافرت الى بوخارست حيث قضيت ليلة في فندق «سبلانديد»، وعدت الى صوفيا.
- في ١٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٤ جرت اول غارة اميركية كبرى على صوفيا تعاقبت على اثرها الغارات. وفي مساء ١١ منه هجرت العاصمة، فلجأت اولاً الى قرية فرانتشيش وسط جبال البلقان حيث ==

واسس مركزاً اعلامياً فيها مرتبطاً بمكتب الدعاية العربية في برلين (الصوت الرسمي للعرب المتحالفين مع دول المحور). ولكن مع حلول العام ١٩٤٣، تبين ان القضية العربية ومسألة انهاء الانتدابات الفرنسية والايطالية والبريطانية في العالم العربي باتت لا تحظى باهتمام الالمان. فكتب الى رفيقه اكرم زعيتر يقول «لقد وُضعت (القضية) على الرف بصورة حاسمة جازمة. منذ شهرين جرت محاولة لاستخراج تصريح (الماني) واضح (في شأنها)، فباءت بالفشل الشديد، وتبين ان العروض (المحورية) الجديدة كانت ادنى بكثير من عروض الماضي. وقد بتُّ مؤمناً بأن النيات ما كانت يوماً من الايام حسنة. ولا اكتمك ان ضميري لم يعد مطمئناً لا الى الحاضر ولا الى المستقبل من ناحية هذه النيات».

وقد زار كامل مروة برلين ثلاث مرات في ١٩٤٣، للتنسيق مع الحاج امين الحسيني ومستشاريه في شأن السياسة العربية المحورية. وتولى مهمة الترجمة في لقاءات المفتي والمسؤولين الالمان. كما جال على عواصم دول اوروبا الوسطى للتعرف اليها واستكشافها.

في تلك الاثناء واصل الحلفاء تقدمهم على كل الجبهات في اوروبا، وفي مطلع ١٩٤٤ بدأت الغارات الاميركية الكبرى على صوفيا، فلجأ كامل مروة فترة الى احدى القرى البلغارية النائية في وسط جبال البلقان، ثم عاد الى العاصمة البلغارية صيف ١٩٤٤ بعد انحسار القصف.

= قضيت ثلاثة ايام، ثم انتقلت الى بلدة بوتفغراد وبقيت فيها حتى آخر ايار (مايو) ١٩٤٤ اذ عدت الى صوفيا وسكنت في منزل في شارع كوزلودوي ٦ في غورنابانسكي بت (بافلوفو).
من الاماكن التي زرتها اثناء اقامتي في بلغاريا بلونديف وروسه وبراستوفتسا وتشام - كوريا وساماكوف وفراتزا، الخ.

- في اواخر ١٩٤٤ انسحب الجيش الالماني من بلغاريا وتولت الجبهة الوطنية الحكم في ٩ ايلول (سبتمبر)، ثم دخل الجيش الاحمر البلاد.
- في ١٨ تشرين الاول (اكتوبر) غادرت صوفيا بالقطار قاصداً الى تركيا فبلغت استانبول صباح اليوم التالي.
- اقمت شهراً ونيفاً في استانبول، وفي صباح ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) ركبت القطار عائداً الى الوطن، فبلغنا ميدان اكبس (على الحدود التركية - السورية) عند منتصف ليلة ٢٥ منه. وهناك اعتقلت وبلغت حلب في الصباح. وفي المساء نفسه نقلت على متن سيارة الى بيروت فوصلتها في الساعة الرابعة من صباح ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٤، حيث اودعت المعتقل (الفرنسي) في الخندق الغميق. وقد اطلق سراحي في ٣ شباط (فبراير) ١٩٤٥، وهكذا عدت الى بيتي بعد غياب ٤٠ شهراً.

لكن الضغط العسكري المتواصل للحلفاء ما لبث ان نجح في دفع الجيش الالماني الى الانسحاب من بلغاريا في نهاية ١٩٤٤، فدخلها الجيش الاحمر. وكان الاحتلال الشيوعي للبلاد دموياً جداً، ووصفه كامل مروة في آخر رسالة له الى زعيتر قائلاً: «والله لو عاش عمر ابن ابي ربيعة تحت الثورة الحمراء اسبوعاً (لا ستة مثلي) لراح يفتش عن الدير لا عن القمر. ولو وضعت سنيّ غربتي كلها في كفة وتلك الاسابيع في كفة اخرى لرجحت الاخيرة! وانها لأمانة في عنقي ان احمل الى قومي صورة صادقة عما رأيت، ففي ذلك عبرة دهر بأسره».

وقد اقتفى الجيش الاحمر وحلفاؤه من الشيوعيين البلغار اثر كل من كانت له علاقة مع المحور، ووقعت مذابح مريعة في كل انحاء البلاد، فُقد في احداها الصحافي اللبناني محيي الدين الطويل. غير ان معظم المنفيين العرب تمكن من الهرب الى تركيا مشياً، وكان بينهم كامل مروة.

* * *

في ١٩٥٩، اي بعد ١٥ عاماً من مغادرته اوروبا طريداً، قام كامل مروة بزيارة قصيرة لبرلين لكتابة تحقيق صحافي عن آثار التقسيم فيها، فرصد ما هي عليه مقارناً ما كانت اثناء الحرب، وعاد بمجموعة مقالات نُشرت تباعاً في «الحياة»، وكانت بمثابة رحلة عبر الزمن الى تلك المدينة الجبارة.

هذه المجموعة، هي «البديل الحقيقي» من الجزء الثاني الذي لم يُكتب، وتؤلف الفصول من ٣٢ الى ٣٦ من هذا الكتاب.



■ برلين، الساعة الثامنة من مساء ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣.

قبل دقائق، غادرت فندق «ايدن» في شارع بودابست، في طريقي الى محطة تسو، المجاورة، لأركب القطار الى مقري يومئذ، صوفيا، عاصمة بلغاريا.

جئت برلين، قبل ايام، في زيارة، فاستقبلني الرفاق بدهشة، قائلين:

– ماذا؟ أمجنون انت؟ ما جاء بك الى هنا في هذه الايام؟

كانت قنابل الحلفاء قد بدأت تنهمر على العاصمة الالمانية: الاميركيون نهاراً، والانكليز ليلاً، تزرع الموت والدمار على غير هدى. ولكن في نهاية الصيف انقطعت الغارات تقريباً، ثم استؤنفت في مطلع الخريف على نطاق ضيق. وكان الشعور سائداً في برلين، ان الشر الأكبر ما زال في طي الغيب، ولكنه آت لا ريب فيه...

وهكذا، لما وصلت الى برلين في منتصف تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣، كانت الاعصاب متوترة، والجو مشحوناً بالقلق. وكانت الانذارات

الزاعقة تترى منذ مغرب الشمس، توقظ الناس مراراً في الليلة الواحدة، وترسلهم يتدافعون نحو الملاجئ.

اما انا، فلم اكن لاهتز في سرير في فندق «ايدن». لقد رأيت اثار القنابل في بعض احياء برلين، ولكنني لم ارها قبلا تهطل، لأفقه معنى هذا الانطلاق الجماعي نحو الملاجئ...

وسمعت ذات صباح خادمتين في الفندق تتحدثان عني، وعن استسلامي للنوم رغم الانذارات، فتقول الاولى: «انه حقاً شجاع!».

وتهز الثانية كتفها وتقول: «كلا، انه ابله... او لعله مرشح للانتحار!».

ولكن، حقا، لم اكن لا هذا ولا ذاك. كنت بكل بساطة اجهل - بعد - معنى الغارات الكبرى. الم يقل المثل العربي العامي: «من لا يعرف المغراية... لا يعرف الحكاية»؟

عشية ذلك اليوم، اي الثاني والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣ - وكيف انساه؟ - ودعت الرفاق في الفندق، قاصداً الى محطة تسو المجاورة، اي محطة «حديقة الحيوانات» وهي اكبر حديقة من نوعها في اوروبا، ويحمل اسمها حي تزيد مساحته وسكانه عن بيروت اليوم، وفي شارع كورفور ستندام الشهير، الذي يحوي في ثلاثة كيلومترات مستقيمة على عرض ستين مترا، افخم وابهى متاجر العاصمة الالمانية.

من محطة تسو، كان ينطلق - ويمر - كل يوم اكثر من اربعمئة قطار، في مختلف الاتجاهات. وما ان صعدت السلم في تلك العشية نحو ساحة المحطة، وكانت تموج بالمسافرين، حتى زعقت صافرات الانذار. وقبل ان اعي تماما ما حدث، رأيت الساحة قد خلت الا من القطر الفارغة، وبقيت واقفاً وحدي على الرصيف، اتطلع يمينا ويسارا!

خطر لي ان التحق بالناس نحو الملاجئ، ولكنني كنت اقول في نفسي بكل سذاجة: بعد دقائق يمر قطاري... فكيف ادعه يفوتني؟

وما هي الا لحظات، حتى سمعت الانفجارات تتجاوب من كل جهة. انها المدافع الجوية المنصوبة حول المحطة، ترسل حممها نحو الجو، مما

يدل عند العارفين – لا عندي بعد – ان الطائرات اقتربت، وان القصف يوشك ان يبدأ!

لقد كان الانكليز في تلك الساعة، على ميعاد مع هذا الحي بالذات من برلين، في اكبر غارة وقعت على العاصمة منذ بداية الحرب، وما تزال الى اليوم تحتل مقامها اللائق في قائمة الغارات الكاسحة.

ومن خلال دوي المدافع، بدأ ازيز الطائرات يصل الى اذني جلياً، ثم اخذت القنابل تنهمر: انها جهنم فتحت ابوابها...

الآن فهمت مخاوف الرفاق، وتدافع الناس نحو الملاجئ في الغارات. فهمت، ولكن بعد فوات الأوان...

رحت اركض على غير هدى، ولكن الى اين؟

اين هي الملاجئ؟ اين هي الطريق؟ لقد انطفأت الانوار، وغلب دخان الانفجارات وغبار الدمار على لمعان القنابل، من صاعدة ونازلة.

الانفجارات تترى من كل جهة، والحرائق تبدأ في كل مكان، تشعلها مئات الالوف من قنابل الفوسفور المتساقطة.

كنت اعدو بكل قواي، ورائحة الزرنيخ تكاد تخنقني، والدخان يتكاثف، والشظايا تتساقط حولي، والمباني – وكلها مشيدة بالقرميد – «تكر» كورق اللعب، بفعل ضغط الهواء الذي يعقب الانفجارات.

لمحت بعيداً شبح بناء شاهق التف الدخان حوله، فعرفت فيه برج الكنيسة التذكارية للامبراطور غليوم، وهي واقعة عند مدخل شارع كورفور ستندام، فاندفعت نحوها انشد فيها ملجأ...

لقد انقطع سقوط القنابل، وابتعد دوي الانفجارات قليلا، مما يدل على ان موجة الطائرات قد مرت، ولكن الحريق اخذ في الامتداد. النيران تشتعل في المباني على الصفين، وانوارها تحيل الظلمة جهنما، وترسل الحمم كالبراكين!

ما زلت اركض وسط صفين من الحرائق. لاحظت انني لم اعد وحدي في الشارع، فهناك كثيرون يركضون مثلي، لقد خرجوا من ملاجئ المباني

التي اشتعلت فيها النيران، ينشدون السلام في سواها.

وأخيراً بلغت الكنيسة. انها واقعة وسط ساحة كبرى، بعيدة قليلا عن المباني المشتعلة، فوقفت في فجوة باب مقفل، وانكمشت في زاويته، احاول ان استعيد حرية تنفسي.

الآن اشعر انني ارتجف كالريشة، وانا انفض ما تراكم على معطفي ورأسي من رماد. وحانت مني التفاتة الى الامام، فجمدت مكاني من عظمة المشهد الذي رأيت: النار تعم البقعة كلها، والسنة اللهب تتصاعد من جانبي شارع ايدن، ثم تتلاقى في عقد هندسي معقوف، تستحيل بعده غيوما داكنة من الدخان.

يا الله، ما افظع هذا المشهد وما اروعه!

الآن أفهم لماذا عبدوا النار في القدم! الآن أفهم لماذا كان عذاب الجحيم نارا لا بردا!

واغمضت عيني، وأخذت ابكي...

* * *

هذا المشهد ذاته، تمثل امام نظري يوم الخميس الماضي، وانا اقف، مرة اخرى، امام كنيسة الامبراطور غليوم في برلين، على نفس المكان الذي وقفت عليه في تلك الليلة المشؤومة.

كانت فصوله تكر في خاطري ببطء، بعد مرور ١٦ سنة عليه، فلم استطع، هذه المرة ايضاً، ان احبس دموعي.

الباب الذي لجأت اليه سنة ١٩٤٣، لم يبق له اثر، اذ ان الغارات مرت فيما بعد على الكنيسة، فهدمتها، واحرقتها، ولم يبق منها اليوم سوى كتلة من الاطلال، ما يزال البرج المخرب منتصبا وسطها، شاهدا على المأساة!

رحت اقتفي الطريق التي سرتها عشية تلك الليلة السوداء من الكنيسة الى المحطة، الى الفندق، واحاول ان استعيد في ذاكرتي صورتها الاولى، فلم اجد منها سوى خرائب فندق «ايدن»، ما تزال الى اليوم على حالها.

ما عدا ذلك، امتدت «الاعجوبة الالمانية» الى تلك الشوارع، فمسحت

خرابها، وشيدت في سنوات دنيا جديدة تتحدى الماضي، بل والمستقبل!

تلك هي قصة شخص واحد، في غارة واحدة، في برلين.

اضرب أيها القارئ، هذا الرقم بخمسة ملايين شخص، وبعشرين الف غارة تفهم قصة برلين.

وها أنذا مرة اخرى في برلين، احاول ان اتتبع الفصل الجديد من القصة...



■ برلين، شباط (فبراير) ١٩٥٩

ما ان تطأ قدماك ارض برلين، حتى ينكشف امامك وضعها الشاذ، منذ اللحظة الاولى.

هذا هو مطار تمبلهوف الضخم، بمبانيه الجبارة. انه معد ليكون اكبر مطار في اوروبا. ولكن برلين المحتلة، لا تستطيع ان تستخدم ممكناته كلها. الطائرات التي تحط فيه معدودة، لذلك بقيت اكثر مدارجه مقفلة، ومبانيه فارغة.

وما ان تخرج من باب المطار لتركب السيارة، حتى تطالعك التجزئة، فترى النفق الذي كان يمر فيه «مترو» تحت الارض امام المطار مقفلا، والخطوط مقطوعة، لأن المطار واقع في برلين الغربية، والقطار يذهب من هنا نحو القطاع الشرقي.

ثم، ارأيت، أيها القارئ، بيروت في ايام الثورة (١٩٥٨)؟ أرأيتها يوم الاحد في الصيف، بعد الظهر؟ الصورتان مجموعتان معا، تعطيان فكرة عن

وجه برلين في هذه الايام.

كان عدد سكانها قبل الحرب يتجاوز الخمسة ملايين وربع المليون وعند اقتسام العاصمة سنة ١٩٤٥ بين الظافرين، كان عدد سكان القطاعات الغربية ادنى من مليونين، والقطاع الشرقي زهاء مليون. اما الباقون فقد تبخروا بين ضحايا ولاجئين ومهاجرين. ولكن مع الزمن، عاد السكان يتكاثرون، وهم اليوم مليونان وثلث المليون في القطاع الغربي ومليون وربع المليون في القطاع الشرقي.

وكانت نسبة الخراب سنة ١٩٤٥ تقارب ٩٣ في المئة. وقد اعيد حتى الآن بناء نصف برلين الغربية، وفي سنة ١٩٦٠ يتم بناء ٦٠ في المئة منها. ولكنك مع ذلك تشعر بفراغ كبير في كل حي، وفي كل شارع.

الرصيف المعد ليسير عليه الف شخص، يسير عليه نصفهم. والساحات التي كانت تعج بعشرات الالوف، ما تزال نصف خالية.

ولكن، اذا كان المليونا برليني لا يملأون عاصمتهم حجما، فإنهم يملأونها عزما. انك لتراهم يسيرون الى اعمالهم بجد وعبوس. وترى سحنتهم البروسية، ذات الفك العريض تفيض نشاطا وصلابة.

انهم لا يجهلون وضعهم العجيب، ويعرفون ان برلين قد تتحول في اية لحظة الى ساحة حرب. قد تمحوها قنبلة هيدروجينية واحدة. قد يطبق عليهم الجيش الاحمر في اية لحظة. انهم محرومون من طمأنينة الاستقرار، ولكن، كما قال لي سائق التاكسي:

– ماذا نفعل؟ هنا ولدنا، وهنا عشنا، فلن نترك مدينتنا، بل سنموت فيها..

وكأنه ادرك ما يجول في خاطري، فاستطرد قائلاً:

– سلما او حربا!

واول ما يحاول الغريب ان يستطلعه، هو شعور البرلينيين حيال التطورات المرتقبة. وفي هذا تصل، بعد السؤال والاستقصاء، الى نتيجة مزدوجة:

١ – يشعر البرلينيون انهم «ليسوا وحدهم»، وهم واثقون من ان حكومة بون لن تتخلى عنهم، ولن يتخلى الحلفاء الغربيون عن حكومة بون، بعد ان اصبح الجيش الالماني الجديد حقيقة واقعة. ولعله لا يوجد في العالم كله بلد ارتفعت فيه اسهم الاميركيين الى المقدار الذي ارتفعت فيه عند اهل برلين. فهم يعرفون ان القوة الاميركية هي عمادهم الوحيد في وجه القوة السوفياتية ويتصرفون عاطفيا وعمليا بموجب هذا الشعور.

٢ – ثم، يقول لك احدهم:

– لقد تعلمنا منكم، يا اهل الشرق، الاستسلام للقضاء والقدر. علمتنا اياه التجارب المرة، فليس في العالم كله بلد، حتى هيروشيما وناكازاكي، قاسى ما قاسينا اثناء الحرب، وبعد الحرب، وما نزال. اتظن انه بقي بعد هذا ما يخيفنا؟ اننا نريد ان تعود برلين عاصمة الدولة الالمانية الموحدة، والا فلنبق على حالنا. اما اذا حكم القدر بغير ذلك، فلن نبكي، ولن نهون، بل نتقبل حكمه ونتابع النضال من اجل كياننا وامانينا. وهل نستطيع اصلا غير ذلك؟

لا يوجد في برلين جيش الماني. وعدد القوات الغربية من اميركية وانكليزية وفرنسية، لا يزيد عن عشرة آلاف، يرابط اكثرهم على اطراف القطاع الغربي امام القطاع السوفياتي، انهم لا يستطيعون – حربيا – ان يقفوا ساعة في وجه القوات السوفياتية التي تطوق برلين من جميع الجهات. ولكن اية حركة في برلين، من الطرفين، معناها الحرب العالمية الشاملة. لذلك يكتفي الغربيون بما يسمونه «الوجود الرمزي».

وهذا الوجود الرمزي ليس عسكريا فحسب، بل هو ايضاً اقتصادي. ان برلين المجزأة لا تستطيع ان تعيل نفسها اقتصادياً بل تدعم مجهودها بالمساعدات التي يقدمها اليها الاميركيون، والنفقات الكبيرة التي تتحملها خزينة الدولة الاتحادية الالمانية.

واذا كانت نهضة المانيا الغربية هي اعجوبة الحيوية الالمانية، فإن نهضة برلين الغربية تمثل اعجوبة الارادة. ان مبانيها هي على افخم ما

يكون، ومتاجرها ملأى بأحدث المنتجات والبضائع، من كل شكل ولون، وفي منتهى الاناقة والكمال، مما يسترعي المقابلة آليا بين هذه الرفاهية الدافقة وبين التقشف القسري الذي ما يزال يسود برلين الشرقية.

وتتسابق الشركات الالمانية الكبرى على تشييد المباني الضخمة في كل مكان في العاصمة، حتى لو لم تكن مجدية اقتصاديا. انما تفعل ذلك للتدليل على ان الالماني ما يزال يعتبر برلين عاصمته، ويتعمد تغذيتها بأسباب الحياة الى ان تستعيد ذات يوم مقامها. وعلى اساس هذا الامل يجري العمل الآن بنشاط في اعادة بناء الـ «رايشتاغ» مقر البرلمان الالماني، لكي يكون جاهزاً، يوم تستعيد المانيا وحدتها.

منذ احترق الـ «رايشتاغ» في مطلع العهد الهتلري، ظل مهجوراً. ثم جاءت الحرب تجهز عليه. ولكن الاعمال الانشائية فيه سائرة بنشاط منذ عامين.

رأيت واجهتين من جانبي البناء الضخم، قد عادتا جديدتين، وفقا للهندسة القديمة ذاتها.

على واجهة المدخل الكبير ذي الاعمدة الضخمة، اعيد نقش عبارة «الى الشعب الالماني» كما نقشت شعارات الولايات الالمانية كلها، وبينها النسر البروسي. فوق المدخل، رأيت حرف «ف ١»، فسألت مرافقي: ما هذا؟

فأجاب: «فلهلم الاول»، اي الامبراطور غليوم الاول الذي بني الـ «رايشتاغ» في عهده.

قلت: ولماذا تذكرون الملوك وقد اصبحتم جمهورية؟

فأجاب: هذا واقع يخص التاريخ، ولا يخصنا. الم يجر تشييد البناء في عهده؟ ان ازالة اسمه هو تزوير على التاريخ!

ثم ابتسم وقال: بعد خطوات، سترى اننا لا نزوّر التاريخ، حتى بالنسبة الى ذكريات ليست جد عزيزة علينا...

وقادني مرافقي الى الممر الداخلي، وكان قد بقي سليماً رغم الغارات، فنقش الروس على جداره لوحة طويلة جداً، تشير الى الطريق التي سارها

الجيش الاحمر من ستالينغراد حتى برلين سنة ١٩٤٥، بالأحرف الكيريلية.
قلت: ماذا تقول هذه العبارات؟

فأجاب: انها تصف زحف «المحررين» الى برلين وبطولتهم.

ثم اضاف بسرعة: هذه اللوحة هي الأخرى ستبقى. نحن لا نزوّر التاريخ، بل نريد ان نعمله!

ولاحظت ان قبة المدخل قد اعيد بناؤها، هذه المرة بالاسمنت المسلح، وما تزال فيها فجوات معدة للسقف الزجاجي.

واخيراً بلغنا القاعة الكبرى، حيث كان يجتمع قبل العهد الهتلري ستمئة نائب، في صفوف مستديرة. انها ما تزال خرابا، ولكن العمل سائر في اعادة بنائها. قال لي محدثي:

– هذه المرة لن نعيد بناءها مستديرة، بل في صفوف مستقيمة متقابلة، لكي تجلس احزاب الحكومة في جهة، واحزاب المعارضة في الجهة الاخرى، وتجري المناقشات بشكل واضح حر.

وفيما نحن نتأمل القاعة، سمعنا جلبة، ثم دخل علينا وفد كبير، فانتظم مرافقي في وقفته، وقال لي:

– انظر! هذا هو الدكتور غارستنماير!

انه رئيس المجلس الاتحادي في بون، وقد جاء يتفقد الاعمال الانشائية في الـ «رايشتاغ»، مع بعض النواب من مختلف الاحزاب. وما لبث مرافقي ان قدمني اليه، فاستقبلني بلطف، وقال:

– من لبنان؟ لبنان... يا... يا... النظام ما يزال ديموقراطياً عندكم، اليس كذلك؟ حسنا فعلتم... حافظوا عليه، والا ندمتم كما يندم كل من يتخلى عنه!

قلت: ولكن الـ «رايشتاغ» يا سيدي لم يكن يوما من الايام مرتعا خصبا للديموقراطية الالمانية!

فأجاب: صحيح، لأن الديموقراطية هي بالرجال لا بالمباني. واليوم – لحسن الحظ – نضجنا بالتجارب، لذلك اصبحت ديموقراطيتنا اكثر رسوخا!

قلت له: متى تتوقع ان تعودوا الى الاجتماع هنا، في المانيا موحدة؟

فأجاب: اعرف اننا سنعود الى هنا، وان المانيا ستتوحد. والدليل على ايماننا اننا قررنا اعادة بناء الـ «رايشتاغ»، وانني قادم من بون خصيصا للاشراف على سير العمل!

وهنا تدخل في الحديث الهر فيلي هينيبرغ، رئيس مجلس نواب برلين الغربية، قائلاً:

– على كل حال سيجتمع في برلين، لا في بون، نواب المجلس الاتحادي، في شهر تموز (يوليو) القادم، لانتخاب رئيس الجمهورية القادم!

قلت: هل ستدعون نواب المانيا الشرقية الى الاجتماع؟

فأجاب: اعظم امنية لنا هي ان تنتخب المانيا الشرقية نوابها بحرية، وان يشتركوا معنا...

من الـ «رايشتاغ»، انتقلت نحو قصر المستشارية. انه واقع تماماً بين القطاع الغربي والقطاع الشرقي، ولكن القسم الاكبر منه ضمن الاخير.

ما يزال القصر اكواما من الحطام، عظيمة في خرابها كعظمة القصر في ذكرياته. ووراء القصر، رأيت مدخل الملجأ العميق الواقع تحت الارض، والذي انتحر فيه هتلر. ان المرء ليشعر بقشعريرة، وهو يمر وسط هذه الخرائب، التي طالما هزت العالم. فمن هنا تماما، من هذا القصر، بدأت «الدوارة» التي تجر التاريخ وراءها منذ سنة ١٩٣٩.

قلت لمحدثي: الا تعتزمون اعادة بناء المستشارية؟

قال: انها الآن في القطاع السوفياتي، والكلمة هنا ليست لنا. ثم لا حاجة لنا بالمستشارية اذا لم تتوحد برلين، والمانيا كلها.

الوحدة! الوحدة! انها على كل شفة ولسان، وفي كل حركة وخطوة.

يقول الكاتب الفرنسي جورج ريفيير في تعليل الحيوية الالمانية ان الالماني يملك في خلاياه حيوية تفاعل يمتاز بها على اي شعب آخر!

ومما لا ريب فيه ان كلمة «الوحدة» تفعل في تلك الخلايا اليوم، اكثر من اي وقت مضى!

٣٤

■ برلين، شباط (فبراير) ١٩٥٩

قالت لنا المضيفة المكلفة بمرافقة الوفد الصحافي اللبناني:

– هيا بنا نقوم بنزهة في ضاحية برلين...

كانت الساعة العاشرة صباحاً، والحرارة ٧ تحت الصفر، والجليد ينهمر على شكل ملح دقيق، فتطلع كل منا بالآخر، يستمد الشجاعة منه...

ولكن، ما دام المنهاج ينص على هذه النزهة، وعلى تناول الغداء في مطعم واقع ضمن غابات غرونافالد الشهيرة، فلا بد اذن من النزهة!

هكذا صعدنا الى السيارة بخطى متثاقلة، ولما عدنا من النزهة بعد الغداء، كنا نشعر اننا كنا خسرنا كثيراً، لو لم نقم بها!

مرت بنا السيارة في الطريق نحو الضاحية، على جامعة برلين الغربية الجديدة. ان مباني الجامعة الكبرى العريقة تقع في القطاع الشرقي، فانتقل على الأثر اكثر الاساتذة الى القطاع الغربي، وانشأوا جامعة جديدة، ضمن عدد من الدارات الصغيرة. وفي سنة ١٩٥٠ بدأ تشييد المباني الجامعية

الضخمة وسط تلك الدور، حتى اصبحت الجامعة اليوم تنتشر مسافة كيلومتر على الاقل، وتتألف من قصور ودارات ومبان معشّرة الطوابق، وتشمل حيا كاملا، شبيها في تنوعه بحي الصنائع - رأس بيروت.

وبعد ذلك انطلقنا نحو الضاحية، وسط هذه الغابات الواسعة الفسيحة التي اشتهرت بها برلين، والتي ما تزال جميع العواصم العربية محرومة منها حرمانا يشهد بتأخرنا في تفهم ضرورات الحياة المدنية.

ثم سرنا على محاذاة بحيرة فان زي وقد تجمد سطحها، واندفعنا نحو حي تسالندورف الجميل، الذي كان يسكنه سماحة مفتي فلسطين الحاج امين الحسيني والسيد رشيد عالي الكيلاني ايام الحرب.

وفيما نحن ندرج على اوتوستراد عريض، لمح السائق امامه لوحة تقول: «انك تغادر القطاع الاميركي لتدخل المنطقة السوفياتية!».

وتوقف السائق حالا، ونزل يبحث في حدود المنطقة، فلم ير امامه على الطريق اي حاجز او دليل الى الحدود، فحك رأسه وقال:

- اسمحوا لي ان استكشف قليلا... ان دخولنا الى المنطقة السوفياتية خطأ قد يجر علينا وجع رأس...

وهنا يجب ان نذكر ان برلين الغربية تحاذي من جهة برلين الشرقية، والتجول بين القطاعين حر تماما (*). ولكن برلين الغربية تحاذي من جهة اخرى المنطقة الشرقية التي تقوم فيها «الجمهورية الديموقراطية»، والدخول اليها محظر الا باجازة.

وبحث سائقنا طويلا، فلم يجد شيئا، فقال:

- الافضل ان نعود...

وفيما كان يصعد الى السيارة، تأمل قليلا في المنطقة، ثم ضحك وقال:

- ها هي! ها هي المنطقة الشرقية!

(*) يذكر ان التجول بين قطاعي برلين حُظر في ١٩٦١ بعد تفاقم عمليات الهروب الجماعية للالمان الشرقيين الى الغرب. وبوشر في بناء جدار برلين في آب (اغسطس) من العام نفسه.

ذلك ان المنطقة الشرقية لا تبدأ في مكان ما وسط الطريق، بل تحاذيها. لقد كنا ندرج على محاذاتها طول الطريق. انها تبدأ عند رصيف الطريق الايسر، اي ان الطريق ذاتها تابعة لبرلين الغربية، بينما الرصيف الايسر تابع للمنطقة الشرقية!

هذا التقسيم يعطي القارئ مثلا على ظلم التجزئة وتفاهتها. انه شبيه بالتجزئة القائمة على خط الهدنة في القدس.

ولم يتمالك السائق ان يقول:

- أرأيتم؟ لقد قسموا حتى الطرق والبيوت... ولكن الشعوب لا تتجزأ... ولا يستطيع احد ان يفصل بيننا وبين اخواننا...

ولا اعتقد ان احدا في العالم قادر كالعربي على ادراك معنى التجزئة، فنحن نقاسي المحنة ذاتها!

وطلبنا الى السائق ان يقودنا الى نقطة ما على الحدود بين برلين الغربية والمنطقة الشرقية، فارتد على الطريق وسار بنا الى مخفر مجاور، قائم امام حاجز من الاسلاك الشائكة، يمتد الى ابعد مما ترى العين.

الحدود تمر هنا على محاذاة خط حديدي كان يصل بين برلين الغربية وبوتسدام، فقطعته التجزئة.

ونزلنا من السيارة، وتقدمنا الى الممر الصغير القائم وسط الاسلاك الشائكة، ووقفنا امام مسامير كروية مزروعة في الارض، تحت لوحة تقول: «هنا الحد الفاصل بين القطاع الاميركي والمنطقة السوفياتية».

امامنا تماماً مخفر تابع لالمانيا الشرقية، يحرسه شرطي الماني. لوحنا له بأيدينا، فرد بالمثل.

ولم يكن المشهد بحاجة الى اي تعليق: شرطي الماني غربي، امام شرطي الماني شرقي: جنس واحد، لغة واحدة، بلد واحد، ارض واحدة. ولكن الحد الفاصل ليس المانيا. انه اميركي هنا، وروسي هناك!

وقالت لنا الدليلة: ما رأيكم في زيارة احد مخافر «الالتجاء»؟

وبعد لحظات كنا ندرج بالسيارة، نحو نقطة من نقاط الحدود في برلين

الغربية، حيث يصل عادة اللاجئون من المنطقة السوفياتية، ويجري التحقيق الاولي معهم.

وصلنا الى المخفر، في اللحظة التي كان يدخل فيها اليه من بابه الآخر ثلاثة لاجئين: امرأتان ورجل.

ويتدفق على برلين الغربية كل يوم عدد يراوح بين مئتين واربعمئة لاجئ، فيجري معهم تحقيق تمهيدي قبل ارسالهم الى المعسكر الرئيسي. وبعد ذلك تعطى لهم حرية الاقامة في برلين الغربية، او الانتقال الى المانيا الغربية. اما كيف يجتازون الحدود، فهذا خارج عن نطاق بحثنا.

بدأ مفوض المخفر التحقيق اولاً مع الامرأتين. انهما ام وابنتها، الفتاة في العشرين من عمرها، قالت ان البوليس الشرقي، في زيارة تفتيشية، عثر عندها على صور بعض الممثلين من المانيا الغربية، فاعتبر ذلك دليلا على وجود انحراف سياسي فيها، واخذ يراقبها. ثم تحولت المراقبة الى ازعاج، وامتد الازعاج الى والدتها، وهي خياطة، فلم يعد الزبائن يجرأون على ارتياد محلها، فانقطع رزقها، فلم تجد الأم والفتاة في النهاية بداً من الفرار!

اما الرجل، فهو طحان متجول، يطوف على دراجته، جارّاً وراءها الطحانة. لما اراد اجتياز الحدود قبل دقائق، اوقفه البوليس الشرقي طالباً الاجازة، فاغتنم انشغاله في مراجعة تذكرته، واندفع بدراجته، مجتازاً الامتار القليلة التي تفصله عن المخفر الغربي.

واستغربنا ان يستطيع ذلك، من دون ان يطلق عليه البوليس الشرقي النار. ولكن المفوض لم يستغرب، لأنه يعرف بالتجارب اليومية ان البوليس الشرقي هو الآخر الماني، ويغمض عينيه في اكثر الاحيان عن مرور اللاجئين، وان كان يحدث من آن الى آخر ان يطلق النار على احد المارة.

ويذوب اللاجئون عادة في المنطقة الغربية، وتعطى لهم تسهيلات في تأمين المسكن بأجور زهيدة. غير ان عشرات الالوف منهم يفضلون عادة الاقامة في معسكرات محاذية للمنطقة السوفياتية، على مقربة من الديار

التي نزحوا عنها.

وقد شاهدنا معسكرا من هذا النوع في بلدة لوبيك على بحر البلطيق، قائما على خط الحدود تماما، ويسكن فيه اللاجئون منذ قدومهم، وقد تحول مع الزمن الى بلدة كبيرة. ويمارس كل منهم صنعته في بيته الموقت، في انتظار اليوم الذي يعود فيه الى بيته الاول.

ولم اتمالك المقابلة بين هذا المعسكر، ومعسكرات اخواننا من اللاجئين الفلسطينيين، وان اشعر بغصة.

ليت الحكومات العربية، او الجامعة، توفد بعثة الى هذه المعسكرات الالمانية، تدرس احوالها، وتقتبس عنها الاساليب التي تجعل من المعسكرات قفير عمل وانتاج، ومعرض تنظيم ونظافة...

٣٥

■ برلين، شباط (فبراير) ١٩٥٩

لعل اكثر ما يؤذي الالماني، هو ان تجري هذه الحوادث الدولية الكبرى في صدد برلين من فوق رأسه، بل ومن فوق ظهره!

انه يعرف انه هو الغنيمة التي يتصارع عليها الطرفان، ويعرف ان الازمة ناشئة لأن كل جانب ليس قانعاً بما يسيطر عليه من المانيا، بل ينشد المزيد!

وهنا يحدثني «سناتور» برليني، أي احد اعضاء مجلس الشيوخ، فيقول:

- ان ما يفهمه الروس والغربيون حتى الآن، هو اننا لسنا لقمة سائغة. نحن لقمة قد تؤكل، ولكن يستحيل على احد ان يهضمنا!

ثم راح يبسط رأيه في تحليل النزاع الجديد، فقال:

- كل صراعهم علينا بعيد الحرب لمنافع سياسية واقتصادية وعلمية. اما اليوم فقد اصبح لغاية حربية. لقد بدأ الجيش الاتحادي يصبح قوة

يحسب لها حساب. والروس يريدون هذه القوة معهم، او لا يريدونها اطلاقا، بينما يريد الغربيون ان تظل هذه القوة الى جانبهم. ولكن ايظن هؤلاء او اولئك انهم يستطيعون ايجاد اي حل، نعم أي حل، للمشكلة الالمانية على اساس تقاسم المنافع؟ ان موسكو لن ترتاح، حتى ولو فازت وجهة نظرها، وكذلك الغرب. والحل الاوحد هو ترك المانيا حرة، تقرر وحدها مصيرها. صدقني ان اي محذور يترتب على استقلال المانيا الموحدة بأمورها، هو ارخص ثمنا على الدول الكبرى وعلى العالم، من استمرار هذا التصارع بين المعسكرين!

قلت: ولكن لا هؤلاء ولا اولئك يأمنون جانبكم!

فقال: وهل امنوا جانبنا وجانبهم بالوضع الراهن؟ ان الوضع الراهن يعرض السلم للخطر مئة مرة اكثر مما لو تركونا وحدنا!

قلت: اتعتقد انهم قد يتركونكم؟

قال: كل ازمة جديدة، يجب ان تقنعهم اذا كانوا عاقلين، بقبول وجهة النظر هذه. وثق ان ازمة برلين الجديدة ستقدم لهم دليلا آخر على صواب هذا الرأي. اتظن ان الوضع يستقر، ببقائه على حاله؟ ان مجرد ظهور الرئيس خروتشوف بمشروعه، هو دليل آخر على استحالة بقاء هذا الوضع!

قلت: ولكن الوضع الراهن يعيش بسلام، منذ بضع سنوات على الاقل!

قال: انه لا يعيش فقط.. انه تطور. وهذا سبب المشكلة. اتظن ان اولئك سعداء في المانيا الشرقية؟ هم الآخرون مضطرون كالغرب الى مراعاة ذاك الشطر الالماني او تهيب هذا، والا لما احتاج خروتشوف الى فتح البحث من جديد، في صدد برلين، مستبقا التطورات الآتية للقضية الالمانية، لكي يدفعها في الاتجاه الذي يريد!

قلت: ولماذا تسير المانيا الغربية مع الغرب؟

فأجاب: لا تنس ان الغرب هو الذي كان يحتل المانيا الغربية، وكان

صاحب الكلمة في انشاء نظامها الجديد. وهناك عنصر آخر يرجح الكفة، وهو المطالب الاقليمية الالمانية. انهم يتحدثون الآن عن الوحدة كأنها تكتمل بالتحام الشطرين. ولكن اذا نسيت واشنطن وموسكو، فنحن لا نستطيع ان ننسى ميليزيا وما وراء الاودر، ولا بروسيا الشرقية. ولو اعطانا الروس بصيص امل بارجاع الاراضي المسلوخة الينا، لكان لنا منهم موقف آخر. ولكن ما داموا يصرون على اعتبار حدود نيسه - الاودر نهائية، فنحن مع المعسكر الذي يناوئ المعسكر المؤيد لتلك الحدود. نحن قبل كل شيء مع انفسنا، وهذا حقنا!

وتنهد محدثي طويلا، ثم قال:

- الشوط طويل، وطويل جداً. قد يستمر جيلاً، بل واجيالاً. لقد بدأ منذ بطرس الكبير وفريدريك الثاني ونابليون وسيظل مستمراً الى ان يدرك الروس والمعسكر الآخر، ان المانيا ضرورة حيوية للجانبين، وان تحقيق امانينا يخدم مصلحتهما معاً. ومهما سجلوا على حساب المانيا في الاجيال الاخيرة، فإنه اخف وطأة على سلام العالم من تمزيقها او اضعافها او اختفائها...

مقابل هذا الحديث الصادر عن شخصية سياسية، سمعت حديثاً من طراز آخر مع شخص عادي.

كنا نزور احدى نقاط الحدود، فوقفت مع شرطي الخفر تماماً على خط الحدود، فقال لي ضاحكاً:

- شبر واحد وراء هذا الخط، تصبح خلف الستار الحديدي!

فاغتنمت الفرصة لاطلق عليه سؤالاً كان يجول في خاطري:

- أتعرف ان هذا الخط قد يكون غداً خط الحرب، وان احدى الرصاصات الاولى، من هنا، ومن هناك قد تمر عليك؟...

فهز كتفيه، وضحك ثانية، وقال:

- نحن ادرى الناس بالحرب من غيرنا، ولا اعتقد انهم سيتحاربون من اجلنا... لا، لا اعتقد!

ثم قال: انا لا افهم شيئاً من السياسة، ولا احب السياسة. ولكن اذا كان مثل هذا الخط يهدد بالحرب، فلماذا لا يزيلونه؟ انظر، أترى في هذا الخط شيئاً طبيعياً؟ لقد وضعه رجال السياسة، وهم يحافظون عليه لأنهم لا يفهمون المنطق ولا الحقائق. يجب قطع رؤوس جميع الساسة، في كل مكان...

فقاطعته: او قطع هذا الخط..

فقال: كلا، ما دامت الامور بأيدي الساسة، فسيبقى هذا الخط، وليست السياسة هي التي ستزيله.

٣٦

■ برلين، شباط (فبراير) ١٩٥٩

منذ وطئت قدماي برلين، كنت احاول ان اتبين الاسباب التي دعت الاتحاد السوفياتي الى اثارة الازمة في الوقت الحاضر.

منذ فرض ستالين الحصار على برلين سنة ١٩٤٨، ثم رفعه عنها بعد سنة، اثر نجاح الحلفاء بتموينها بواسطة «الجسر الجوي»، تناسى الاتحاد السوفياتي برلين، واستقر اهلها - والدول الكبرى - على الوضع القائم: قطاع للروس، وثلاثة قطاعات للدول الغربية، فما الذي جعل الرئيس خروتشوف يقرر الآن بالذات، فتح قضية برلين من جديد؟

ان جميع الظواهر، تدل على ان تأجيل القضية زمنا آخر، قد يكون اقرب الى حلها لمصلحة الروس. فبعد سنتين تتبدل حكومة الولايات المتحدة، والمرجح ان يكون الرئيس ديموقراطيا، وغير مقيد بسياسة مرسومة كالرئيس ايزنهاور، فيكون التفاهم معه اهون سبيلا.

وبعد سنتين، قد تتبدل الاوضاع الداخلية في المانيا الغربية، بانسحاب

المستشار ايدناور من الحكم، وربما يفوز الاشتراكيون.

وبعد سنتين، قد ترجح كفة موسكو في التسلح الصاروخي، وتدخل «السنوات العجاف» في منهاج التسلح الاميركي.

ما الذي جعل خروتشوف اذن، يختار هذه الفترة؟

هذا السؤال، القيته في عدة صيغ، على كل من قابلته في برلين، من رسمي او غير رسمي، فسمعت اجوبة مختلفة، تدور كلها حول نقطة واحدة: ان خروتشوف يعتقد ان بقاء الاوضاع الراهنة في المانيا على حالها، يجعل المانيا بعد سنة او سنتين في وضع يستحيل معه مساومة الغرب عليها، اذ تصبح ذات وزن حربي ضمن الكتلة الغربية، تستطيع معه ان تفرض كلمتها على حلفائها، في الامور الخاصة بها. لذلك اراد خروتشوف ان يفقأ الدمل قبل فوات الآوان! قلت لأحد الذين تحدثت اليهم:

– انا لا افهم كيف تصبح المانيا قوة عسكرية ذات حساب في وزن الروس، ما داموا يستطيعون محوها ببضع قنابل هيدروجينية...

فأجاب: هذا صحيح، اذا افترضنا ان المانيا وحدها، وعزلاء. ولكن التسلح الالماني سائر قدما، وستملك المانيا في نهاية العام القادم احدث جيش في اوروبا، بل في العالم. وعلى صغره نسبيا، فإنه اول جيش تأسس مئة بالمئة للحرب الذرية. هذا الجيش، تدعمه الاسلحة النووية الاميركية، يصبح نقطة الثقل في القارة الاوروبية. ان الاسلحة الاميركية وحدها لا تستطيع الفصل في اية معركة في اوروبا بلا جيوش صالحة. والجيش الصالح الجاهز الآن في قلب اوروبا، وعلى محاذاة الجبهة السوفياتية تماما، هو الجيش الالماني، واية قوة في العالم تستطيع ان تجابه قوة اميركا والمانيا مجتمعتين؟ ان اكثر ما يهم روسيا في الوقت الحاضر هو استبقاء التحالف الاميركي في اوروبا مركزا على بريطانيا وفرنسا، اي على دول لا تحاذي الاتحاد السوفياتي، ولا تطلب منه اي مطلب اقليمي كالمانيا. وتستخدم موسكو في سبيل هذه الغاية مختلف الاساليب بمهارة، وقد اخذت تضرب في لندن وباريس على وتر الخطر الالماني، لكي تنضم انكلترا

وفرنسا اليها في الضغط على اميركا، للحد من تسليح المانيا وابرازها، حتى ضمن الحلف الاطلسي. والخلاصة فإن روسيا تريد ان تبقى المانيا اما عزلاء من السلاح الحديث، او ممزقة. ولكي تصل الى الغاية تستخدم احد امرين اليوم: الاول الضغط على الولايات المتحدة حتى تعدل عن المضي في التحالف الواقعي مع المانيا، وثانيا، اذا فشلت هذه المحاولة ستمضي موسكو في التجزئة الالمانية باستبقاء المانيا الشرقية، مع السعي لعزلها تماما عن المانيا الغربية.

قلت: ولكن ما علاقة برلين بما تقول؟

فأجاب محدثي: لقد اثار خروتشوف قضية برلين، لأنها البقعة الوحيدة التي يستطيع ان يفصل فيها شيئا يستفز الدول الغربية مباشرة لبحث القضية الالمانية. انه يقصد احد امرين: اما ان ينجح في خطته ويجر الغرب الى عقد اتفاق معه على المانيا، يحد من تسلحها ويزيل خطرها عليه، او ينتقم من الغرب والمانيا بضم القطاع السوفياتي في برلين الى المانيا الشرقية، لكي يقفل الثغرة المفتوحة التي تنفذ منها الجمهورية الاتحادية الى المانيا الشرقية، بل والى ما وراءها.

وفيما كنا ذات يوم على الحدود بين برلين الغربية والمانيا الشرقية، سألت مرافقنا:

– أين اصبح الجيش الالماني في المانيا الشرقية؟ هل يجري تسليحه على مستوى الجيش في المانيا الغربية؟

فأجاب: كلا، انه في المانيا الشرقية لا يزيد عن ميليشيا، سيئة التسلح، فليس للروس اية مصلحة في تسلح جيش الماني، ولو كان تحت الحكم الشيوعي، لأن هذا الجيش قد يفرض ارادته ذات يوم على الحكومة ويقلبها.

وهنا تبادر الى ذهني حديث سمعته من صحافي فرنسي مقيم في برلين، فقال:

– ان الحال في المانيا الشرقية لم تعد تطاق، وأهلها يزعجون الروس كثيرا. انهم يريدون الوحدة مع المانيا الغربية بأي شكل كان. ومنذ اصبحت

المانيا الغربية دولة ذات وزن وحساب، اتجهت انظارهم اليها، واصبح نفوذها في المنطقة الشرقية اقوى من اية قوة اخرى. ولما كانت برلين هي الباب الذي تدخل منه المانيا الغربية الى الشطر الشرقي، فإن خروتشوف يريد سده قبل ان تسوء الحال...

قلت: ماذا تعني؟

قال: اتذكر ان اول انتفاضة في الكتلة الشرقية بعد موت ستالين، وقعت في المانيا الشرقية؟ اليست حوادث برلين الشرقية؟ هذه الحوادث يمكن ان تتجدد على مستوى اوسع بكثير من اي وقت كان!

قلت: ولكن الجيش الاحمر مرابط هناك؟

فأجاب: كان مرابطا سنة ١٩٥٥ ايضاً. ثم، كيف تستطيع ان تفرض الرقابة على ١٨ مليون الماني؟ ان المان المنطقة الشرقية هم اشد عنفاً في وطنيتهم ممن حولهم، والكبت والحرمان زاداهم عنفا في شعورهم القوي!

وفيما كنت اناقش موظفا المانيا في صواب الرجوع الى الاندفاعات القومية التي كانت تعصف بالمانيا في الماضي، قال لي:

– احسبونا الماو ما... احسبونا كأهل الغينة والكاميرون... احسبونا مثلكم (اي كالعرب). لماذا ترون طبيعيا ان تتفجر الاماني القومية هناك، ولماذا يكون خطأ ان تتفجر عندنا؟ ومع ذلك، يبدي الالماني في هذه الايام صبرا عجيبا، ولكن هذا الصبر لا يعني اننا نسينا وحدتنا، او يمكن ان ننسى المظالم التي سلخت عنا نصف ديارنا...

* * *

فيما كانت الطائرة تحلق فوق برلين، وهي عائدة بنا من رحلتنا، تأملت في العاصمة السابقة: انها واحدة في بنائها، في هندستها، في اهلها، في ماضيها.

كلا، هذه التجزئة هي مهزلة اخرى من مهازل السياسة الدولية. انها تصلح لفترة قصيرة، ولكنها لا يمكن ان تخلد. وما دامت هذه التجزئة قائمة، وما دامت المانيا ممزقة، فلن يعرف العالم اية راحة!

فهرس الأعلام والموضوعات

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

كامل مروّة

مؤسس صحيفة «الحياة» البيروتية وأحد ألمع الصحافيين العرب في زمنه.

ولد في بلدة الزرارية في جنوب لبنان عام ١٩١٥، وبدأ عمله الصحافي عام ١٩٣٣ في بيروت في جريدة «النداء» لصاحبها كاظم الصلح، ثم التحق بصحيفة «النهار» عام ١٩٣٥ في ايام مؤسسها جبران تويني.

لجأ الى تركيا وبلغاريا والمانيا اثناء الحرب العالمية الثانية هرباً من قوات الحلفاء، وانضم هناك الى الجماعات العربية التي اختارت التحالف مع المحور لمحاربة الانتدابات في المنطقة.

عاد الى بيروت اواخر ١٩٤٤ فاعتقله الجيش البريطاني فترة ثم اطلقه.

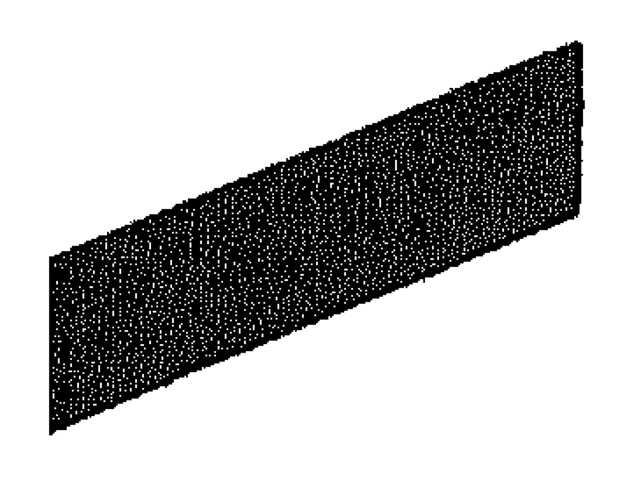
اصدر «الحياة» عام ١٩٤٦ فاصبحت احدى اهم الصحف العربية واكثرها تأثيراً وانتشاراً.

ناهض في كتاباته التيارين الناصري والاشتراكي، داعياً الى قومية عربية معتدلة متآلفة مع محيطها الاسلامي، والى اعتماد النظام الاقتصادي الحر.

اغتيل في مكتبه في بيروت مساء ١٦ أيار (مايو) ١٩٦٦، وكان في الحادية والخمسين من عمره، وكان متأهلاً وله خمسة أولاد.

بيروت - برلين - بيروت

«بـيروت ـ برلـين ـ بـيروت» هي مشـاهـدات لصحـافي سـاقتـه الاقـدار الى القلب الملتهب لأوروبـا خلال الحـرب العالميـة الثانيـة، ثم ساقته اليـه مرة ثـانية في الخمسينـات خلال الحـرب الباردة. لم يكن كـامل مـروة يومهـا يتجاوز السادسة والعشرين من عمره عنـدما قـام برحلتـه الأولى الى برلـين. لكن عـلى رغم حداثة سنّه كانت له تجارب سابقة في السفر، بينهـا رحلة الى مجـاهـل افـريقيـا السـوداء وجـولات متفرقـة في الشرق العربي وتـركيـا واوروبا الغربية.



وقـد وفّرت تلـك التجارب لكـامـل مـروة، الى جـانب تدريبـه الصحافي واتقـانه الالمـانية، القدرة على التفاعل والاطلاع عن كثب على ما يجـري داخل الامبـراطوريـة المحوريـة وفي تخـومها. فـدوّن ما رآه بعينـين مفتوحتـين، مفتوحتين عـلى كل شيء. «انهـا الرحلـة التي طبعت حياتي» كما كـان يردد كـامل مـروة في كتـاباتـه لاحقاً... تمـاماً كمـا طبعت الحـرب العالمية الثانية والحرب الباردة التي تلتهـا، العالم الذي نعيشه اليوم.


185513084X